التصوف الإسلامى

فى الأدب والأخلاق

بقلم
الدكتور زكى مبارك
المفتش بوزارة المعارف

(قدم هذا الكتاب إلى الجامعة المصرية فى سنة ١٩٣٧
ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه فى الفلسفة برتبة الشرف)

الجزء الثانى

الطبعة الأولى سنة ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر

التصوف الإسلامى

فى الأدب والأخلاق

بقلم

زكى مبارك

المفتش بوزارة المعارف العمومية

قدم هذا الكتاب الى الجامعة المصرية
ونوقش امام الجمهور فى ٤ ابريل سنة ١٩٣٧
ونال به المؤلف
إجازة الدكتوراه فى الفلسفة برتبة الشرف

٢

الجزء الثانى

الطبعة الأولى سنة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر

كيف نشأ التصوف فى الأخلاق

قدم التصوف — الروحانية والضعف — الضعفاء هم الذين اهتدوا الى الايمان وعرفوا قيمة النفس الانسانية — التصوف فى سفر أيوب وفى القرآن — تصوف الرسول — حذيفة ابن اليمان — الحسن البصرى — أبو حمزة الصوفى — الزهد والتصوف — أهل الظاهر وأهل الباطن — أصل الخلاف — أعداء الصوفية — الصوفية يرون أنفسهم ورثة الأنبياء — فضل الفقه وفضل التصوف — أثر المسيحية فى التصوف — محاورة بين صوفى و راهب — طبقات أهل الغيب — الصلة بين التشيع والتصوف — قيمة التصوف فى الحياة الخلقية — نظام البحث .

---

١ — التصوف لون من الذوق عرفه العرب قبل الاسلام بأجيال طوال . ومن خطأ الرأى أن يقال إنه كان معدوما فخلقته النزعات الاسلامية . واليكم البيان :

العرب أمة عريقة فى التدين ، والتدين فى ذاته تصوف ، لأنه نوع من الضعف ، والضعف باب الى التصوف : فان الانسان فى الأصل حيوان شَرِسٌ يقاتل ويغالب ، ثم تأتى لحظات يصرعه فيها الضعف فيقف ويتأمل : من أين أتى ؟ والى أين يصير ؟ وينتهى به الفكر الى الاقتناع بأنه مخلوق ضعيف ، وعندئذ يكون التدين . والمتدينون فريقان : فريق لا يزال يحسّ القوة والعافية فيجالد فى ميادين الحياة ، وفريق ينتهى به الضعف الى التسليم المطلق فيرضى بالدون من العيش ويتوجه الى التفكير فى ملكوت السماء .

وعند التأمل نرى الروحانيات لا تكثر الا فى الأمم الضعيفة ، أما الأمم القوية فتوغل فى الماديات ، وتحرص على امتلاك ما فوق الأرض من أصول المنافع ، ومَثَل الأمم فى ذلك مَثَلُ الأفراد ، فالرجل فى دور العافية والشباب

تكون أطماعه فى الأغلب مادية ، فيبنى المنازل ، وينظم المزارع والمتاجر والمصانع ، وفى دور الضعف والشيخوخة يقف موقف المتأمل فيما كان وما سيكون . ويتحول الى قوة روحية يستر بها الضعف الذى رمته به أحداث الزمان .

والمتصوف يتصنّع فى البداية ، ثم يصير صوفيا بالطبع ، حين تغلب عليه قوة الفكر والإشراق .

ولنواجه هذه المسألة بعزيمة وصراحة فنقول إن هناك شخصيتين : الشخصية الحيوانية والشخصية الانسانية ، أما الشخصية الحيوانية فهى الأصل ، والفضائل فيها تقوم على أساس الغَلَبة والعُنْف ، وهى شخصية لا تزال محفوظة الملامح فى كتب الأساطير ، والناس يحنون اليها حنينا شديدا ، حتى لنراهم فى الكتب الروائية يتمنون أن لا ينهزم القوىّ وإن بغى وخان . وبفضل القوة وُجِدَ فى القوانين الدولية ما يسمى حق الفتح ، وهو رجعة الى القانون الخُلُقى فى عالم الشخصية الحيوانية .

أما الشخصية الانسانية فهى شخصية مهذبة . والتهذيب هنا يراد به معناه اللغوى الأول ، أى أن هذه الشخصية قلّمت أظافرها ، وقطّعت أشواكها ، وصُنِع بها ما يُصْنَع بالحيوان المفترس ، أو الشجرة الشائكة ، فأصبحت مصقولة الجوانب لا يُخشَى منها بطشٌ ولا عدوان مادامت محكومة بصوارم القوانين .

وهذه الشخصية الإنسانية لم تُخْلَقْ إلا بحكم الضعف ، وقد استطاع جان جاك رُوسُّو ان يتصور دقائق اللحظات التى خُلِقَت فيها هذه الشخصية ،

وفى زعمه أن الناس تجمّعُوا وتعاقدوا ، واصطلحوا على أن يترك كل فرد منهم جزءاً من حريته ، ليتكوّن من مجموع ما يتنازل عنه الناس من حرياتهم قوة تنهض بها حكومة تحمى الضعفاء ، وتكف عدوان الأقوياء .

ثم عادت الشخصية الانسانية فانقسمت إلى شخصيتين : شخصية مادية وشخصية روحية . فالأولى هى الشخصية التى لا تتأدب إلا بفضل القانون ، أى بفضل السيف والسَّوْط ، وهى شخصية سليمة إن نظرنا إليها من الوجهة الحيوانية ، والثانية هى الشخصية التى تتأدب بفضل الروح ، وهى شخصية سليمة إذا نظرنا إليها من الوجهة الانسانية .

وبهذا نرى أن العافية الخُلُقية ليست إلا مسألة اعتبارية ، فالعنف فضيلة عند قوم ، ورذيلة عند آخرين ، هو فضيلة عند من يعيشون على المبادىء الحيوانية ، وهو رذيلة عند من يعيشون على المبادىء الانسانية ، وكذلك يقال فى اللين ، فهو ضعف فى عالم الأقوياء ، وهو حِلم فى دنيا الضعفاء .

ولنسجّل هنا أن الضعف نفسه صار سلاحا قوياً بفضل المهارة الانسانية فالانسان حين ضَعُف اعتمد على فكره ولسانه فى تقبيح الرذائل الحيوانية وما زال يبدىء ويعيد حتى أشاع فى العالمين أن الظلم ملعونٌ فى الأرض ملعونٌ فى السماء .

وشواهد الحياة تؤيد رأى الضعفاء من الناس ، فهؤلاء الضعفاء هم الذين قالوا بوجود قوة قاهرة مُسَيْطِرَة هى قوة الله ، وهم الذين بسطوا ألسنتهم فى الدنيا فرموها بالغدر وحكموا عليها بالفناء .

شواهد الحياة تؤيد رأى هؤلاء الضعفاء : لأن الدنيا حقاً فانية ، ولأن الانسان حقاً ضعيف ، ولا يمترى فى هذه الحقـائق أحد ، فالرجل الهائل الذى يأمر وينهى ويبغى ويستطيل ينقلب فى لحظة واحدة إلى مخلوق ذليل حين يدهمه المرض ، أو تلسعه حشرة حقيرة ، أو يهجم عليه كلب مسعور ، أو يتردى فى جبّ عميق .

وهو أذل وأحقر حين يصرعه الموت ، وما ظنكم بمخلوق تفارقه الروح فتعلوه صفرة بشعة ، وتهب منه ريح يعجز عن ملاقاتها أشجع الناس ؟

وما هى مصاير اللذات فى الدنيا ؟ أليس كل نعيم إلى زوال ؟ أين ذهب ملك الطغاة والمستبدين لعهد الفرس والعرب والرومان ؟ وأين ما بقى من المُتَع الحِسيّة التى رآها قصر فرساى ، وهو اليوم بلافراش ولا أثاث ؟ أين لا أين ! إن كان فى العالم قصيدة إنسانية خالدة فهى التصوف ، هو وحده الأنشودة الباقية يوم تبيد الأناشيد ، ولو فنيت الدنيا دفعـة واحدة وبقى إنسان واحد يفتش عما حقّ فيها من الكلمات لما وجد أصدق من كلمة الصوفية.

٢ — نشأ التصوف إذن فى ظلال الضعف ، أى نشأ فى ظلال الحق ، يوم عرف الانسان قيمة نفسه واطمأن إلى أنه مخلوق ضعيف إن تخلت عنه رعاية الله لحظة واحدة هلك وباد .

نشأ التصوف حين شكّ الانسان فى قيمة الحقائق الانسانية ، يوم رأى كل قوة إلى ضعف ، وكل وفاء إلى غدر، وكل حياة إلى موت . وكل شُرُوق إلى غروب .

لا تسألوا متى اهتدى الانسان إلى قيمته الذاتية ، ويكفى أن تتذكروا

أن البيئات العربية عرفت كثيراً من الأنبياء الذين آثروا الزهد والفرار من اللذات ، وعرفت أن أطيب الناس ذِكْراً فى العالم القديم هو إبراهيم الخليل الذى حطّم الأصنام وأخلد إلى التوحيد .

ويمكن الحكم بأن أقدم الآثار الصوفية هو « سِفْرُ أيّوب » الذى شرح البلايا الانسانية وصوّر حيرة المرء بين السعادة والشقاء ، والهدى والضلال.

وأقرب الآثار الصوفية إلى أذهان الناس هو القرآن ، ذلك الكتاب الذى أطال القول فى وصف الدنيا وذمها وثلبها وتحقيرها ، وقضى بأنها لَهْوٌ ولعِبٌ ، وأنها فى نضارتها ليست إلا مَتَاع الغُرور ، القرآن هو أقرب الآثار الصوفية إلى أذهان الناس وإن جهلوا ذلك ، هم يعدّونه كتاب تشريع ونراهُ كتابَ تصوُّف . إن التشريع فى القرآن ليس إلا تنظيما للعلاقات الدنيوية ، والعلاقات الدنيوية فى نظر القرآن هى تمهيد للصلات الروحية : صلات الناس بالله الكبير المتعال ، وكل مَغْنَمٍ لا يقرِّب المرء من ربه هو فى نظر القرآن زُخْرُفٌ باطِلٌ سَخيف .

والإِنسان فى نظر القرآن هو مخلوق مغرور تطغيه النعمة وتذله الباساء

« وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا ، قل الله أسرع مكراً ، إن رسلنا يكتبون ما تمكرون . هو الذى يسيِّركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفُلك وجرين بهم بريح طيبة فرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع

الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون . إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون (١) » .

والقرآن يذكر الناس بأن الأمر كله لله : فهو الذى يحيى وهو الذى يميت « نحن خلقناكم فلولا تصدّقون ، أفرأيتم ما تُمْنُون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدَّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدِّل أمثالكم وننشئكم فى ما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكّرون أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكّهون ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء لجعلناه أُجَاجاً فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ، فسبّح باسم ربك العظيم (١) » .

وسياق القول فى القرآن كله يتجه وجهة روحية ، ويذكّر المرء بربه ، ويخوّفه من بطشه ، ويطمعه فيما أعدّ للصالحين من جزيل الثواب .

٣ — وكان الرسول يتقشف تقشفا صوفيا ، وقد دخل عليه عمر بن الخطاب فوجده على حصير قد أثّر فى جنبه فكلمه فى ذلك فقال : مهلا يا عمر ، أتظنها كِسْرَوِيَّة (٢)

---

(١) سورة يونس ٢١ — ٢٤ (٢) سورة الواقعة ٥٧ — ٧٤ (٣) الكشكول ص ٢٩٣

وأتاه رجل بهديَّة فذهب يلتمس وعاء يفرغها فيه فلم يجد ، فقال له : فرّغها فى الأرض ، ثم أكل منها وقال : آكل كما يأكل العبد ، وأشرب كما يشرب العبد ، لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء (١) .

وفى كتب الشمائل أخبار كثيرة عن تقشف الرسول ، وهو نفسه قد عاش فى بيئة صوفية ، يدل على ذلك نهيه عن الرهبانية وعن مواصلة الصوم ، وهو لم يرغّب فى الزواج إلاّ لأنه رأى ناسا يتبتّلون ، ولم ينه عن وصل الصيام إلا لأنه رأى ناسا يصلون الصيام ، وهذا وذاك من سمات التصوف .

والفرق بين تصوف الرسول وتصوف من عاصروه أنه كان يعتدل وكانوا هم يسرفون .

والقرآن يوصى الرسول بأن يَصْبِرَ نَفْسَه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ يريدون وجهه ، وهذا تأديب للمؤمنين ، وفيه اعتراف بشخصية من ينصرف عن زينة الحياة الدنيا وينقطع لذكر الله . وقد ورد اسم المؤمنين فى القرآن فى سياق يعيّن نسبتهم إلى الروحانية إذ قال « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» ولا يسامح فى مهجته إلا أجود الناس، وكان فى شمائل الصحابة مصداق لهذه الروحانية ، فقد جاد أبو بكر بجميع ماله ، وجاد عمر بشَطْر ماله ، فقال له الرسول : ما أبقيتَ لأهلك ؟ فقال : مِثلَه . وقال لأبى بكر : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال : اللهَ ورَسُولَه . فقال النبىّ بينكما ما بين كلمتيكما . فالصدِّيق وَفَى بتمام الصِّدق فلم يمسك سوى المحبوب

---

(١) الـكشكول ص ٢٩٣

عنده وهو الله ورسوله (١) وذلك بالتأكيد تصوّف وروحانية .

٤ — التصوف قديم عرفه العرب قبل الإسلام وتخلقوا به لعهد الرسول ، ولكن يظهر أنه لم يكن ملحوظا فى كلام الناس ، ولم يختصّوه بدرس ولا بيان ، وكانت الأعمال الروحية تندرج فى الأعمال الدينية . وأول من تلفت الناس إلى كلامه فى المعانى الوجدانية وأسرار القلوب هو حذيفة بن اليمان الصحابى الجليل ، وقد قيل له : نراك تتكلم فى هذا العلم بكلام لا نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله فمن أين أخذته ؟ فقال : خصّنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان الناس يسألونه عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافةَ أن أقع فيه . وعلمت أن الخير لا يسبقنى . وقال مرة : فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير . وفى لفظ آخر : كان الناس يقولون يا رسول الله ما لِمَنْ عمل كذا وكذا ، يسألونه عن فضائل الأعمال ، وكنت أقول : يا رسول الله ، ما يُفسِدُ كذا وكذا . فلما رآنى أسأل عن آفات الأعمال خصّنى بهذا العلم (٢) .

قال المكى : وكان حذيفة قد خُصَّ بعلم المنافقين وأُفرِدَ بمعرفة علم النفاق وبسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة ، فكان عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الفتن العامة والفتن الخاصة ويرجعون إليه فى العلم الذى خُصَّ به . وكان عمر يستكشفه عن نفسه هل يعلم فيه شيئا من النفاق فبرأه منه ، ثم يسأله عن علامات النفاق وآية المنافق فيخبر من ذلك بما يصلح مما أُذِنَ له فيه ،

(١) الاحياء ج ١ ص ٢٢٥

(٢) القوت ج ٢ ص ٢٣

ويستعفى مما لا يجوز له أن يخبر به فيُعذَر فى ذلك (١) .

ومعنى هذا أن الرسول كان يكتم أسرار التصوف ، ولا يمنحها غير الخواصّ، ومعناه أيضا أن التصوف هو البصر بأسرار القلوب، وما يَعرِض لها من دقائق الرياء والنفاق .

وعن حذيفة بن اليمان تعلم الحسن البصرى ، وهو إمام الصوفية ، أثرَه يقفون ، وسبيلَه يتبعون ، ومن مشكاته يستضيئون (٢) وقد كان الحسن البصرى أحد المذكِّرين ، وكانت مجالسه مجالس الذكر يخلو فيها مع إخوانه وأتباعه من النساك والعباد مثل مالك بن دينار وثابت البنانى وأيوب السختيانى ومحمد بن واسع وفرقد السنجى وعبد الواحد بن زيد ، وكان يحدّث أصحابه فى خواطر القلوب ، وفساد الأعمال ، ووسواس النفوس ، وربما قنَّع بعض أصحاب الحديث رأسه فاختفى من ورائهم ليسمع ذلك . وكان من خيار التابعين بإحسان . وقد لقى سبعين بدرياً ورأى ثلثمائة صحابى (٢) وكانت أمه مولاةً لأم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ويقال إنها ألقمته ثديها تعلله حين بكى فدَرّ ثدْيُها عليه (٢) وكان كلامه يشبَّه بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) وكان أبو قتادة العدوى يقول : عليكم بهذا الشيخ ، فوالله ما رأينا أحداً لم يصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منه (٢) وكانوا يقولون : كنا نشبهه بهدى ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم فى حلمه وخشوعه ووقاره وسكينته ، فكان على شمائله (٢) ونذرت امرأة بالبصرة نذرا إن فعل الله تعالى ذلك بها أن تنسج من

---

(١) القوت ج ٢ ص ٢٢ (٢) ص ٢٣

غزلها ثوباً، وصفته، وتكسوه خير أهل البصرة، فرأت تمام نذرها فوَفَتْ بما نَذَرَتْ ثم سألت: مَنْ خير أهل البصرة؟ فقالوا: الحسن (١).

قال المكى: وكان الحسن رضى الله عنه أول من أنهج سبيل هذا العلم وفتق الألسنة به، ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره، وكشف قناعه، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعوه من أحد من إخوانه، فقيل له: يا أبا سعيد، إنك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك، فمن أخذت هذا؟ فقال: من حذيفة بن اليمان (٢)

والحسن البصرى شخصية جذّابة، ويقال إنه الشاب الذى أثنى عليه علىّ ابن أبى طالب، فقد دخل جامع البصرة وجعل يخرج القصاص ويقول القَصَص بِدْعة، فانتهى إلى حَلقة شاب يتكلم على جماعه فاستمع إليه فأعجبه كلامه فقال: يا فتى، أسألك عن شيئين فان خرجت منهما تركتك تتكلم على على الناس وإلا أخرجتك كما أخرجت أصحابك. فقال: سَلْ يا أمير المؤمنين، فقال: أخبرنى ما صلاح الدين وما فساده؟ فقال صلاحه الورع وفساده الطمع. قال: صدقت، تكلم، فمثلك يصلح أن يتكلم على الناس(٢)

وكان شديد الخوف من الله، ويقال إنه ما ضحك أربعين سنة، وكان فى حزنه كأنه أَسِيرٌ قدِّم ليضرب عنقه. وإذا تكلم حسبته يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدة، وإذا سكت ظننت النار تَسَعَّر بين عينيه. وعوتب فى شدة حزنه فقال: ما يؤمننى أن يكون الله قد اطلع علىّ فى بعض ما يكره فمقتنى فقال. اذهب فلا غفرت لك (٣).

---

(١) القوت ج ٢ ص ٢٣

(٢) القوت ج ٢ ص ٨٨

(٣) ج ٤ ص ١٨٣

ومن كلامه وقد رأى هيئات الناس فى أحد أيام رمضان : إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً لخلقه ، يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته ، فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه المبطلون ، أما والله لو كُشِفَ الغِطَاء لَشُغِلَ محْسِنٌ باحسانه ، ومسىءٌ باساءته (١)

ونظر الى قوم منصرفين من صلاة الفطر يتدافعون ويتضاحكون فقال : الله المستعان ، إن كان هؤلاء قد تقرر عندهم أن صومهم قد تُقُبِّلَ فما هذا محل الشاكرين ، وإن علموا أنه لم يقبل فما هذا محل الخائبين (١) .

قال الحصرى : ويقال إنه لم يكن تابعىّ أفضل منه ، هذا قول أهل العراق جميعا ، وأهل الحجاز يقدمون سعيد بن المسيب عليه . وكان سعيدٌ أحسن من الحسن ورَعًا ، وأشد الناس جزَعاً ، وأقلهم كلاماً . وكان الحسن لا يدع أن يتكلم بما هجس فى نفسه ، وجاش فى صدره (٢)

ونحن نعرف لِمَ كان الحسن كثير الكلام ، فقد كان معلماً ، والمعلمون أكثر الناس كلاماً . ولا سيما إذا كانوا أصحاب مذاهب . وكان الحسن يعلم الناس أسرار القلوب . وكان يعرف أنه صاحب مذهب وأن عليه أن يشرح ما فيه من دقائق وأسرار . وكذلك نجد اسمه فى جميع مؤلفات الصوفية ، لأنه المعلم ، ولأن كلماته المأثورة تكاد تَجلُّ عن الاحصاء .

٥ — والمفهوم من أحوال البصرى أنه اهتم بشرح التصوف وتكلم عن آفات النفوس ، وقد مات سنة عشر ومائة ، وهو بذلك أقدم الأشياخ عند الصوفية .

---

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٥٩ الطبعة الأولى (٢) ص ٢٦٠

ويليه فى المنزلة أبو حمزة الصوفى ، وهو أستاذ البغداديين ، وأول من تكلم ببغداد فى مذاهب التصوف : من صفاء الذكر ، وجمع الهمة ، والمحبة ، والشوق ، والقرب ، والأنس ، لم يسبقه إلى الكلام بهذا على رءوس الناس ببغداد أحد (١) .

وكان أبو حمزة من كبار القوم ، وهو الذى يقول :

نهانى حيائى منكَ أنْ أكْشِفَ الهوى
وأغنيتَنِى بالقرب منكَ عن الكشفِ

تراءيت لى بالغيب حتى كأنما
تبشرنى بالغيب أنك بالكف

أراك وبى من هيبتى لك وحشة
فتؤنسنى بالعطف منك وباللطف

وتُحْيِي محبا أنت فى الحب حَتْفُهُ
وذَا عجب كون الحياة مع الحتف (٢)

وخرج جماعة من الصوفية يستقبلونه من مكة فإذا به قد شحب لونه فقال الجريرى : يا سيدى ، هل تتغير الأسرار إذا تغيرت الصفات ؟ قال معاذالله لو تغيرت الأسرار لتغيُّرِ الصفات لهلك العالم ، ولكنه ساكنَ الأسرار فحماها ، وأعرض عن الصفات فلاشاها .

ثم ولى وهو يقول :

كما ترى صيرنى قطع قفار الدمن

---

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٩٣ (٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٩٤

شردنى عن وطنى كأننى لم أكن
إذا تغيبت بدا وإن بدا غيبنى
يقول لا تشهد ما يشهدأو تشهدنى[١]

٦ — تلك صورة تقريبية لنشأة التصوف فى الأخلاق . ولنتذكر أن مؤرخى هذا العلم مجمعون على أن لفظ التصوف لم يُعْرَفْ مصحوباً بالرسوم إلا فى القرن الثانى ، وإن كان منهم من أشار إلى أن اللفظ كان معروفا فى القرن الأول[٢] وكانت صحبة رسول الله أشرف الألقاب ، فاستغنوا بها عن الاتسام بالتصوف ، ثم قيل القُرَّاء والزُهَّاد والنُسَّاك والعُبَّاد ، ثم قيل الصوفية [٣] .

والظاهر أن النساك كانوا فريقين : أحدهما يتعبد فى صمت ، وثانيهما يتعبَّد ويَتَفَلْسَفُ ، فالذين اكتفوا بحسنِ الخلق والزهد فى الدنيا والتأدب بأدب الشرع لُقِّبوا بالنساك والقراء والزهّاد والعبّاد ، والذين أقبلوا على دراسة النفوس وآفاتها ، واهتموا بشرح ما يرد على القلب من الخواطر ، وحرصوا على أن تكون لهم صبغة مذهبية ، لقبوا بالصوفية .

وهؤلاء وأولئك كان لهم وجود محسوس ، وعُرِفَتْ لهم مقامات فى وعظ الخلفاء والوزراء ، وكانت مذاهبهم بسيطة أول الأمر ، ثم تعقدت

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٩٤ (٢) انظر اللمع ص ٢٢ (٣) انظر اللمع ص ٢٢ ومقدمة ابن خلدون ص ٤١١ . واليافعى يرى أن أهل الصفة هم الصدر الأول من الصوفية ، ويقول نقلا عن شهاب الدين السهروردى : وقيل كان منهم طائفة بخراسان يأوون الى الكهوف والمغارات ولا يسكنون القرى والمدن فسموهم فى خراسان شكفتية ، لأن شكفت اسم المغارة عندهم ، وأهل الشام يسمونهم جوعية (انظر ص٣٤٤ و ٣٤٥ ج ٢ من كتاب نشر المحاسن الغالية).

وتَشَعَّبت بعد أن كثر اتصالهم بالناس. وطالت مجادلتهم لأهل الفقه والتوحيد.

٧ — ويمكن الحكم بأن أول مشكلة عقلية عَرَضَت لأولئك القوم هى الظاهر والباطن، أو الشرع والحقيقة، وساعد على وجود هذه المشكلة ورود آيات فى القرآن تحتاج إلى تأويل، من هذا قوله تعالى «ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتِيَا طَوْعاً أو كَرْهاً، قالتا أتينا طائعين» فالبليد يفتقر فى فهمه إلى أن يقدّر لهما حياة يخلقها الله للسماء وللأرض، وعقلا وفهما للخطاب، وخطاباً هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف وصوت وتقولان: أتينا طائعين، والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونهما مسخّرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير . . . ومنه أيضاً قوله تعالى «وإن من شىء إلا يسبح بحمده» فالبليد(١) يفتقر فيه إلى أن يقدر للجمادات حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول سبحان الله ليتحقق تسبيحه، والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان، بل كونه مسبحاً بوجوده ومقدساً بذاته، وشاهداً بوحدانية الله سبحانه، كما يقال:

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه واحدُ

وكما يقال هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول، ولكن بالذات والحال ... فهى تشهد لخالقها

---

(١) كلمة «البليد» هى تعبير الغزالى وهى تبين كيف يحتقر أهل الظواهر. وقد اتفق لبعض الصوفية أن يستبعد الهداية على الفقهاء، فقد جاء فى جامع كرامات الأولياء ج ٢ ص ٣١٥ مانصه «ومن كرامات المرسى التى انفرد بها عن غالب الأولياء تسليكه لنحو ثلاثين قاضيا. وكان يقول للعرشى: ليس الشأن أن تسلك كل يوم ألفاً من العوام. بل أن تسلك فقيها واحداً فى مائة عام»

بالتقديس ، يدرك شهادتها ذوو البصائر دون الجاحدين ، ولذلك قال تعالى « ولـكن لا تفقهون تسبيحهم »[١]

قال الغزالى : وهذا الفن مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر فى علمه ، وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر ، وفى هذا المقام لأرباب المقامات أسرار[١]

وكذلك يقال فى قوله تعالى « وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم » وقوله : « وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء » وكذلك المخاطبات التى تجرى من منكر ونـكير ، وفى الميزان والصراط والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة فى قولهم « أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله »[١]

فهذه وأمثالها مما اختلف فيه العلماء والصوفية ، ففريق يقول إن ذلك كله بلسان الحال ، وفريق يَحْسِم الباب ويمنع التأويل وقد غلا فى ذلك احمد ابن حنبل حتى منع تأويل قوله « كن فيكون » وزعم هو وأصحابه أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى فى كل لحظة بعدد كون كل مكوّن[١] وبلغ به الأمر أن منع تأويل قول الرسول « الحجر الأسود يمين الله فى أرضه » وقوله « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » وقوله « إنى لأجد نَفَس الرحمن من جانب اليمن » وعند الغزالى أن ابن حنبل لم يمنع التأويل الا رعاية لصالح الخلق ، فانه اذا فتح الباب اتسع الخرق وخرج الأمر عن الضبط وجاوز حدّ الاقتصاد ، إذ حدّ الاقتصاد لا ينضبط[١]

---

(١) انظر الاحياء ج ١ ص ١٠١

٨ — وما زال الفقهاء يمشون فى طريق والصوفية فى طريق حتى بعدت بينهم شقة الخلاف ، واتفق أن كان العز بن عبد السلام يطعن على ابن عربى ويقول : هو زنديق ، فقـــال له بعض أصحابه : أريد أن ترينى القطب ، فأشار الى ابن عربى . فقال له : فأنت تطعن فيـه ؟ فأجاب : أصون ظاهر الشرع[١] ومعنى هذا أن ظاهر الشرع لا يعترف للصوفية بوجود صحيح .

وقال بعض الصوفية لأحد المريدين : إن كنت تريد الجنة فسر الى ابن مدين ، وإن كنت تريد رب الجنة فهلم الىّ [٢]

فالجنة طريقها الشرع ، أما السبيل الى الله فهو التصوف

وكان ابن الكاتب اذا ذِكر الرُّوزبارى يقول : سيدنا أبو على . فقيل له فى ذلك فقال : لأنه ذهب من علم الشريعة الى علم الحقيقة . ونحن رجعنا من علم الحقيقة الى علم الشريعة[٣]

فالعلم الذى يسود صاحبه هو التصوف ، أما الفقه فمحصول العامة من الناس .

وقيل لبعض الصوفية : كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم . وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع[٤]

وكانوا يقولون : أهل العلم على ضربين ، عالم عامة ، وعالم خاصة ، فاما عالم العامة فهو المفتى فى الحلال والحرام ، وهؤلاء أصحاب الأساطين[٥] ، وأما عالم الخاصـة فهو العالم بعلم التوحيد والمعرفة وهؤلاء أهل الزوايا وهم المنفردون[٦] .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥٨١
(٢) النفح ج ١ ص ٥٨٣
(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٣١
(٤) الاحياء ج ١ ص ٢٢٥
(٥) جمع أسطوانة وهى عمود المسجد
(٦) القوت ج ٢ ص ١١

ورفض المحاسبي أن يأخذ شيئا من ميراث أبيه ، وكان ورث منه سبعين ألف درهم ، وكان أبوه يقول بالقَدَر فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئا . وقال صحت الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يتوارث أهل ملتين شيئاً [١]

والشاهد فى هذا الخبر أن الصوفية كانوا يرون أنفسهم مِلة ، ويرون مخالفيهم فى الرأى ملة أخرى .

وكان ابن العفيف يقول : اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلّموا لهم حالهم [١]

والخمسة الذين ذكرهم ابن العفيف جمعوا بين العلم والحقائق ، فهم أهل للاقتداء ، أما الباقون فوقفوا عند الحقائق فينبغى أن يسلم لهم حالهم ، لأن لهم بَدَوَات لا تعرفها الشريعة

٩ — وما زال الخلاف بين الفرقتين يقوى ويشتد حتى رأينا من يقول: من لم يزِنْ أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعده فى ديوان الرجال [٢]

ولو مضينا نستقصى ما كُتِبَ طعنا فى الصوفيه لطال بنا القول ، ويكفى أن يعرف القارىء سر الخلاف ، فأهل الظاهر يرون الشريعة قوانين محدودة منظمة يسهل الرجوع اليها فى الفصل بين الناس ، ولا كذلك التصوف فان أهله يعتمدون على الخواطر ويستفتون القلوب ، وليس فى ذلك شيء مضبوط ، وما يدركه هذا قد يجهله ذاك . ولو أضيفتْ سلطة الحكومة

(١) القشيرية ص ١٢ (٢) القشيرية ص ١٧

الى الصوفية لسادت الظنون ، وأصبح أمر الناس الى فساد ، واشتبكت مسالك اليقين .

وقد وضع ابن القيم كتابا نفيسا سماه « تلبيس ابليس » عرض فيه لأحوال الصوفية بالذم والتقريع ، وهو كتاب يقوم على أساس الشرع والعقل ، وقد عاب عليهم أن يظنوا أن المراد من رياضة النفوس هو قمع ما فى البواطن من الصفات البشرية ، مثل قمع الشهوة والغضب وغير ذلك ، وليس هذا مراد الشرع ، ولا يتصور إزالة ما فى الطبع بالرياضة ، وانما خلقت الشهوات لفائدة ، فلولا شهوة الطعام لهلك الانسان ، ولولا شهوة النكاح لانقطع النسل ، وكذلك حب المال مركوز فى الطباع لأنه يوصل الى الشهوات . وانما المراد كف النفس عما يؤذى من جميع ذلك وردها الى الاعتدال فيه (١)

وبفضل اعتماد الصوفية على الخواطر وإهمال الشرع شاعت القالة بأنهم مجانين ، ويروى عن الشافعى أنه قال : لو أن رجلا تصوف أول النهار لا يأتى الظهر حتى يصير أحمق ، (٢) وأنه قال : ما لزم أحد الصوفية أربعين يوماً فعاد عقله إليه أبداً (٢) ، وكان يونس بن عبد الأعلى يقول : صحبت الصوفية ثلاثين سنة ما رأيت فيهم عاقلا إلا مسلماً الخوّاص (٢) .

وعاب ابن القيم عليهم أن يقولوا (شريعة وحقيقة) وقال فى تفنيد ذلك :

« هذا قبيح ، لأن الشريعة ما وضعه الحق لمصالح الخلق ، فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع فى النفوس من إلقاء الشياطين ، وكل من رام الحقيقة

---

(١) تلبيس ابليس ص ٣٦٦ (٢) التلبيس ص ٣٧٠

فى غير الشريعة فمغرور مخدوع ، وإن سمعوا أحداً يروى حديثاً قالوا : مساكين ، أخذوا علمهم ميتاً عن ميّت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت فمن قال حدثنى أبى عن جدى قلت حدثنى قلبى عن ربى ، فهلكوا وأهلكوا بهذه الخرافات قلوب الأغمار ، وأُنفِقتْ عليهم لأجلها الأموال ، لأن الفقهاء كالأطباء والنفقة فى ثمن الدواء صعبة ، والنفقة على هولاء كالنفقة على المغنّيات ، وبغْضهم الفقهاء أكبر الزندقة لأن الفقهاء يحظرونهم بفتاويهم عن ضلالهم وفسقهم والحق يثقل كما تثقل الزكاة »(١) إلى آخر ماوعت جعبة ابن القيم من النّبال .

١٠ — وابن القيم لم يَفترَ شيئا على الصوفية حين اتهمهم بازدراء أهل الفقه والحديث ، فهم بالفعل يرون أنفسهم ورثة الأنبياء ، ويسميهم إخوان الصفا « أولياء الله وعباده الصالحين » ويذكرون من صفاتهم أنهم لا يذكرون فى مجالسهم وخلواتهم أحــداً إلا الله ، ولا يتفكرون إلا فى مصنوعاته ، ولا ينظرون إلا إلى فنون إحسانه وعظيم إنعامه وجميل آلائه ، ولا يعملون إلا لله ، ولا يخدمون إلا إياه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ولا يرجون إلا منه ... وذلك أنهم يرونه رؤية الحق فى جميع متصرفاتهم ، ويشاهدونه فى كل حالاتهم ، لا يسمعون إلا منه ، ولا ينظرون إلا إليه ، ولا يرون غيره على الحقيقة . فمن أجل ذلك انقطعوا اليه عن الخلق ، واشتغلوا بالخالق عن المخلوق وبالرب عن المربوب(٢) .

ويذكر إخوان الصفا أن نعت هؤلاء القوم ورد فى آيات كثيرة من القرآن ، وأن النبي أثنى عليهم فقال : « لا يزال فى هذه الأمة أربعون رجلاً

---

(١) ص ٣٧٣ (٢) اخوان الصفا ج ١ ص ٢٩٦

من الصالحين على ملة ابراهيم الخليل [١] وأن هؤلاء الصالحين هم الذين سماهم الله فى كتابه « أولى الألباب » و « أولى النهى » و « أولى الأبصار » فهم أولياء الله وأحباؤه ، وإليهم أشار بقوله لابليس « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » وإليهم أشار الرسول فى وصيته لأبى هريرة بقوله : « عليك يا أبا هريرة بطريق أقوامٍ إذا فزع الناس لم يفزعوا ، وإذا طلبَ الناس الأمان من النار لم يخافوا » قال : مَن هم يا رسول الله صفهم لى حتى أعرفهم قال : قوم من أمتى فى آخر الزمان يحشرون يوم القيامة محشر الأنبياء ، إذا نظر إليهم الخلائق ظنوهم أنبياء حتى أعرفهم أنا بسيماهم فأقول : أمتى أمتى ، ليعرف الخلائق أنهم ليسوا بأنبياء ، ويمرون مثل البرق والريح ، يغشى أبصارَ الجميع نورهم . قال أبو هريرة : قلت يا رسول الله مُرنى بمثل عملهم لعلى ألحق بهم . فقال الرسول : يا أبا هريرة ، إن القوم ارتكبوا طريقاً صبعا لحقوا بدرجة الأنبياء ، آثروا الجوع بعد ما أشبعهم الله ، والعرى بعد ما كساهم الله تركوا ذلك رجاء ما عند الله ، تركوا الحلال مخافةَ حسابه ، صحبوا الدنيا بأبدانهم من غير أن تعلق بشىء منها قلوبهم ، تَعْجَب الأنبياء والملائكة من طاعتهم لربهم ، فطوبى لهم ، وددت أن الله جمع بينى وبينهم... ثم بكى رسول الله شوقا إلى رؤيتهم [٢] » .

١١ — وهذا الكلام صريح فى أن الصوفية يرون أنفسهم ورثة الأنبياء بل هو صريح فى أنهم نظائر الأنبياء ، وليس فى هذا غرابة ، فالصوفية من أوائل المتمردين على التقاليد الشرعية ، وهذا التمرد فيه ضعف وفيه قوة ،

---

(١) ج ١ ص ٢٩٧ (٢) رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٢٩٩

هو ضعف من حيث أنه يفتح باب الفوضى فى عالم الأخلاق ، ويمكن من لا يعرف من الخوض فى الشؤون المعاشية والوجدانية بأحكام ما أنزل الله بها من سلطان ، وهو قوةٌ من حيث يدعو إلى قوة الشخصية والاحتكام إلى الوجدان .

والصوفية يذكرون أن النبي قال « إستفت قلبك ، وإن أفتاك المفتون [١] » وأنه قال « استفت قلبك ، وإن أفتوك وأفتوك [١] » كأنهم يحتاجون إلى سند من كلام الرسول !

وعند التأمل نرى الوقوف عند ظاهر الشريعة لا يليق إلا بالعوام من الناس ، أما الخواص فلهم مجالات يدركها العارفون ، وما كان يمكن أن يستوى الذى يعلمون والذين لا يعلمون فى فهم دقائق الأشياء ، ففى العالم أسرار يطلع على بعضها الخواص ، والشرع نفسه فيه دقائق كثيرة لا يفهمها العوام من الفقهاء ... على أن رجال الظاهر أسرفوا فى التزمت وبلغ بهم الحمق أن أقفلوا باب الاجتهاد ، كأن الدنيا انتهت إلى ما انتهى إليه أئمتهم ، وكأن العالم ظهرت بواطنه وخوافيه فلم يبق فيه من المستورات ما يحتاج إلى شرح أو تأويل .

ولكن هل يكفى هذا ليصبح الأمر كله إلى الصوفية ، ويصح للغزالى أن يحكم بأن الاشتغال بعلم الظاهر بَطَالة ؟

إن ضيق الذهن لحق بالفريقين فلم يتيّسر لهما اتفاق ، ولو تأمل أهل الظاهر لعرفوا أن النفس الانسانية أعمق من أن تُسبر أغوارها فى جيل

(١) القوت ج ٢ ص ٢٧

أو جبلين ، وأن وساوس الصوفية ليست إلا شواهد لعلم النفس ، وأن الانسان لا يهذى ولا يسخف إلا وَفقاً لقوانين مستورة يوجب العقل أن نبحث عما لها من عناصر وأصول ، وما قد يبدو سخفاً وهذياناً له أحياناً وجوه من الحق يعلمها الراسخون فى علم النفس وعلم منافع الأعضاء .

فمن الفضول أن يتحكم الفقهاء فى مصاير النفس الانسانية ، وأن يقضوا بأن كل خروج على آفاقهم زَيغٌ وضلال ، وأن نصوص القرآن والحديث لا يجوز أن توجه إلى غير ما يقتضيه ظاهر الحروف .

ولو عقل الصوفية لعرفوا أن من الخرق أن تكون آراؤهم دستوراً يجب احترامه فى جميع البيئات ، وكيف يُفرَض على الناس جميعاً أن يقضوا أعمارهم فى التفكر والتدبر ؟ إن الفكر شىء جميل ، ولكن فرضه على جميع الناس سخف لا يَعدِله سخف ، وكيف غاب عنهم أن الغفوات العقلية التى يتمتع بها الجماهير هى أساس النظام فى هذا الوجود ؟ وكيف كانت تصبح الدنيا لو أن العوام تفلسفوا ، وادعوا الاتصال بالله ، كلما عرض لهم خاطر جديد ؟

١٣ — وخلاصة القول أن العداوة بين أهل الظاهر وأهل الباطن لا تقوم على أساس صحيح ، فأهل الظاهر وجودهم ضرورىّ لأنهم يحمون الناس من الاستسلام إلى الأوهام والأضاليل ، وأهل الباطن وجودهم ضرورىّ لأنهم يعطّرون الشريعة بِعَبير الروح ويسكبون عليها أنداء الخيال .

وأهل الظاهر هم الذين حفظوا العلوم الشرعية ، وصيروا الاسلام من الشرائع المؤسسة على قواعد من الثقافة الفقهية .

وأهل الباطن هم الذين خلقوا العصبية الدينية ، وصوروا الرسول وأصحابه بصور روحية رائعة هى التى حفظت القوة المعنوية للدين الحنيف .

ولا يمكن إغفال ما أفاد الاسلام من الثقافة الصوفية ، فالتصوف هو الذى ملأ الجوانب الخالية من قلوب المسلمين ، وهو الذى أنساهم الخشونة المادية التى أذاعتها الثقافة الفقهية ، وقد نشرت جريدة السياسة فى ٣ يونية سنة ١٩٣٢ نبذة من كتاب فلسفة الدين الذى ألفه بالانجليزية المستر ادوار روس (ص ١٢٤) جاء فيها قوله :

« إن كلمة الاسلام معناها الإذعان لارادة الله ، وأخلِق بذلك أن يفضى الى اعتبار الله قضاء متحكما غير مفهوم ، من العبث التمرد عليه ، وليس من صفاته لا القداسة ولا الحب ، ومع ذلك فقد ظهر مسلمون لا يرتاحون إلى هذا الدين الجاف ، وإن فى ظهور الفِرَق الصوفية التى انتشرت فى الاسلام لشهادة بوجود الشوق الى اتصال يكون أوثق بإلٓه حىّ يفيض بالحب » .

وهذه الكلمة صحيحة ، لولا ما فيها من وصف الاسلام بالجفاف ، وليس من الضرورى أن نتصور الله رفيقاً عطوفاً فى جميع الأحيان ، فمن الجهل أن ننسى غضب الله على الأشقياء والظالمين ، ولكن من الجهل أيضاً أن لا نتمثل الله إلا وفى يده سَوْطٌ ، فالله لطيفٌ جداً ، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم .

والفقهاء سدّوا منافذ الرفق حين صوروا الله بالقسوة والعنف . والصوفية سدّوا منافذ الحزم حين وصفوا الله بالرفق المطلق . وحب الله لا يتوقف

على ما ينتظرون من الرفق ، فقد نحب الله ونحن نخافه أشد الخوف ، ومن لا يعرف الرهبة فليس بمحب ولا محبوب .

١٤ — وهنا تعرض مسألة جوهرية فى نظام الأخلاق هى الفرق بين الزهد والتصوف ، فالزهد هو ترك الدنيا خوفاً من الحساب ، والتصوف ، هو الاقبال على صفاء النفس لتتصل بالله ، فغاية الزاهدين هى السلامة ، وغاية الصوفية هى الوصول ، فالزاهد يخاف الدنيا لأنها قد تبعده من الجنة ، والصوفى يخاف الدنيا لأنها قد تشغله عن الله ، وهذا الفرق فرضٌ صِرف ، فليست هناك حدود واضحة تَفْصِل الزهد عن التصوف ، وانما أخذنا هذا الفرض من التاريخ ، فالعباد كانوا يسمون زهادا ونساكا فى العهد الأول قبل أن يوجد التعمق فى دراسة الأسرار النفسية ، ثم سموا صوفية فى العهد الذى كثر فيه الاهتمام بدرس أسرار القلوب .

١٥ — الى هنا عرفنا صوَراً من تطور التصوف . أفيستطيع القارىء أن يتصور أن الصلة لا تزال وثيقة بين ما ابتدأ به التصوف وما انتهى اليه؟

لقد قلنا إن التصوف قديم فى البيئات العربية ، واتخذنا من القرآن شواهد للتصوف ، أفيمكن الحكم بأن الصوفية وقفوا عند روحانية القرآن ؟

إنه لا مفر من الاعتراف بأن شخصية المسيح كان لها أثر فى تلوين النزعات الصوفية ، فما تكاد كتب التصوف تخلو من الاستشهاد بكلام المسيح. وقد رأينا فيما سلف أن شخصية الراهب كانت محترمة ، وأن الصوفية كانوا ينقلون كلام الرهبان . وكان الناسك من المسلمين يذكر النصارى بالمسيح(١)

---

(١) انظر الكامل ج ١ ص ٨٨ طبعة زكى مبارك

فلنضف الى ما سلف أن الصوفية كان يسرهم أن يسجلوا أنهم أعرف بربهم من الرهبان ، وأن التصوف الحق يرجع الى الحب المطلق الذى لا ينتظر الجزاء ، ولا يخاف العقاب ، أو الثقة المطلقة التى لا يعروها شك ولا يساورها ارتياب .

وقد حدثوا أن أحد العارفين اجتاز يوماً فى بعض سياحته براهب فى صومعة على رأس تل فوقف بازائه فناداه فأخرج الراهب رأسه من صومعته وجرت بينهما المحاورة الآتية :

— الراهب : من هذا ؟

— الصوفى : رجل من أبناء جنسك الآدميين

— الراهب : وما الذى تريد ؟

— الصوفى : كيف الطريق الى الله ؟

— الراهب : فى خلاف الهوى

— الصوفى : فما خير الزاد ؟

— الراهب : خير الزاد التقوى

— الصوفى : لم تباعدتَ عن الناس وتحصنتَ فى هذه الصومعة ؟

— الراهب : مخافةً على قلبى من فتنتهم ، وحذَراً على عقلى من الحيرة من سوء عشرتهم، فطلبت راحة نفسى من مقاساة مداراتهم ، وقبيح أفعالهم ، وجعلت معاملتى مع ربى فاسترحت منهم

— الصوفى : أخبرنى كيف وجدتهم ؟

— الراهب : اسوأ قوم وشر أصحاب ففارقتهم

— الصوفى : كيف وجدتم يا أتباع المسيح معاملتكم مع ربكم ؟

— الراهب : — بعد تردد — اسوأ معاملة

— الصوفى : وكيف ذلك ؟

— الراهب : لأنه أمرنا بكد الأبدان ، وجَهْد النفوس ، وصيام النهار وقيام الليل ، وترك الشهوات المركوزة فى الجِبِلة ، ومخالفة الهوى الغالب ، ومجاهدة العدو المتسلط ، والرضا بخشونة العيش ، والصبر على الشدائد والبلوى ومع هذه كلها جعل الأجر نسيئة فى الآخرة بَعد الموت مع بعد الطريق والحيرة . فهذه حالنا فى معاملتنا مع ربنا . فخبرنى عنكم ، يامعشر أتباع احمد ، كيف وجدتم معاملتكم مع ربكم ؟

— الصوفى : خير معاملة

— الراهب : صفها لى

— الصوفى : إنه أعطانا سُلفا كثيرة قبل العمل ومواهب جزيلة لاتحصى فنون انواعها من النعم والإحسان والإفضال قبل المعاملة : فنحن ليلنا ونهارنا نتقلب فى أنواع من نعمه ، وفنون من آلائه ، ما بين سالف معتاد ، وآنف مستفاد ، وخالف منقاد .

— الراهب : كيف خُصصتم بهذه المعاملة دون غيركم والربّ واحد ؟

— الصوفى : أما النعمة والإحسان والإفضال فعموم للجميع ، قد عمتنا (١) كلنا ، ولكن نحن خُصصنا بحسن الاعتقاد وصحة الرأى والإقرار بالحق والايمان والتسليم ، فوفّقنا لمعرفة الحقائق لِما أعطينا بالانقياد والايمان

(١) فى الفتوحات المكية « غمرتنا »

والتسليم وصدق المعاملة من محاسبة النفس وملازمة الطريق ، وتفقد تصاريف الأحوال الطارئة من الغيب ومراعاة القلب بما يرد عليه من الخواطر والوحى والإلهام ساعة بساعة .

— الراهب : زدنى فى البيان

— الصوفى : نعم ، اسمع ما أقوله وافهمه واعقل ما تفهم ، إن الله جل ثناؤه خلق الانسان خلقاً سوياً ، بِنْيَةً صحيحةً تامةً وقامةً منتصِبةً وحواسَّ سالمة . ثم رباه وأنشأه وأنماه بفنون من لطفه وغرائب من حكمته إلى أن بلغ أشده واستوى ، ثم آتاه حُكماً وعِلماً ، وقلباً ذكياً ، وسمعاً دقيقا ، وبصراً حاداً ، ولساناً ناطقاً ، وعقلاً صحيحاً ، وفهماً جيداً ، ومشيئة واختياراً ، وجوارح طائعة ، ثم علمه الفصاحة والبيان ، والصناعة والزراعة والتجارة ، والتصرف فى المعاش وطلب العز والسلطان والأمر والرياسة والتدبير والسياسة وسخر له ما فى الأرض جميعاً من الحيوان والنبات والمعادن فغدا متحكماً عليها تحكم الأرباب ، ثم أراد الله أن يزيده من إحسانه وفضله وجوده وإنعامه شيئاً آخر أجل وأشرف ، وهو ما أكرم به الله ملائكته وخالص عباده وأهل جنته من النعيم الذى لا يشوبه نقص ولا تنغيص ، وهو نعيم الفردوس ، فبعث بلطفه أنبياءه ورسله يرغبونهم فى الجنة ويدلونهم على طريقها كيما يطلبوها ويكونوا لها مستعدين قبل الورود إليها ، ولكى يسهّل عليهم مفارقة ما ألفوا فى الدنيا من شهواتها ولذاتها ، وتخف عليهم شدائد الدنيا ومصايبها ، ويحذرونهم أيضاً التوانى فى طلب الجنة كيلا يفوتهم ما وُعِدوا به ، فانه من فاتته فقد خسر الدنيا والآخرة وضل ضلالاً بعيداً ... فهذا رأينا واعتقادنا يا راهب فى معاملتنا

مع ربنا ، وبهذا الاعتقاد طاب عيشنا فى الدنيا ، وسهل علينا كدّ العبادة فلا نحس بها ، بل نرى أن ذلك نعمة وكرامة وعز وشرف ، إذ جعلنا أهلا أن نذكره ، وإذ هدى قلوبنا ، وشرح صدورنا ، ونور أبصارنا ، لما عرفنا من كثرة إنعامه ، وفنون ألطافه وإحسانه

— الراهب : جزاك الله خيراً من واعظ ما أبلغه ، وطبيب رفيق ما أحذقه ، وأخ ناصح ما أشفقه (١)

ومن الواضح أن هذه محاورة خيالية ، وليس من الضرورى أن يرتاب الراهب فى مصيره كل هذا الارتياب ، ولكن الشاهد يظهر بهذه المقارنة . فمؤلف هذه المحاورة يعتقد أن المسيحية تصوّرها شخصية الراهب ، وأن الإسلام الحق تصوره شخصية المتصوف .

١٦ — ولم يكن المسيح بالصورة الوحيدة التى فتنت الصوفية ، فهناك عُبّاد بنى اسرائيل . وأولئك العباد لهم كلمات وأحوال حفظها الصوفية . وكذلك يمكن الحكم بأن التصوف هو مجموعة من الأفكار الإسلامية والنصرانية واليهودية ، أو هو الخلاصة الروحية من تلك الديانات الثلاث . وأغلب الظن أن الصوفية لم ينطبعوا على تلك الآراء طائعين ، وانما سرت إليهم فأثّرتْ فيهم على غير وَعْى ، فلما استفحل أمرهم أخذوا يجهرون بأنهم ورثة ، الأنبياء ، وهذا القول فيه رجعةٌ إلى كلمة قديمة عُرِفت عن بعض فلاسفة اليونان الذين قالوا بأنهم ورثة الآلهة . والاستاذ الدكتور منصور

(١) لخصنا هذه المحاورة من رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٧ وقد وردت بصورة قريبة من هذه الصورة فى الفتوحات المكية ج ٤ ص ٦٦٣

فهى يرجح انسياق ذلك الخيال اليونانى إلى الصوفية ، وهو ترجيح تؤيده المشابهة بين القولين واتفاقهما فى المدلول .

والجيلانى يسمى العارفين رجال الغيب ، وهم عنده ستة أقسام :

« القسم الأول هم الصنف الأفضل ، والقوم الكمل ، هم أفراد الأولياء ، المقتفون آثار الأنبياء ، غابوا عن عالم الأكوان ، فى الغيب المسمى بمستوى الرحمن ، فلا يُعْرَفون ولا يوصفون ، وهم آدميون . القسم الثانى هم أهل المعانى ، وأرواح الأوانى ، يتصور الولى بصورهم ، فيكمل الناس فى الباطن والظاهر بخيرهم ، فهم أرواح ، وكأنهم أشباح ، سافروا من عالم الشهود ، فوصلوا إلى فضاء غيب الوجود ، فصار غيبهم شهادة ، وأنفاسهم عبادة ، وهؤلاء أوتاد الأرض ، القائمون لله بالسنة والفرض . القسم الثالث : ملائكة الالهام والبواعث . يطرقون الأولياء ، ويكلمون الأصفياء ، لا يبرزون الى عالم الاحساس ، ولا يتعرفون لعوام الناس . القسم الرابع رجال المناجاة .. يتصورون للناس ، فى عالم الاحساس ، وقد يدخل أهل الصفاء ، الى ذلك اللواء ، فيخبرونهم بالمغيبات ، وينبئونهم بالمكتمات . القسم الخامس : رجال البسابس ، هم أهل الخطوة فى العالم ، وهم من أجناس بنى آدم ، يظهرون للناس ثم يغيبون ، ويكلمونهم فيجيبون ، أكثر سكنى هؤلاء فى الجبال والقفار ، والأودية وأطراف الأنهار (١) . . . القسم السادس : يشبهون الخواطر لا الوساوس . هم المولدون من أبى الفكر وأم التصور ، لا يؤبه الى أقوالهم ، ولا يُتَشَوق الى أمثالهم ، فهم بين الخطأ والصواب ، وهم أهل الكشف والحجاب » (٢) .

---

(١) فى الأصل (النهار) وهو تحريف

(٢) الانسان الكامل ص ٣٧ ج ٢

وهذا الكلام يدل على أن من الصوفية من نسى التعاليم الدينية وتسامى إلى الاتصال بعالم الأرواح ، وهم لا يذكرون الأنبياء الا اتقاءاً لشر الناس ولو أعطيت لهم الحرية لصرحوا بأن ليس بينهم وبين الله وسيط . والاسلام لا يوجب وساطة بين العبد والرب ، ولكنه يحتم أن نعرف الله ونعبده فى حدود ما أوصى به الأنبياء . على أن من الصوفية من فضل الولاية على النبوة وكانت حجته أن الأنبياء يوحى اليهم بواسطة ، وأن الأولياء يتلقون من الله بلا واسطة ، وهو كلام رفضه الأكثرون .

١٧ — وقد توغل الصوفية فى الفروض فزعموا أن الرسول قال : لا يزال فى هذه الأمة أربعون رجلا من الصالحين على ملة ابراهيم الخليل (١) وزعموا أن من بين هؤلاء الأربعين أربعة هم الأبدال ، وانما سُمُّوا الأبدال لأنهم بُدِّلوا خلقاً بعد خلق وصُفُّوا تصفية بعد تصفية ، وذلك أن هؤلاء الاربعين منتقَون — فى زعمهم — من جملة أربعمائة من الزاهدين العارفين المحققين ؛ وهؤلاء الاربعمائة منتقون من أربعة آلاف من المؤمنين التائبين المخلصين ، وكلما مضى شخص من الأربعة قام فى رتبته شخص من الاربعين وإذا مضى شخص من الاربعين قام فى رتبته شخص من الاربعمائة ، واذا مضى شخص من الاربعمائة ارتقى إلى منزلته شخص من الاربعة آلاف فبلغ مرتبته وقام مقامه ، وكلما مضى شخص من الأربعة آلاف ارتقى مكانه بدلاً منه واحد من المؤمنين التائبين المخلصين فبلغ درجته وقام مقامه (١)

---

(١) رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٢٩٧

ومعنى هذا أن الجمعية الصوفية تؤلف وحدة قومية ، هى الصفوة المختارة من المؤمنين . والقارىء يذكر أننا أشرنا فى مقدمة الجزء الاول من هذا الكتاب الى طائفة من اصطلاحات الصوفية جاء فيها أن القطب وهو الغوث عبارة عن الواحد الذى هو موضع نظر الله من العالم فى كل زمان ، وأن الأوتاد عبارة عن أربعة رجال منازلهم على منازل أربعة من أركان العالم ، وأن البدلاء هم سبعة ، ومن سافر من القوم عن موضعه ترك جسداً على صورته حتى لا يعرف أحد أنه فُقِـد ، وأن النقباء هم الذين استخرجوا خبايا النفوس وهم ثلثمائة ، وأن النجباء أربعون ، وهم المشغولون بحمـــل أثقال الخلق ، وأن الامامين شخصان أحدهما عن يمين الغوث ونظره فى الملكوت والآخر عن يساره ونظره فى الملك ، وهو أعلا من صاحبه وهو الذى يخلف الغوث .

١٨ — فمن أين جاء الصوفية بهذا النظام الغريب ؟

يرى ابن خلدون أنهم نقلوه عن الشيعة « حتى أنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم ونحلتهم رفعوه الى علىّ رضى الله عنه » (١)

والواقع أن الصلة وثيقة بين التشيع والتصوف ، فعلىّ هو معبود الشيعة وهو إمام الصوفية ، أليس هو الذى أشار إلى العارفين حين قال لكُمَيْل بن زياد : أولئك الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح حقيقة اليقين (٢) أليس هو الذى أثنى على الحسن البصرى إمام الصوفية (٣) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٣

(٢) رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٢٩٨

(٣) قوت القلوب ج ٢ ص ٨٨

وقد حدّثوا أن الجنيد أخذ الطريقة عن خاله سريّ السقطى ، وكان أخذها عن معروف الكرخي ، ومعروف الكرخي أخذها عن على بن موسى الرضا[١] :

ونحن نعرف مَنْ على بن موسى الرضا ، فهو من أقطاب أهل البيت .

والشيعة أنفسهم يعطفون على الصوفية أبلغ العطف ، وقد أثنى الشريف المرتضى فى أماليه على الحسن البصرى أطيب الثناء [٢]

والصوفية ينقلون فرحين ما روى عن علىّ أنه قال : علّمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين باباً من العلم لم يعلّم ذلك أحداً غيرى [٣]

وقد أثنى علىّ على عمر بن الخَطاب ، ونقل الطوسى ذلك الثناء وقال : ولأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمر رضى الله عنه ، ثم ذكر أنه اختار لبس المرقعة والخشونة وترك الشهوات واجتناب الشبهات وإظهار الكرامات وقلة المبالاة بمن لامه من الخلق عند انتصاب الحق[٤]

ألا ترون كيف فسر الطوسى ثناء علىّ على عمر فألبس ابن الخطاب شمائل صوفية ؟

« وقام رجل إلى علىّ بن أبى طالب فسأله عن الايمان فقال : الايمان على أربع دعائم ، على الصبر واليقين والعدل والجهاد ، ثم وصف الصبر على عشر مقامات ، وكذلك اليقين والعدل والجهاد ، فوصف كل واحد منها على عشر مقامات[٥] » .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦٩ (٢) أمالى المرتضى ج ١ ص ١٠٦
(٣) اللمع ص ٤٩ (٤) اللمع ص ١٢٦ (٥) اللمع ص ١٣٠

قال الطوسى : فان صح ذلك عنـــه فهو أول من تكلم فى الأحوال والمقامات .

١٨ — وطبيعة الأشياء توجب أن يقترب التشيع والتصوف ، فالشيعة انهزموا فى ميدان السياسة ، والصوفية انهزموا فى ميدان الحياة ، والاشتراك فى الهزيمة يقرّب بين النفوس ، وقد مضت فى هذا الكتاب فقرات كثيرة تبين أن المرء يتصوف حين ينهزم ، لأنه حين يفقد سنده فى عالم المادة يذهب فيلتمس الغوث فى عالم الروح .

ومما يقرب بين المذهبين أن الشيعة والصوفية يؤمنون بالأسرار ، ويبحثون عن النجاة فى العوالم الغيبية ، ولذلك تشابهت أوهامهم وظنونهم وأمانيهم ، وتقاربت مذاهبهم المعاشية والاجتماعية ، وصرت ترى لديهم شمائل مشتركة فى تناول الأشياء ، وفهم الحياة والناس ، حتى أدبهم يتشابه ، فتقع أمامك القطعة من الشعر فتنسبها إلى مَنْ شئت فتمضى طائعة إلى من تضيفها إليه من الشيعة أو الصوفية . . . وأصدق دليل على اقتراب المذهبين أن أهل فارس هم أكثر الناس تصوفا بين الأمم الاسلامية ، وانما كانوا كذلك لأن التشيع ألقى رحاله هناك

ولو مضينا ندرس التصوف فى مصر لرأينا عند الصوفية من المصريين ألفاظاً كثيرة كانت مما يستعمله الفاطميون . فليس من الغريب أن يحكم ابن خلدون بأن الصوفية نقلوا نظامهم عن التشيع .

١٩ — لم يبق بعد هذه التفاصيل إلا أن نقول إن الصوفية يمتازون من بين رجال الأخلاق بصفة أساسية هى التفلسف ، فأولئك قوم مسلمون يأبون

أن يقفوا عند حرفية النصوص فيمضون فى الدرس والتأويل ، ثم يقبلون على النفس فيجعلونها محور الأخلاق .

فالمسلم يعمل فى حدود الأوامر الشرعية ، وينزجر فى حدود الزواجر الشرعية ، أما الصوفى فيتسامى الى إدراك المغيبات ، ويحرص على فهم الدقائق الخفية فى حركات الخواطر والقلوب .

وخلاصة القول أن الصوفى يحترم الشخصية كل الاحترام فيستفتى قلبه وإن أفتاه المفتون ، وقد كان لذلك عيوب منها الاسراف فى التصورات العقليـة التى انتهت الى القول بوحدة الوجود ، أو بالحلول ، أو بتفضيل الأولياء على الأنبياء . وتلك عيوب فى نظر من يقيسون الأخلاق بالمقاييس الشرعية ، أما الذين يقيسونها بالمقاييس الفلسفية فيرون عندالصوفية أصولا من إجلال الفكر وإعزاز العقل . وليس ذلك بالفضل القليل .

أقول هذا وأنا أعرف أن ليس لى من عمل فى هذا الكتاب إلا تأريخ هذا المذهب الفلسفى ، فليس من همى أن أحارب التصوف أو أن أدافع عنه فلا يظنّ قوم أنى أتحزب للتصوف ، وإن كان من حقى أن أعطف عليه فى حدود الاعتدال .

٢٠ — أما خطتنا فى هذه الدراسات فهى عرض المسائل الأساسية التى تتكون بهـا الشخصية الخلقية ، ولن نهتم بالجزئيات ، لأن أمرها يطول ، ويكفى أن يعرف القارىء بهذه الدراسات خطر التصوف فى الأخلاق .

ولنقيد هنا أننا وقفنا عند المعانى ، فلم نهتم بالأشخاص ولا التاريخ ، وفى هذا التمهيـد ما يكفى لبيان الأطوار التى مرت بها فكرة التصوف فى العهود الاسلامية .

ومن الواضح أن لنا الحق فى اختيار المنهج الذى نرتضيه لنظام الكتاب ولا يطلب منا إلا مسايرة ما ارتضيناه فى أسلوب التأليف . وقد لا يكون هذا الأسلوب خير الأساليب ، ولكنه يصل بنا على خير وجه الى تحقيق ما نريد .

هذا القسم خاص بالأخلاق ، ولكن القارىء سيرانا نبتدئه بالكلام عن الأدعية والأوراد ، وفيها ملامح أدبية خليقة بأن تجعلها من القسم الأول ، ولكنا رأينا بعد التأمل أن فصل الأدعية تغلب عليه النزعة الخلقية ، لأن فيه حديثاً عن إعداد النفس للدعاء ، ولأن الأدعيـة فى ذاتها من وسائل الاتصال بالله ، والاتصال بالله هو الغاية الخلقية عند أهل التصوف .

ومن المؤكد أن الأوراد تمثل النظام الخُلُـقى فى حياة المريد ، فوضعها فى قسم الأخلاق ليس من الفضول .

ونعترف ، مخلصين ، أن هذا البحث يحتاج إلى جهد أكبر مما نملك ، ولكن يعزّينا أن القارىء سيذكر أنّ جهد المقلّ غير قليل .

الأدعية والأوراد

الدعاء فى القرآن — أدعية الأنبياء — طبيعة الانسان — أدعية الرسول — اهتمام المسلمين بترجمة أدعية الأنبياء — أدعية المؤمن فى مختلف الأحوال — أثر الأدعية فى الأدب والاخلاق .

---

١ — الأدعية جمع دعاء ، وهو النداء ، ويَرِد أحياناً فى القرآن بمعنى العبادة ، كقوله عز شأنه فى سورة الأعراف « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » وقوله فى سورة الرعد « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » وقوله فى سورة الكهف « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطاً » وقوله فى سورة الحج « ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير » وقوله فى سورة فاطر « ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قِطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير » وفى سورة الفرقان « والذين لا يدعون مع الله إلـٰها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق » .

وعند تامل هذه الشواهد نجد الدعاء حين يرد بمعنى العبادة يتضمن أيضاً معنى النداء .

٢ — والدعاء مما يوصى به الأدب فى الشريعة الإسلامية ، وفى القرآن الكريم « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » وفى سورة البقرة : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان »

٣ — والدعاء قديم جداً فى التقاليد الدينية ، وقد قص علينا القرآن نماذج من أدعية الأنبياء ، منها ما ورد فى سورة البقرة على لسان ابراهيم « رب اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً وارزق أهله من الثمرات ... ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

وروى القرآن دعوات ابراهيم بصورة أخرى فى سورة ابراهيم فقال : « وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ، فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ، ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ، الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق إن ربى لسميع الدعاء ، رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن

ذريتى ربنا وتقبل دعاء ، ربنـا اغفر لى ولوالدىّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » .

ومن دعاء موسى ما ورد فى سورة طه « رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، انك كنت بنا بصيراً » وفى سورة القصص « رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى »

ومن دعاء أيوب ما ورد فى سورة الأنبياء « إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » .

ومن دعاء نوح ما ورد فى سورة القمر « إنى مغلوب فانتصر » وما ورد فى سورة نوح « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ، رب اغفر لى ولوالدىّ ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا » .

ومن دعاء زكريا ما ورد فى سورة آل عمران « رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء »

وفى سورة آل عمران جعل الله قول الصديقين هذا الدعاء : « ربنـا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبّت أقدامنـا وانصرنا على القوم الكافرين » .

٤ — والله يوصى أنبياءه بالدعاء ، من ذلك ما جاء فى سورة الاسراء وصية لنبيه محمد « وقل رب أدخلنى مُـدخَل صدق وأخرجنى مُـخرَج صدق

واجعل لى من لدنك سلطانا نصيراً »، وما جاء فى سورة (المؤمنون) وصية لنبيه نوح « وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » وفى سورة الكهف يوصى رسوله بتعليم أمته اسلوب الدعاء « قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن أيّا مّا تدعو فله الأسماء الحسنى ، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا »

وفى هذه الشواهد دلائل على أن الدعاء قديم جداً فى التقاليد الدينية . وأدعية الأنبياء ذكرت فى القرآن تذكيراً للمؤمنين بما فيها من معنى العبودية والايمان بأن الأمر كله بيد الله ، وأن من التقى أن يدعو الانسان ربه ، وأن يسأله النصر والغفران .

٥ — والقرآن يحدثنا بأن الانسان قد لا يعرف ربه الا عند البأساء ، ففى سورة الزمر « واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيباً اليه ، ثم إذا خوّله نعمة منه نسى ماكان يدعو اليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله » وفى سورة السجدة « واذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر فذو دعاء عريض »

٦ — وقد عنى الرسول عليه السلام بترغيب أمتـــه فى الدعاء . فقال : « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » وقال : « إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم — عباد الله — بالدعاء » وقال : « إن الله عز وجل حيي كريم يستحي اذا بسط الرجل اليه يديه أن يردهما صفرا ليس فيهما شيء » وقال : « دعوة فى السر تعدل سبعين دعوة فى العلانية » وقال : « إن لله عز وجل فى الليل والنهار عتقاء من النار ، ولكل مسلم ومسلمة فى كل يوم وليلة دعوة

مستجابة » وقال: « إن الله تعالى يقول : من ذا الذى دعانى فلم أجبه، وسألنى فلم أعطه ، واستغفرنى فلم أغفر له ، وأنا أرحم الراحمين » وقال : « اذا فتح الله على عبد باب الدعاء فليكثر فان الله يستجيب له » وقال : « من لم يسأل الله يغضب عليه [1] »

٧ — وقد رويت عن رسول الله أدعية كثيرة ، منها ما كان يقوله بعد ركعتى الفجر قبل صلاة الصبح :

« اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها شملى ، وتلم بها شعثى ، وترد بها ألفتى ، وتصلح بها دينى ، وتحفظ بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى ، وتبيض بها وجهى ، وتلهمنى بها رشدى ، وتعصمنى بها من كل سوء . اللهم أعطنى إيماناً صادقاً ، ويقيناً ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ، ومنازل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، ومرافقة الأنبياء . اللهم إنى أنزل بك حاجتى ، وإن ضعف رأيى ، وقلت حيلتى ، وقصر عملى ، وافتقرت إلى رحمتك ، فأسألك يا قاضى الأمور ، ويا شافى الصدور ، كما تجيرنى بين البحور ، أن تجيرنى من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، ومن فتنة القبور ... الخ [2] »

وفى بعض عبارات هذا الدعاء ضعف ، ولا سيما هذه العبارة « أسألك كما تجيرنى بين البحور ، أن تجيرنى من عذاب السعير » وقد يكون هذا الدعاء مما أضيف إلى كلام الرسول

(١) راجع أسانيد هذه الأحاديث فى الجزء الخامس من نهاية الأرب ص ٢٨١ و ٢٨٢
(٢) الاحياء ج ١ ص ٣٢٢

وحدثنا الغزالى [١] عن دعاء قال إنه مأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن السلف فى يوم عرفة، وهو دعاء قصير هذا نصه :

« لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى لسانى نوراً . اللهم اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى » .

وروى أنه كان يقول فى سجوده : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك [٢] »

وفى البخارى أنه كان يدعو فى الصلاة « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات » [٣]

وفى كتاب الدعوات من صحيح البخارى أن النبي قال : سيد الاستغفار أن تقول :

« اللهم أنت ربى ، لا إلـٰه إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبي ، فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت [٤] »

ومن الاستعاذات المأثورة عن النبي عليه السلام :

---

(١) فى الاحياء ج ١ ص ٢٦٥
(٢) الاحياء ج ١ ص ٣٠٥
(٣) البخارى ج ١ ص ١٠٥
(٤) البخارى ج ٤ ص ٦٧

«اللهم إنى أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أردَّ إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، اللهم إنى أعوذ بك من طمع يهدى الى طبَع ، ومن طمع فى غير مطمع ، ومن طمع حيث لا مطمع . اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ودعاء لا يُسمع ، ونفس لا تشبع ، وأعوذ بك من الجوع ، فانه بئس الضجيع، ومن الخيانة ، فانها بئست البطانة ، ومن الكسل والبخل والجبن ومن الهرم ومن أن أردَّ الى أرذل العمر ، ومن فتنة الدجال وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات (١) »

والأدعية المأثورة عن رسول الله كثيرة جداً ، وهى تمثل رجاءه فى الله واعتماده عليه ، وفناءه فيه

٨ — ومن مظاهر اهتمام المسلمين بالدعاء أنهم نقلوا ما وصل اليهم من أدعية الأنبياء ، ومن غريب ذلك ما قالت عائشة (٢) « لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم — صلى الله عليه وسلم — طاف بالبيت سبعاً ، وهو يومئذ ليس بمبنىّ فجلس على ربوة حمراء ثم قام فصلى ركعتين ثم قال :

« اللهم انك تعلم سرى وعلانيتى ، فاقبل معذرتى ؛ وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى ، وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى . اللهم انى أسألك ايماناً يباشر قلبى ، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت علىّ والرضا بما قسمته لى ياذا الجلال والاكرام »

ومن الواضح أنه من العسير نقل مادعا به آدم ، ولكن المسلمين بفطرتهم

---

(١) الاحياء ج ١ ص ٣٢٩

(٢) راجع الاحياء ج ١ ص ٣٢٥

الصوفية اطمأنوا الى أنه لا بد لآدم من دعاء، وكذلك اطمأنوا الى أن الله أوحى اليه « إنى قد غفرت لك، ولم يأتنى أحد من ذريتك فيدعونى بمثل الذى دعوتنى به إلا غفرت له وكشفت غمومه وهمومه ونزعت الفقر من بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدها »

وإن صحت رواية هذا الكلام عن عائشة فهو دليل على إن العرب قبل الإسلام كانوا يحبون أن يكون (البيت) من مواضع الدعاء المقبول، وأنه كان كذلك منذ آدم وقبل أن يبنى .

وحدثوا أيضاً أن ابراهيم كان يقول اذا أصبح :

« اللهم هذا خَلقٌ جديد فافتحه علىّ بطاعتك ، واختمه لى بمغفرتك ورضوانك ، وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى ، وزكها وضعّفها لى ، وما عملت من سيئة فاغفرها لى ، انك غفور رحيم ، ودود كريم »

وناقل هذا الكلام وهو الغزالى (١) يذكر أن ابراهيم قال : « ومن دعا بهذا الدعاء اذا أصبح فقد أدى شكر يومه » ومعنى ذلك أن « الأوراد » قديمة جدا فى التقاليد الدينية

وحدثوا أن داود كان اذا دعا فى جوف الليل قال :

« اللهم نامت العيون ، وغارت النجوم ، وأنت حىّ قيوم ، اغفر لى ذنبى العظيم ، انك عظيم ، وانما يغفر العظيم العظيم ، اليك رفعت رأسى ، عامر السماء ، نظر العبيد الى أربابها ، اللهم تساقطت القرى ، وأنت دائب الدهر

(١) فى الاحياء ج ١ ص ٣٢٤

معدّ كرسيّ القضاء (١) »

وأن يوسف كان يدعو فيقول :

« يا عدّتى عند كربتى ، ويا صاحبى فى وحدتى ، ويا غياثى عند شدتى ، ومفزعى عند فاقتى ، ورجائى اذا انقطعت حيلتى ، يا إلهى وإله آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب اجعل لى فرجاً ومخرجاً واقض حاجتى (٢) »

وأن « بكّاء بنى اسرائيل » كان يقول :

« اللهم لا تؤدبنى بعقوبتك ، ولا تمكر بى فى حيلتك ، ولا تؤاخذنى بتقصيرى عن رضاك ، عظيمَ خطيئتى فاغفر ويسير عملى فتقبل ، كما شئت تكون مشيئتك ، وإذا عزمت يمضى عزمك ، فلا الذى أحسن استغنى عنك وعن عونك ، ولا الذى أساء استبد بشىء يخرج به من قدرتك ، فكيف لى بالنجاة ولا توجد إلا من قِبَلك » .

وفى هذا الدعاء محاولة عقلية سنجد أمثالها فى « أحزاب » الصوفية .

ونقلوا أدعية كثيرة منسوبة الى المسيح ، منها دعاؤه الذى كان يدعو به للمرضى والزّمنى والعميان والمجانين (٣) ودعاؤه حين أخذه اليهود ليصلبوه (٣) وهذان الدعاءان يجريان مجرى التحميد

ونقل الغزالى أنه كان يقول :

« اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما ارجو وأصبح الأمر بيد غيرى ، وأصبحت مرتهنا بعملى ، فلا فقير أفقرمنى . اللهم

---

(١) عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٨٣ (٢) عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٨٤

(٣) تجده فى عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٨١

لاتشمت بى عدوى ، ولا تسوء بى صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى ، ولا تسلط علىّ من لا يرحمنى ، يا حىّ ياقيوم ».

وأدعية عيسى وتحميداته كثيرة تزخر بها مؤلفات الصوفية .

وفيما نقله المتقدمون من أدعية الانبياء ما يؤيد ما نريد إثباته ، وهو شغف المسلمين بمأثور الدعوات ، ولا ننسى أن أدعية الأنبياء نقلت عن لغات غير عربية ، فوضعها ناقلوها فى أسلوب غنائى يتراوح بين السجع والازدواج .

٩ — وفى كتب الفقه والآداب الاسلاميـــة أدعية مختلفة باختلاف ما يباشر المؤمن من الأعمال ، وللمسلم الصالح فرص لاتنقطع للدعاء ، فيقول حين يجلس للوضوء « أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون » .

ويقول عند غسل يديه « اللهم إنى أسألك اليمن والبركة ، وأعوذ بك من الشؤم والهلكة » .

ويقول فى الاستنشاق « اللهم أوجد فىّ رائحة الجنة ، وأنت راض عنى» وعند الاستنثار « اللهم إنى أعوذ بك من روائح النار ، ومن سوء الدار» ويقول عند غسل كل عضو : « اللهم بيض وجهى بنورك يوم تبيضّ وجوه أوليائك ، ولا تسوّد وجهى بظلماتك يوم تسودّ وجوه أعدائك » ويقول عند غسل اليمين « اللهم أعطنى كتابى بيمينى ، وحاسبنى حساباً يسيراً » وعند غسل الشمال « اللهم إنى أعوذ بك أن تعطينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى » .

وعند مسح الرأس « اللهم غشّني برحمتك ، وأنزل عليّ من بركاتك ، وأظلني تحت ظل عرشك يوم لاظل الا ظلك » وعند مسح الأذنين « اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، اللهم أسمعني منادى الجنة مع الأبرار » وعند مسح الرقبة « اللهم فك رقبتي من النار ، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال » وعند غسل الرجل اليمنى « اللهم ثبت قدمي على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام في النار » وعند غسل الرجل اليسرى « أعوذ بك أن تزل قدمي على الصراط يوم تزل أقدام المنافقين في النار ».

ويقول عند ختام الوضوء :

« أشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إلـه إلا أنت ، عملت سوءاً وظلمت نفسي ، أستغفرك اللهم وأتوب اليك ، فاغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم ، اللهم اجعلني من التوابين ، واجعلني من المتطهرين ، واجعلني من عبادك الصالحين ، واجعلني عبداً صبوراً شكوراً ، واجعلني أذكرك ذكراً كثيراً ، وأسبحك بكرة وأصيلا »

وهناك أدعية تسبق الوضوء ، وأدعية تقال عند الأذان وفي أثناء الصلاة وبعد الصلاة ، وأدعية تقال قبل النوم وعند اليقظة وأدعية تقال في الصوم والفطر وعند مناسك الحج . وفي ذلك كله ما يغمر المسلم بنفحة روحانية هي من أهم آثار التصوف في الأخلاق .

وقد اهتم الغزالي بعرض طائفة من « الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث » فيقول المؤمن حين يخرج إلى المسجد « اللهم إني أسألك بحق

السائلين عليك ، وبحق ممشاى هذا اليك ، فانى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، فأسألك أن تنقذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

ويقول حين يخرج من المنزل لحاجة « باسم الله . رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل علىّ » .

ويقول إذا دخل السوق « اللهم إنى أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها ، اللهم إنى أعوذ بك من شرها وشر ما فيها ، اللهم إنى أعوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرة ، أو صفقة خاسرة » .

ويقول إن كان عليه دين « اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك ، وأغننى بفضلك عمن سواك »

ويقول عند لبس الثوب الجديد « اللهم كسوتنى هذا الثوب فلك الحمد ، أسألك من خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » .

ويقول عند التطير « اللهم لا يأتى بالحسنات الا أنت ، ولا يذهب بالسيئات الا أنت ، لا حول ولا قوة الا بالله »

وعند رؤية الهلال « اللهم أهلّه علينا بالأمن والايمان ، والبر والسلامة والاسلام ، والتوفيق لما تحب وترضى ، والحفظ عما تسخط » .

وعند هبوب الريح « اللهم انى أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » .

ويقول حين تبلغه وفاة أحد الناس « اللهم اكتبه فى المحسنين ، واجعل كتابه فى عِليين ، واخلفه على عَقبِه فى الغابرين ، اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنّا بعده ، واغفر لنا وله » .

ويقول عند التصدق « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

وعند الخسارة « عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون » .

وعند ابتداء الأمور « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا . رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى » .

وعند النظر الى السماء « ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ، تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » .

وعند رؤية الصواعق « اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » .

وعند المطر « اللهم سقيا هنيا ، وصيباً نافعاً ، اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب » .

وعند الغضب « اللهم اغفر لى ذنبى ، وأذهب غيظ قلبى ، وأجرنى من الشيطان الرجيم » .

وعند الغزو « اللهم أنت عضدى ونصيرى وبك أقاتل »

وعند الهمّ « اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك . ناصيتى بيدك ، ماض فىّ حكمك ، عدل فىّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء غمى ، وذهاب حزنى وهمى »

وعند النظر فى المرآة « الحمد لله الذى سوّى خلقى فعدّله ، وكرّم صورة وجهى وحسّنها وجعلنى من المسلمين » .

وعند اشتراء خادم أو غلام أو دابة « اللهم انى أسألك خيره وخير ما جُبِل عليه ، وأعوذ بك من شره وشر ما جُبِل عليه »

وعند التهنئة بالزواج : « بارك الله فيك وبارك عليك ، وجمع بينكما فى خير » .

وعند قضـــاء الدَّين يقول للمقضىّ له « بارك الله لك فى أهلك وفى مالك [1] » .

وقد عرض النويرى فى نهاية الأرب لأمثال هذه الأدعية فأفاض فيها القول ، وردّ أكثرها إلى رسول الله[2] والمهم هو تذكير القارىء بأثرها فى الأدب والأخلاق ، أما من جهة الأدب فحسبه أن يتذكر أن المؤمن الذى يحفظ ما أثِر من الأدعية فى مختلف الأحوال يظفر بثروة نفيسة من الألفاظ والتعابير ، لها سلطان خفىّ أو ملحوظ على كلامه وتفكيره ، وذلك مغنم ليس بالقليل . وأما من جهة الأخلاق فهى رياضة على حسن الأدب مع الله وتمثل قدرته ورحمته فى كل لحظة يهم فيها المرء بعمل حقير أو جليل . وشعور المؤمن بعظمة ربه هو أساس الخوف من الصغائر والكبائر ، والرغبة فى التقرب اليه بصالح الأعمال . يضاف الى ذلك أن هذه الأدعيـة تكرر وتعاد لأن أكثرها موصول بظروف تقع كل يوم ، وفى تكرارها ما يوجب طبعها فى النفس ، وذلك ضمان لتأثيرها البالغ فى الأدب والأخلاق .

---

(١) انظر الاحياء ج١ ص ٣٣٠ — ٣٣٣ (٢) انظر الجزء الخامس ص٣٠٢ — ٣٢٥

آداب الدعاء

فهم الصوفية لأحوال النفس — السجع فى الدعاء — إعداد النفس لتلقى النفحات الآلهية

وقد اهتم الصوفية بشرح ما تجب ملاحظته عند الدعاء ، فوضعوا لذلك عشرة آداب ، وتلك الآداب العشرة تدل على فهمهم للأحوال النفسية ، وبصرهم بتهيئة القلوب للدعاء

الأدب الأول — أن يترصد المؤمن لدعائه الأوقات الشريفة ، كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل .

ونحن لا نفهم قيمة هذا التخصيص ، ولا بدّ من الاعتراف بأنه من التقاليد الموسمية ، ولكن هذا لا يمنع من الموافقة على ما فيه من الفائدة من حيث توجيه النفس والقلب إلى أوقات يحترمها المسلمون لاتصالها بأكبر مواسم العبادات .

الثانى — أن يغتنم الأحوال الشريفة ، فيدعو عند زحف الصفوف فى سبيل الله ، وعند نزول الغيث ، وعند إقامة الصلوات المكتوبة ، وعند الصوم ، وعند السجود

وفى هذا رياضة على تمجيد بعض الأحوال ، وخاصة زحف الصفوف فى القتال المشروع

الثالث — أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث ـ ى بياض إبطيه وقيمة هذا من الوجهة النفسية ترجع إلى الاهتمام بالدعاء ، وقد تحدث عن هذا الأدب كثير من المؤلفين

الرابع — خفض الصوت بين المخافتة والجهر

وذلك ليطمئن الداعى إلى أن الله ليس بأصم ولا غائب ، كما قال الرسول حين رأى ناساً يرفعون أصواتهم بالدعاء .

الخامس — أن لا يتكلف السجع فى الدعاء

وهذا أدب جميل يراد به تربية النفس على إيثار الطبع وترك التكلف ، وقد روى أن النبي أنكر السجع فى الدعاء وقال « إياكم والسجع فى الدعاء ، حسب أحدكم أن يقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرَّب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل » ومرَّ بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له « أعلى الله تبالغ ؟ »

والمكروه هو تكلف السجع أما السجع المقبول فلا كراهة فيه ، فقد أثرت عن رسول الله أدعية مسجوعة ، كقوله « أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وإنك تفعل ما تريد »

وأثر عن الرسول أنه قال « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون فى الدعاء والطهور » وفسر ابن الأثير الاعتداء فى الدعاء بالخروج عن الوضع الشرعى والسنة المأثورة ، وعرض له الغزالى فى موطنين باب الوضوء (١) وباب

(١) ص ١٤٩ ج ١

الدعاء عند الكلام عن السجع ، فكأنه فسر الاعتداء بالسجع ، وكذلك فسر الآية « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين » ولكن سياق الآية يعيّن أن المراد هو النهى عن رفع الصوت

ونقل النويرى أن ابن عباس قال : « إياك والسجع فى الدعاء ، فانى شهدت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك [١] »

وفى منظومة الاستغفار للسيد البكرى

أستغفر الله من نظم القوافى ومن نثر وما قد جرى سجعاً على نسق [٢]

وهو متأثر بما ورد من كراهة الشعر والسجع

ولكن ذلك كله لا ينقض ما ورد من السجع فى القرآن والحديث ، فالمكروه هو السجع المتكلف ، لا مطلق السجع . وقد فصّلنا هذه القضية فى الجزء الأول من كتاب (النثر الفنى)

السادس — التضرع والخشوع والرغبة والرهبة .

السابع — أن يوقن بالاجابة

وهذا أدب يراد به صدق اليقين بفضل الله عز وجل

الثامن — أن يلح فى الدعاء ويكرره ولا يستبطىء الإجابة

التاسع — أن يفتتح الدعاء بذكر الله والصلاة على نبيه

العاشر — التوبة ورد المظالم ، وهو خير آداب الدعاء

ولهذه الآداب تفاصيل يجدها القارىء فى الجزء الأول من الاحياء والجزء الخامس من نهاية الأرب ، وقد اهتم الغزالى بالأدب الباطن وقال

---

(١) نهاية الأرب ج ٥ ص ٢٨٥ (٢) ص ٩١ من مجموع أوراد البكرى

« هو الأصل فى الإِجابة » ، وذكر أخباراً عن بنى اسرائيل ، وكيف استسقى موسى عليه السلام فلم يَسقِ الله قومه ، وأوحى اليه « إنى لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام »

وجملة هذه الآداب تبين كيف يحرص الصوفية على صفاء النفس وكيف يعدّونها لتلقى النفحات الآلهية ، وللقارىء أن يتصور حال النفس حين تُراض على هذه الآداب ، فوصل النفس بالله ، واستحضار فقرها اليه ، ورهبتها منه ورغبتها فيه ، وانتظارها لفضله فى ثقة ويقين ، كل أولئك من العوامل فى صقل النفس ، وتطهير القلب ، وتربية الوجدان

وانتظار الخير كله من الله وتهيئة النفس لذلك باب أصيل فى بناء الملكات الأخلاقية ، ولا سيما إذا لاحظنا مخلصين أن الأمر كله بيد الله ، وأن العبد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً

فمن كان فى ريب فليجرب الثقة بالله مرة واحدة ، وليدعه فانه عز شأنه لا يردّ الدعاء

دعاء الاستسقاء

الاستسقاء عند بنى اسرائيل — الاهتمام به فى كتب الفقه الاسلامى — نماذج من أدعية الاستسقاء — فكاهة شعرية

---

١ — دعاء الاستسقاء من التقاليد القديمة فى الديانات السامية ، وكان معروفاً عند بنى اسرائيل ، قال سعيد بن جبير : قحط الناس فى زمن ملك من ملوك بنى اسرائيل فاستسقوا ، فقال الملك لبنى اسرائيل : ليرسلن الله تعالى علينا السماء أو لنؤذينّه . قيل له : وكيف تقدر أن تؤذيه ، وهو فى السماء فقال : أقتل أولياءه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له (١)

وقال سفيان الثورى : بلغنى أن بنى اسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل ، وأكلوا الأطفال ، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام لو مشيتم إلىَّ بأقدامكم حتى تحفى ركبكم ، وتبلغ أيديكم عنان السماء ، وتكلّ ألسنتكم عن الدعاء ، فانى لا أجيب لكم داعياً ، ولا أرحم لكم باكياً ، حتى تردّوا المظالم إلى أهلها . ففعلوا فمطروا من يومهم (١)

وقال مالك بن دينار : أصاب الناس فى بنى اسرائيل قحط فخرجوا مراراً فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلىَّ بأبدان نجسة

---

(١) الاحياء ج ١ ص ٣١٧

وترفعون الى أكفًّا قد سفكتم بها الدماء ، وملأتم بطونكم من الحرام ، الآن قد اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا منى إلا بُعداً [١]

وهذه الشواهد تدل على أنه كان مفهوماً عند بنى اسرائيل أن الدعاء انما يقبل من التائبين .

٢ — وقد اهتمت كتب الفقه الاسلامى بصلاة الاستسقاء ، وبينت أنها تكون « إذا غارت الأنهار . وانقطعت الأمطار ، أو انهارت قناة » وأنه يستحب للامام أن يأمر النـاس أولاً بصيام ثلاثة أيام ، وما أطاقوا من الصدقة ، والخروج من المظالم ، والتوبة من المعاصى ، وفى اليوم الرابع يخرج بهم وبالعجائز والصبيان متنظفين فى ثياب بذلة واستكانة متواضعين . وقيل يستحب إخراج الدوابّ لمشاركتهم فى الحاجة ولقوله صلى الله عليه وسلم « لولا صبيان رضّع ، ومشايخ رُكّـع ، وبهائم رُتّـع ، لصُبّ عليكم العذاب صبًّا » فاذا اجتمعوا فى المصلّـى الواسع من الصحراء نودىَ : الصلاة جامعة فصلى بهم الامام ركعتين مثل صلاة العيد بغير تـكبير ، ثم يخطب خطبتين ، وبينهما جلسة خفيفة ، ويكون الاستغفار معظم الخطبتين . ويقول فى الدعاء :

« اللهم إنك أمرتنا بدعائك ، ووعدتنا باجابتك ، فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا ، اللهم فامنن علينا بمغفرة ما قارفنا ، واجابتك فى سقيانا وسعة أرزاقنا » .

٣ — وصلاة الاستسقاء من أهم مظاهر التصوف ، فان المرء لا يقوم بها إلا وقد آمن إيماناً صادقاً برحمة الله وفضله ، وكيف يطمع المرء فى أن تتغير

---

(١) الاحياء ج ١ ص ٣١٧ (٢) الاحياء ج ١ ص ٣١٢

القوانين الطبيعية فتمطر السماء لدعائه إلا إن وثق بأن الأمر كله لله ، وأنه يحجب السماء حين يشاء ، ويرسلها حين يشاء ؟

وانظر هذا الخبر وتأمل ما فيه من صدق اليقين :

قال عطاء السلمى : مُنِعنا الغيث فخرجنا نستسق فاذا نحن بسعدون المجنون فى المقابر ، فنظر إلىّ فقال ، يا عطاء ! أهذا يوم النشور ، أو بعثر ما فى القبور ؟ فقلت : لا ، ولكنا مُنِعنا الغيث ، فخرجنا نستسق . فقال : يا عطاء ! بقلوب أرضية ؟ أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بل بقلوب سماوية . فقال : هيهات ! يا عطاء ، قل للمتبهرجين لاتتبهرجوا ، فان الناقد بصير ! ثم رمق السماء بطرفه وقال : إلهى وسيدى ومولاى ! لا تهلك بلادك ، بذنوب عبادك ، ولكن بالمكنون من أسمائك ، وما وارت الحجب من آلائك ، إلا ما سقيتنا ماءاً غدَقا فُراتاً تحيي به العباد ، وتروى به البلاد ، يا من هو على كل شىء قدير ! قال عطاء : فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجاءت بمطر كأفواه القرب ، فولّى وهو يقول :

أفلح الزاهدون والعابدونا إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين العليلة حبًّا فانقضى ليلهم وهم ساهرونا
شغلتهم عبادة الله حتى قيل فى الناس إن فيهم جنوناً(١)

وفى عبارة « بقلوب أرضية ، أم بقلوب سماوية » ما يشعر بأدق المعانى الروحية ، ولهذا أثرٌ بالغٌ فى تربية الأخلاق ، إذ يروض المرء على الايمان بأن الخير لا يصيب إلا المخاصين من الأتقياء .

---

(١) الاحياء ج ١ ص ٣١٨

٤ — لم يقتصر المسلمون على دعاء واحد فى الاستسقاء، كما اقتصروا على دعاء واحد فى التشهد مثلا، وانما انطلقت قرائحهم فافتنّوا فيه افتنانا عظيما. فكان الاستسقاء من أسباب الثروة الأدبية فى الدعاء، وكان يتفق أن تختلف الأدعية على لسان الرجل الواحد حين يتكرر الاستسقاء. كما وقع لعلى بن أبى طالب، فقد خطب مرة فقال:

« اللهم قد انصاحت جبالنا[1]، واغبرت أرضنا، وهامت دوابنا، وتحيرت فى مرابضها، وعجت عجيج الثكالى على أولادها، وملت التردد فى مراتعها، والحنين الى مواردها، اللهم فارحم أنين الآنة، وحنين الحانة، اللهم فارحم حيرتها فى مذاهبها، وأنينها فى موالجها. اللهم خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حدابير[2] السنين، وأخلفتنا مخايل الجود، فكنت الرجاء للمبتئس والبلاغ للملتمس، ندعوك حين قنط الأنام، ومنع الغمام، وهلك السوام، أن لا تؤاخذنا بأعمالنا، ولا تأخذنا بذنوبنا، وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبعق[3]، والربيع المغدق، والنبات المونق، سحا وابلاً تحيى به ما قد مات، وترد به ما قد فات. اللهم سُقيا منك محيية مروية، تامة عامة طيبة مباركة، زاكيا نبتها، ثامرا فرعها، ناضرا ورقها، تنعش بها الضعيف من عبادك، وتحيى بها الميت من بلادك. اللهم سقيا منك تعشب بها نجادنا وتجرى بها وهادنا، وتخصب بها جنابنا، وتبقل بها ثمارنا، وتعيش بها مواشينا، وتندى بها أقاصينا، وتستعين بها ضواحينا، من بركاتك الواسعة

---

(١) انصاحت: جفت ويبست من الجدب

(٢) الحدابير جمع حدبار وحدبير وهى السنة المجدبة

(٣) المنبعق: الذى انشق من ثقل الماء

وعطاياك الجزيلة ، على بريتك المرملة ، ووحشك المهملة ، وأنزل علينا سماء مخضلة [١] مدراراً هاطلة يدافع الودق منها الودق ، [٢] ويحفز القطر منها القطر غير خلـّب برقها [٣] ، ولا جهام عارضها [٤] ، ولاقزع ربابها [٥] ، ولا شفان ذهابها [٦] ، حتى يخصب لإمراعها المجدبون ، ويحيا ببركتها المسنتون [٧] ، فانك تنزل الغيث بعد ما قنطوا و تنشر رحمتك وأنت الولى الحميد » .

وخطب مرة أخرى فقال بعد التحميد :

« ألا وإن الأرض التى تحملكم ، والسماء التى تظلكم ، مطيعتان لربكم ، وما أصبحتا تجودان لكم ببركتهما توجعا لكم ، ولا زلفة اليكم ، ولا لخير ترجوانه منكم ، ولـكن أمِرتا بمنافعكم فأطاعتا ، وأقيمتا على حدود مصالحكم فأقامتا .

« إن الله يبتلى عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات، وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات ، ليتوب تائب . ويقلع مقلع ، ويتذكر متذكر ، ويزدجر مزدجر، وقد جعل الله الاستغفار سبباً لدرور الرزق، ورحمة الخلق، فقال (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين) فرحم الله امرءاً استقبل توبته ، واستقال خطيئته ، وبادر منيته.

« اللهم إنا خرجنا اليك من تحت الأستار والأكنان ، وبعـد عجيج البهائم والولدان ، راغبين فى رحمتك ، وراجين فضل نعمتك ، وخائفين من

---

(١) مخضلة : مبللة (٢) الودق : المطر

(٣) البرق الخلب : ما يطمع فى المطر ولا مطر معه

(٤) العارض الجهام : السحاب لا مطر فيه (٥) الرباب السحاب الأبيض ، والقزع الخفيف المتفرق (٦) الشفان الريح البادرة . والذهاب جمع ذهبة وهى الأمطار اللينة

(٧) المسنتون الذين أصابهم القحط

عذابك ونقمتك ، اللهم فاسقنا غيثك ولا تجعلنا من القانطين ، ولا تهلكنا بالسنين ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، يا أرحم الراحمين . اللهم إنا خرجنا اليك ، نشكو اليك بما لا يخفى عليك ، حين ألجأتنا المضايق الوعرة وأجاءتنا المقاحط المجدبة ، وأعيتنا المطالب المتعسرة ، وتلاحمت علينا الفتن المستصعبة ، اللهم إنا نسألك أن لا تردنا خائبين ، ولا تقلبنا واجمين ، ولا تخاطبنا بذنوبنا ، ولا تقابسنا بأعمالنا ، اللهم انشر علينا بركتك ، ورزقك ورحمتك ، واسقنا سُقيا نافعة مروية معشبة تنبت بها ما قد فات ، وتحيي بها ما قد مات ، نافعة الحيا ، كثيرة المجتنى ، تروى بها القيعان ، وتسيل البطنان ، وتستورق الأشجار ، وترخص الأسعار ، انك على ما تشاء قدير (١) » .

وعند درس الخطبة الأولى نجد الخطيب ترفق فى الدعاء حين اهتم بوصف حيرة الدواب فى المرابض ، وملالها من التردد فى المراتع ، والحنين الى الموارد ، وعجيجها على أولادها التى أودى بها الظمأ القتال ، ونجده تلطف حين دعا الله أن لا يؤاخذهم بأعمالهم ، ولا يأخذهم بذنوبهم ، ثم نجده أغرق فى وصف الغيث المرجو ، والخصب المأمول ، وكذلك كان صدر الخطبة نفحة وجدانية يتمثل فيها الجزع والانابة ، وكان شطرها الثانى باباً من الصنعة والافتنان فى التخييل والتمثيل .

وصدر الخطبة الثانية توحيدٌ صرف ، فالأرض والسماء من جنود الله ، تجودان حين يشاء ، وتمسكان حين يشاء . ثم يمضى الخطيب فيذكر أن نقص الثمرات ابتلاء من الله يصيب الناس حين تسوء أعمالهم ليتذكروا وينيبوا ،

---

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٢٧٩

وأن كشف الشر موقوف على الاستغفار . وهو بذلك يوجه قلوب المستسقين الى المتاب . ويختم خطبته بدعاء طويل هو نموذج لرقة التوسل والابتهال .

والمعانى تختلف فى هاتين الخطبتين بعض الاختلاف ، وذلك يدل على أن الخطيب كان له فى كل موقف شعور خاص ، وأساس البلاغة أن يعبر المرء عما يساور نفسه عند الخطاب . ولا يعتمد على معانيه القديمة الا المجدبون فى عالم البيان .

٥ — وعند النظر فيما أنشأ أئمة المسلمين من أدعية الاستسقاء نجد الفن ظاهراً ظهوراً قوياً ، ولا كذلك المحفوظ من أدعية الرسول : فهى ادعية بسيطة قوامها الصدق ، والفن فيها قليل . حدث الخطيب البغدادى بسنده قال : أتت النبى صلى الله عليه وسلم بواك فقال :

«اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريّا مريعاً ، عاجلا غير آجل ، نافعاً غير ضار »[1].

ومن الملح المتصلة بدعاء الاستسقاء قول ابى على بن المحسن بن على

خرجنا لنستقى بيمن دعائه ... وقد كاد هدب الغيم أن يبلغ الأرضا
فلما ابتدا يدعو تقشعت السما ... فما تم الا والغمام قد انفضا[2]

---

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٣٦ (٢) ص ١١١ خاص الخاص

أدعية زين العابدين

١ — زين العابدين هو عليّ بن الحسين بن على بن ابى طالب . وكانت ولادته يوم الجمعة فى بعض شهور سنة ثمان وثلاثين ، وتوفى سنة أربع وتسعين وقيل اثنين وتسعين بالمدينة ودفن بالبقيع(١)

وكان يقال لزين العابدين ابن الخيرتين لقول الرسول : لله تعالى من عباده خيرتان ، فخيرته من العرب قريش ومن العجم فارس(٢)

وذلك أن زين العابدين قرشيّ الأب فارسيّ الأم فأمه سلافة بنت يزدجرد آخر ملوك فارس(٢)

وكان كثير البر بأمه حتى قيل له : إنك أبر الناس بأمك ولسنا نراك تأكل معها فى صحفة . فقال : أخاف أن تسبق يدى الى ما تسبق اليه عينها فأكون قد عققتها(١)

وكان كبير البر بالمعوزين ، البر الجميل الذى لا يطلع عليه الناس ، وقد أحصى بعد موته عدد من كان يقوتهم سرّاً فاذا هم نحو مئه بيت . قال محمد ابن اسحاق : كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين معايشهم ومآكلهم ، فلما مات على بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به ليلاً إلى منازلهم(٣) .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٧٨ (٢) ص ٥٧٧

(٣) الاعلام للزركلى ج ٢ ص ٦٦٥

وهذه شمائل لا تُستكثر على أهل البيت الذين بُعث جدهم ليتمم مكارم الأخلاق .

٢ — عاش زين العابدين فى عصر كان يموج بالفتن والمكاره والحتوف، فى العصر الذى كان يسعى فيـه الأمويون لاستئصال شأفة أهل البيت ، ولذلك تفاصيل شرحناها فى كتاب « المدائح النبوية » وبيَّنا أثرها فى نهضة الشعر السياسى لعهد بنى أميـة . وقد بقيت تلك المكاره مرسومة فى خيال زين العابدين حتى صح له أن يدعو على أهل الشام فيقول :

« اللهم وقد شملنا زيغ الفتن ، واستولت علينا عشْوة الحيرة ، وقارعنا الذل والصَّغار ، وحَـكَم فى عبادك غير المأمونين على دينك ، فابتز أموال آل محمد من نقض حكمك ، وسعى فى تلف عبادك المؤمنين ، فجعل فيئنا مَغنما وأمانتنا ميراثاً ، واشتُريت الملاهى والمعـازف والـكبارات بسهم الأرملة واليتيم والمسكين فرتع فى مالك من لا يرعى لك حُرمة ، وحكم فى أبشار المسلمين أهلُ الذمة ، فلا ذائد يذودهم عن هلـكة ، ولا راحم ينظر اليهم بعين الرحمة . . . اللهم وقد استحصد زرع البـاطل وبلغ نُهْيته واستحكم عموده . . . الخ [١] » .

والمراد بأهل الشام هم الحاكمون من بنى أمية الذين استطرد فى الدعاء عليهم فقال :

« اللهم ولا تدع للجور دعامة إلا قصمتها ، ولا جُنّة إلا هتكتها ، ولا كلمة مجتمعة إلا فرقتها ، ولا قائمة إلا خفضتها ، ولا راية إلا نكستها وحطتها،

(١) الصحيفة السجادية الخامسة ص ٩١

ولا عُلوّا إلا أسفلته ، ولا خضراء إلا أبدتها ، اللهم وكوّر شمسه ، وأطفىء نوره ، وأمّ بالحق رأسه (١) ، وفُض جيوشه ، وأرعب قلوب أهله ، وأرنا أنصار الجور عباديد بعد الألفة (٢) ، وشتّى بعد اجتماع الكلمة ، ومقمومى الرءوس بعد الظهور على الأمة (٣) » .

وقد أكثر من الدعاء على من خاصموه وحاربوه فدعا على حرملة بن كاهلة وعبيد الله بن زياد وضمرة بن معبد وعبد الملك بن مروان .

ومراجعة تلك الأدعية تصوّر بعض جوانب المجتمع فى ذلك الحين

٣ — وكان له دعاء خاص بساعته ، وبيان ذلك أن فى السالفين من افترض أن النهار قُسِّم إلى اثنتى عشرة ساعة لينسجم مع عدد الأئمة الاثنى عشر ، وزين العابدين هو الرابع بين أولئك الأئمة فساعته من النهار هى الرابعة ، وهى من ارتفاع النهار إلى وقت الزوال (٤) .

٤ — وأهم ما ينبغى النص عليه فى هذا المقام هو الأدعية الانجيلية ، أو المناجاة الانجيلية ، وهى أكبر مناجاة ظهرت من فيض الله على لسان زين العابدين (٥) .

وسميت هذه المناجاة بالانجيلية لأن فقراتها تشبه أكثر فقرات الانجيل النازل على عيسى عليه السلام لا الانجيل المتداول بين النصارى الآن (٥) .

وهنا بيت القصيد ، فقد أشرنا مرات كثيرة إلى أن الصوفية كانوا يرون المسيح قدوة فى الشؤون الروحية .

---

(١) أم الرأس شجه

(٢) عباديد : متفرقين

(٣) الصحيفة السجادية الخامسة ص ٩٢ و٩٣

(٤) انظر ص ١٤٦ و١٤٩

(٥) انظر ص ١٦٦

والواقع أن المسلمين عرفوا الانجيل منذ زمن بعيد ، وقد ترجموه ترجمة فصيحة جداً ، ومن تلك الترجمة الفصيحة شواهد كثيرة فى كتب الأدب والتصوف كالذى نراه فى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة ، وكتاب الاحياء للغزالى .

والتشابه كبير جداً بين مذاهب النصارى ومذاهب الصوفية فى التعبد ، فالنصرانى المتبتل يدخل الكنيسة وفى جيبه كتاب يشتمل على طوائف من الأدعية والصلوات ، والصوفى المخلص يدخل المسجد وفى يده كتاب يشتمل على طوائف من الاستغاثات والأحزاب والأوراد .

وكتاب الصحيفة السجادية يشبه من نواح كثيرة كتاب الاقتداء بالمسيح والفرق الوحيد بين الكتابين أن الدعاء فى كتاب الاقتداء بالمسيح يوجَّه إلى عيسى والدعاء فى الصحيفة السجادية يوجَّه إلى الله ، ويتم التشابه حين نعرف أن النصارى يرون عيسى صورة الله .

والصحائف السجادية عند الشيعة تقابل مجموع الأوراد عند أهل السنة والمخاَطب واحد وهو الله واجب الوجود .

وقد اهتم النصارى بكتاب الاقتداء بالمسيح Imitation de Jésus Christ فنقلوه من اللاتينية إلى الفرنسية نحو أربعين مرة وكتبوه بالذهب فى كثير من الأحيان .

وأدعية زين العابدين كانت مما اهتم به الشيعة اهتماماً شديداً ، فصححوا رواياتها ونقدوها وكتبوها بالذهب فى كثير من البلاد .

٥ — والمناجاة الانجيلية تفيض بالمعانى الروحية ، ولننظر كيف يقول زين العابدين :

« اللهم لك قلبي ولسانى ، وبك نجاتى وأمانى ، وأنت العالم بسرى وإعلانى فأمت قلبي عن البغضاء ، وأصمت لسانى عن الفحشاء ، وأخلص سريرتى وعلانيتى عن علائق الأهواء ، واكفنى بأمانك عواقب الضراء ، واجعل سرى معقوداً على مراقبتك ، وإعلانى موافقاً لطاعتك . وهب لى جسما روحانياً وقلباً سماوياً ، وهمة متصلة بك ، ويقيناً صادقاً فى حبك »(١) .

وكيف يقول :

« اللهم ارحم من اكتنفته سيئاته ، وأحاطت به خطيئاته ، وحفَّت به جناياته . بعفوك ارحم من ليس له من عمله شافع ، ولا يمنعه من عذابك مانع .(٢) »

٦ — ولزين العابدين أدعية تلين الجلاميد ، كأن يقول :

« سيدى ، حق لمن دعاك بالندم تذللا أن تجيبه بالكرم تفضلا

سيدى ، أمن أهل الشقاء خلقتنى فأطيل بكائى ، أم من أهل السعادة خلقتنى فأبشّر رجائى ؟

سيدى ، ألضرب المقامع خلقت أعضائى ، أم لشرب الحميم خلقت أمعائى ؟

سيدى ، لو أن عبداً استطاع الهرب من مولاه لكنت أول الهاربين منك ، لكنى أعلم أنى لا أفوتك

سيدى ، لو أن عذابى يزيد فى ملكك لسألتك الصبر عليه ، غير أنى أعلم

---

(١) ص ١٨٤ (٢) ص ١٧٨

أنه لا يزيد فى ملكك طاعة المطيعين ، ولا ينقص منه معصية العاصين .

سيدى ، ما أنا وما خطرى ؟ هبْ لى خطاياى بفضلك ، وجللنى بسترك، واعف عن توبيخى بكرم وجهك .

إلهى وسيدى ، ارحمنى مطروحاً على الفراش تقلّبنى أيدى أحبتى ، وارحمنى مطروحاً على المغتسل يغسّلنى صالح جيرتى ، وارحمنى محمولاً قد تناول الأقرباء أطراف جنازتى ، وارحم فى ذلك البيت المظلم وحشتى وغربتى ووحدتى ، فما للعبد من يرحمه إلا مولاه[١]»

٧ — وزين العابدين يجعل الأيام والشهور مواسم روحية ، فله أدعية لأيام الأسبوع ، ودعاء ليوم عرفة ودعاء لأول يوم رجب ، وأدعية لأيام رمضان . وأول شهور السنة الهجرية عنده هو شهر رمضان[٢]

ولا تخلو أدعيته على كثرتها من فصاحة التعبير وقوة الروح

٨ — والصوفية يعتقدون أن زين العابدين كان من أهل الأسرار ، ويروون أنه قال :

يا رُبَّ جوهر علم لو أبوح بهِ　　لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمى　　يرون أقبح ما يأتونه حسنا
إنى لأكتم من علمى جواهره　　كى لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا[٣]

ومعنى ذلك أنه كان يفرق بين ما يُلقَى على العوام وما يلقى على الخواصّ .

---

(١) ص ٣٧٤ و٣٧٥　　(٢) انظر ص ٣٧٨

(٣) شرح ابن عجيبة ص ١١٢

أدعية التوحيدى

١ — لم يكن التوحيدى صوفيا بالمعنى المصطلح عليه عند أهل التصوف ، فقد كان رجلا مشغولا بالأدب والمنطق والتوحيد ، وكانت له فى حياته جولات هجائية لا تخلو من لؤم وطيش ، ولكنه حين انهزم فى حياته المعاشية بدأ يشعر بروح التصوف ، وأخذ يدعو بما دعا به بعض النساك :

« اللهم صُنْ وجوهنا باليسار ، ولا تبذلها بالاقتار ، فنسترزق أهل رزقك ونسأل شرّ خلقك ، ونُبتَلَى بحمد من أعطى ، وذمّ من منع ، وأنت من دونهم ولىّ الاعطاء ، وبيدك خزائن الأرض والسماء (١) » .

وتدلنا فقرات فيما وصل الينا من مؤلفاته على أنه كان يعنى بتقييد ما يصل اليه من بليغ الدعاء ، كأن يحدثنا أنه سمع الخوارزمى أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول « اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمتنى حتى يبور الجهل كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم (٢) » .

فهو يذكر الخوارزمى باسمه وكنيته ويصفه بالشاعر البليغ ، وفى هذا إشارة الى عطفه عليه بسبب الروح الذى تنسمه فى هذا الدعاء .

وهو نفسه كان يعطف على التصوف ويراه علما يدور بين إشارات

---

(١) معجم الادباء ج ٥ ص ٤٠٤ (٢) الصداقة والصديق ص ٢

إلهية ، وأغراض علوية ، وأفعال دينية ، وأخلاق ملوكية ، ولم يمنعه هذا العطف من النص على أن الطريقة لحقها حيف لكثرة الدخلاء فيها كما لحق البلاغة لكثرة مدّعيها ، وذلك فى رأيه لانقراض الدنيا وقرب أشراط القيامة [1] » .

فهو يمجد التصوف ولا يمقت إلا الأدعياء .

٢ — والمرجح عندنا أن التوحيدى لم يكلف بصوغ الأدعية إلا فى أخريات حياته حين « بلغت شمسه رأس الحائط[2] » ولذلك رأيناه يفتتح رسالة الصداقة والصديق بهذا الدعاء :

« اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا ، واستر علينا فقد أعورنا ، وارزقنا الألفة التى بها تصلح القلوب وتُنَقَّى الجيوب ، حتى نعيش فى هذه الدار مصطلحين على الخير مؤثرين للتقوى عاملين بشرائط الدين ، آخذين بأطراف المروءة آنفين من ملابسة ما يقدح فى ذات البين ، متزودين للعاقبة التى لابد من الشخوص اليها ، ولا محيد من الاطلاع عليها ، إنك تؤتى من تشاء ما تشاء » .

وقد يقال إن أكثر المؤلفين يبتدئون مؤلفاتهم بالدعاء . ونجيب بأن هنا نفحة صوفية لا نجد مثلها فيما دعا به الجاحظ فى فاتحة « البيان والتبيين »

٣ — على أن الجاحظ دعا مرة أو مرات ، أما التوحيدى فقد اتخذ الدعاء فناً من فنون البيان ، ولننظر هذا الدعاء :

« اللهم إنى أبرأ من الثقة إلا بك ، ومن الأمل إلا فيك ، ومن التسليم

---

(١) من رسالة ثمرات العلوم الملحقة بالصداقة والصديق ص ١٩٦

(٢) عبارة التوحيدى فى ختام رسالة الصداقة والصديق

إلا لك ، ومن التفويض إلا إليك ، ومن التوكل إلا عليك ، ومن الطلب إلا منك ، ومن الرضا إلا عنك ، ومن الذل إلا فى طاعتك ، ومن الصبر إلا على بلائك ، وأسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتى ، والشكر على نعمك شعارىَ ودثارى ، والنظر إلى ملكوتك دأبى وديدنى ، والانقياد لك شأنى وشغلى ، والخوف منك أمنى وإيمانى ، واللياذ بذكرك بهجتى وسرورى . اللهم تتابع بِرُّك واتصل خيرك ، وعظم رفدك ، وتناهى إحسانك ، وصدق وعدك ، وبرّ قسمك ، وعمت فواضلك ، وتمت نوافلك . ولم تبق حاجة إلا وقد قضيتها أو تكفلت بقضائها ، فاختم ذلك كله بالرضا والمغفرة ، إنك أهل ذلك والقادر عليه »

والقارىء مرجوٌّ أن ينظر براعة هذا الكاتب فى تلوين الفواصل مع حروف الخفضِ فى صدر هذا الدعاء ، وما اتّسق له بعد ذلك من المقابلة والازدواج .

٤ — وهذا لون ثالث من الدعاء :

« اللهم إنى أســـألك خفايا لطفك ، وفواتح توفيقك ومألوف برك ، وعوائدإحسانك ، وجاه المجتبين من ملائكتك ، ومنزلة المصطفين من رسلك ومكاثرة الأولياء من خلقك ، وعاقبة المتقين من عبادك ، وأسألك القناعة برزقك ، والرضا بحكمك ، والنزاهة عن محظورك ، والورع فى شبهاتك ، والقيام بحجتك ، والاعتبار بما أبديت ، والتسليم لما أخفيت ، والإقبال على ما أمرت ، والوقوف عما زجرت ، حتى أتخذ الحق حجة عند ما خفّ وثقل ، والصدق سنة فيما عسر وسهل ، وحتى أرى أن شعار الزهد أعز شعار ، ومنظر

البـاطل أشوه منظر ، فأتبختر فى ملـكوتك فضفاض الرداء بالدعاء اليك ، وأبلغ الغاية القصوى بين خلقك بالثناء عليك »

وفى هذا الدعاء فنون من البديع لا تخفى على القارىء ، وموضوعه يخالف موضوع الدعاء السالف .

٥ — وهذا لون رابع :

« اللهم إليك أرفع عُجَرِى وبُجَرِى[١] وبك أستعين فى عسرى ويسرى وإليك أدعو رغباً ورهباً ، فانك العالم بتسويل النفس ، وفتنة الشيطان ، وزينة الهوى وصرف الدهر وتلون الصديق ، وبائقة الثقة وقنوط القلب ، وضعف المُنة ، وسوء الجزع ، فقنى اللهم ذلك كله ، واجمع من أمرى شمله وانظم من شأنى شتيته ، واحرسنى عند الغنى من البطر ، وعند الفقر من الضجر وعند الـكفاية من الغفلة ، وعند الحاجة من الحسرة ، وعند الراحـة من الفُسولة ، وعند الطلب من الخيبة ، وعند المنازلة من الطغيان ، وعند البحث من الاعتراض عليك ، وعند التسليم من التهمة لك ، وأسألك أن تجعل صدرى خزانة توحيدك ، ولسـانى مفتاح تمجيدك ، وجوارحى خدم طاعتك ، فانه لا عزّ إلا فى الذل لك ، ولا غنى إلا فى الفقر اليك ، ولا أمن إلا فى الخوف منك ، ولا قرار إلا فى القلق نحوك ، ولا روح إلا فى الـكرب لوجهك ، ولا ثقة إلا فى تهمة خلقك ، ولا راحة إلا فى الرضا بقسمك ، ولا عيش إلا فى جوار المقربين عندك . »

وهذا الدعاء على جانب عظيم من الأهمية ، وفى صـدره بعض الضعف

---

(١) كناية عن الاحمال الثقال

ولكن الشطر الأخير عاية فى القوة ، وهو يمثل كثيراً من المعانى النفسية كالبطر عند الغنى ، والضجر عند الفقر ، والغفلة عند الكفاية ، والفسولة عند الراحة ، والطغيان عند المنازلة ، والاعتراض عند البحث .

ولا مفرّ من الثناء على هذه الفقرة إذ يخاطب الكاتب ربه فيقول :

« إنه لا عزّ إلا فى الذل لك ، ولا غنى إلا فى الفقر اليك ، ولا أمن إلا فى الخوف منك ، ولا قرار إلا فى القلق نحوك ، ولا روح إلا فى الكرب لوجهك ، ولا ثقة إلا فى تهمة خلقك »

والكلمة الأخيرة من وثبات الخيال

٦ — وهذا لون خامس :

« اللهم ببرهانك الصادع ، وبنور وجهك الساطع ، صلّ على محمد نبيك نبى الرحمة ، وقائد الأمة ، وإمام الأئمة ، واحرس علىّ إيمانى بك بالتسليم لك وخفف عنى مؤونة الصبر على امتحانك ، وواصل لى أسباب المزيد عند الشكر على نعمتك ، واجعل بقية عمرى فى غنى عن خلقك ، ورضاً بالمقدم من رزقك . اللهم إنك إن آخذتنا بذنوبنا خسفت الأرض بنا ، وإن جازيتنا على ظلمنا قطعت دوابرنا ، فانك قلت (فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) اللهم اليك نشكو قسوة قلوبنا ، وغلّ صدورنا ، وفتنة أنفسنا ، وطموح أبصارنا ، ورفث ألسنتنا ، وسخف أحلامنا ، وسوء أعمالنا وفحش لجاجنا ، وقبح دعوانا ، ونتن أشرارنا ، وخبث أخيارنا ، وتلزق ظاهرنا ، وتمزق باطننا . اللهم فارحمنا ، وارأف بنا ، واعطف علينا ، وأحسن إلينا ، وتجاوز عنا ، واقبل الميسور منا ، فاننا أهل عقوبة وأنت أهل مغفرة ،

وأنت بما وصفت به نفسك أحق منا بما وسمنا به أنفسنا ، فان فى ذلك ما اقترن بكرمك ، وأدى إلى عفوك .... الخ

وهذا الدعاء طويل يجد القارىء بقيته فى شرح ابن أبى الحديد[1] وهو يذكّر بما سيوضع من الأحزاب ، ففيه حديث عن قسوة القلوب ، وغل الصدور ، وفتنة النفوس ، وطموح الأبصار ، ورفث الألسنة ، وسخف الأحلام ، وسوء الأعمال ، وذلك يدل على بصر التوحيدى بعصف الفتن فى عالم الأخلاق .

ومن دقيق ما فيه الإشارة إلى قبح الدعوى ، وفحش اللجاج ، والنص على نتن الأشرار وخبث الأخيار ، فهو يرى أن فى الأخيار خبثاً ، وذلك من جانبه إسراف فى اتهام الطبيعة الانسانية ، إلا إن قدرنا أنه يشير إلى أن الأخيار لا غنى لهم عن التحرز والخوف من سوء الخواتم .

٧ — هذا وللتوحيدى أدعية كثيرة فيها أدب وعقل وذكاء . ولا موجب لعرض ما وصلنا اليه من أدعيته فى هذا الفصل فلنكتف بهذه الفقرات :

« اللهم احجز بيننا وبين كل ما دلّ على غيرك ببيانك ، ودعا إلى سواك ببرهانك » .

« اللهم قيض لنا فرجا من عندك ، وأتِحْ لنا مَخلَصاً اليك ، فانا قد تعبنا بخلقك وعجزنا عن تقويمهم لك ، ونحن إلى مقاربتهم فى مخالفتك أقرب منا الى منابذتهم فى موافقتك » .

« اللهم اليك المفر من دار منهومها لا يشبع ، وحائمها لا ينقع ، وطالبها

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٨٩

لا يربع ، وواجدها لا يقنع . . . اللهم كما ابتليت بحكمتك الخفية التى أشكلت على العقول وحارت معها البصائر فعاف برحمتك اللطيفة التى تطاولت اليها الأعناق وتشوفت نحوها السرائر » .

« اللهم إنا قربنا منك فلا تُبِنّا عنك ، وظهرنا لك فلا تُبطنّا دونك ، ووجدناك بما ألقيت إلينا من غيب ملكوتك ، وعزفنا عن كل ما لوانا عن بابك ، ووثقنا بكل ما وعدتنا فى كتابك (١) »

٨ — وقد أهدى إلينا الأستاذ سليم قبعين نسخة مخطوطة من رسالة للتوحيدى اسمها «الاشارات الالهية» فنظرنا فى الفاتحة فاذا فيها دعاء يثير الدمع ويتفجر عند قراءته الحنان ، فان كان القارىء فى حاجة إلى بينة على صحة ما نقول فليقرأ هذا الدعاء :

« اللهم إنا نسألك ما نسأل لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك ، وأفعالنا معك ، وسوالف إحساننا قِبَلك ، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعاً فى رحمتك الواسعة ، نعم ، وعن توحيد لا يشوبه إشراك ، ومعرفة لا يخالطها إنكار ، وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة ، نسألك أن لا ترد علينا هذه الثقة بك فتشمت بنا من لم تكن له هذه الوسيلة اليك » .

٩ — وقد رأينا فى هذه المخطوطة إشارة تسمو بالتوحيدى إلى درجة التصوف ولنتأمل كيف يقول

(حرامٌ على قلب استنار بنور الله أن يفكر فى غير عظمة الله .
حرامٌ على لسان تعود ذكر الله أن يذكر غير الله .

(١) تجد أصول هذه الفقرات فى شرح ابن ابى الحديد ج ٣ ص ٨٩ — ٩١

حرامٌ على نفس طهرت من أدناس الدنيا بطاعة الله أن تدنس بشيء من مخالفة الله

حرامٌ على عين نظرت الى مملكة الله أن تحدق إلى غير الله ،

حرام على كبد ابتلَّت بالثقة بالله أن تطمئن إلى غير الله ،

حرام على من لم ير الخير إلا من الله أن يجد طمعاً فى غير الله ،

حرام على من شرُف بخدمة الله أن يتضع بخدمة غير الله ،

حرام على من ألف فِناء الله أن يعرج إلى غير الله ،

حرام على من تلذذ بمناجاة الله أن يناجى غير الله ،

حرام على من رتع فى نعمة الله أن يعبد غير الله ،

حرام على من سكن حَرَم الله أن يتعرض لحُرَم الله ،

حرام على من دعا إلى الله أن يحب غير الله ،

حرام على عبد الله أن يتخذ مولى سوى الله ،

حرام على من أنس بالله أن يأنس بغير الله ،

حرام على من عرف قدرة الله أن يتعرض لسخط الله) .

وهذه قطعة طريفة تفيض بقوة الروح .

١٠ — والشاهد من كل ما سلف أن التوحيدى يرى الدعاء من الفنون الأدبية فهو يكتب الأدعية كتابة الأديب الفنان ، ويقصد إلى جعلها من النماذج البارعة فى عالم البيان .

فمن أين جاءته هذه النزعة ؟ أترون هذا الفن من مبتكراته ؟ هيهات ! لقد كان الرجل يزاحم ناساً ملأت أدعيتهم آفاق الأندية الأدبية ،

وهؤلاء النـاس هم الزهاد والنساك والصوفية ، وكان لنصائحهم ووصاياهم وأدعيتهم مكان مرموق فى عالم الآداب

إن الفن الأدبى لايزدهر إلا حين يجد نفساً تصبو اليه وتتشهاه ، وكان التوحيدى سُبق بأجيال عرفت فضل البلاغة فى كلام النساك ، وكان الجاحظ قدوة التوحيـدى ، والجاحظ كان يحرص على تعطير كتبه برواية أقوال النساك والزهاد فليس غريباً أن يعمد التوحيدى إلى ذلك الفن من البلاغة الدينية فيحتذيه احتذاء يدل على ذكاء القلب ، وصفاء النفس ، وحياة الوجدان

١١ — فان سأل القارىء : وأين مظاهر هذا الفن فى العصر الحديث ؟

فانا نجيب بأنه انقرض ولم تبق إلا روايته وإنشاده فى مجالس الصوفية وربما رأينا من أهل التصوف فى مصر من ينظم الأدعية ولـكنهم يتكلفون متابعة القدماء . والصفاء فى خواطرهم قليل . وأين الطرف المـكحول من الطرف الـكحيل !

أما الخيـامُ فانها كخيامهم   وأرى نساء الحى غير نسائها

الاستغاثات والأحزاب

استغاثة السهيلى — الفرق بين الاحزاب والاوراد — تحليل حزب البر للشاذلى — فى الاحزاب اشارات لا يفهمها غير كبار الحكماء .

---

١ — رأينا نماذج من الأدعية والأوراد ، وعرفنا أن لذلك صلة وثيقة بالحياة الخلقية ، ورأى القارىء كيف آثرنا الإيجاز على الإطناب ، لأن الإشارة تكفى فى هذا الباب ، ولأن الأطناب نفسه لا يطفىء الشوق إلى المزيد فليرجع القارىء إلى كتب التصوف ، ففيها أوراد تجلّ عن الأحصاء ، وحسبه أن يعرف أن لتلك الأوراد ملامح أدبية وخلقية : فهى باب من الأدب لأن مؤلفيها كانوا يتحرون دقة الأسلوب وروعة الخيال ، وهى من صميم الأخلاق لأنها رياضة على التقرب الى الله ، والانقطاع اليه ، والفناء فيما يريد .

ولنأخذ الآن فى الحديث عن الاستغاثات والأحزاب ، ولنوجز أيضاً لأنه يتعذر توفية هذا النوع ما يستحق من الدرس فى فصل من كتاب .

٢ — ولنقف فى الاستغاثات عند منظومة السهيلى المتوفى سنة ٥٨١ وكان يحدث أصحابه بأنه ما سأل الله بها إلا أعطاه

يا مَن يرى ما فى الضمير ويسمعُ　　أنت المُعَدُّ لكل ما يُتوقَع
يا مَن يُرجَّى للشدائد كلها　　يا من إليه المشتكى والمفزَعُ
يا مَن خزائن رزقه فى قول كن　　امنن فان الخير عندك أجمع

ما لى سوى فقرى اليك وسيلةٌ   وبالافتقار اليك فقرى أدفع
ما لى سوى فزعى لبابك حيلةٌ   فلئن رددت فأىّ باب أقرع
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه   إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن يقنِّط عاصياً   الفضل أجزل والمواهب أوسع(١)

ولا تزال هذه الاستغاثة مما يتوسل به الصوفية وقد أثبتها مؤلفو مجموع الأوراد وأضافوا اليها هذا البيت فى الصلاة على الرسول

ثم الصــلاة على النبى وآله   خير الأنام ومن به يتشفع

واهتم بتخميسها ثلاثة من أهل الفضل وتخاميسهم محفوظة بدار الكتب المصرية .

٣ — أما الأحزاب فكثيرة جداً ، والفرق بين الورد والحزب أن الورد يُقرأ فى أوقات منظمة فيقال أوراد النهار وأوراد الليل ، أما الحزب فليس لقراءته وقت مخصوص ، وسنكتفى فى هذا الفصل بالكلام عن حزب البَر لأبى الحسن الشاذلى . وهو فى رأينا أفضل الأحزاب من حيث اللفظ والمعنى ، فهو فى لفظه تحفة فنية قليلة النظائر ، وهو فى معناه قوة روحية وعقلية نادرة المثال .

والشاذلى يبدأ حزب البر بالاستعاذة والبسملة وآيات من القرآن كما كثر من أنشأوا الأحزاب ثم يأخذ فى مخاطبة الله فيقول :

« اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شىء من جهالتى بعلمك ، فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك »

(١) انظر نفح الطيب ج ١ ص ٥٢٨

والمعنى فى هذه الفقرة فى غاية من القوة . فليتأمله القارىء . ثم يقول :

« اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فهنيئاً لمن عرفك فرضى بقضائك ، والويل لمن لا يعرفك ، بل الويل ثم الويل لمن أقرَّ بوحدانيتك ولم يرض بأحكامك » .

وهو فى هذه الفقرة يدعو إلى التفويض والامتثال . ثم يقول :

« اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا ، فكل عزّ يمنع دونك فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك ، وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقداً تصحبه أنوار محبتك » .

وهو فى هذه الفقرة يصرح بأن لا عزَّ إلا بالله ، ولا غنى إلا بالله ، ويرجو الحرمان من كل عز يمنع دون الله ، وكل غنى يحجب عن الله ، ثم يقول :

« اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم » .

وهذه الفقرة من خير ما أنتجت القرائح ، ولا يخفى ما فيها من قوة المعنى وطرافة الخيال .

والمؤلف يقول بعجز النفوس عن دفع الضر الذى تعرفه بما تعرف من وسائل الوقاية والمقاومة فكيف لا تعجز عن دفع ما لا تعرف بما لا تعرف . وهو بهذا يؤمن بالمخاوف الغيبيـــة ويسأل الله السلامة من الظاهرات والمستورات ، ثم يقول :

« وقد أمرتنا ونهيتنا ، والمدح والذم ألزمتنا ، فأخو الصلاح من أصلحته وأخو الفساد من أضللته ، والسعيد حقاً من أغنيته عن السؤال منك ، والشقى حقاً من حرمته مع كثرة السؤال لك ، فأغننا بفضلك عن سؤالنا منك ، ولا تحرمنا من رحمتك مع كثرة سؤالنا لك ، إنك على كل شىء قدير » .

و دقة المعنى فى هذه الفقرة لا تحتاج إلى بيان . ثم يقول :

« يا شـديد البطش يا جبار يا قهار يا حكيم نعوذ بك من شر ما خلقت ونعوذ بك من ظُـلمة ما أبدعت ، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدَّرت وأردت ، ونعوذ بك من شر الحسَّاد على ما أنعمت ، ونسألك عزّ الدنيـا والآخرة كما سألكه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، عزّ الدنيا بالإيمان والمعرفة ، وعزّ الآخرة باللقاء والمشاهدة ، إنك سميع قريب مجيب »

والمؤلف يكشف فى هذه الفقرة عن معان نفسية تمثل الخوف من مكنونات الوجود والفزع من شر الناس ، ويفصح عن أمله فى عز الدنيـــا والآخرة ، فعز الدنيا هو المعرفة والإيمان ، وعزّ الآخرة هو المشـاهدة واللقاء . أما المـال هنا والنعيم هناك فليس له حساب ، والمؤمن المتصوف لا يفكر فى النعيم المحسوس ، وانمـا يوجّـه رغائبه إلى النعيم المعقول .

ثم يقول :

« يا سميع يا قريب يا مجيب يا ودود . حُلْ بيننا وبين فتنة الدنيا والنساء والغفلة والشهوة وظلم العباد وسوء الخُلُق ، واغفر لنا ذنوبنا ، واقض عنا تبعاتنا ، واكشف عنا السوء ، ونجّنا من الغم واجعل لنا منه مخرجا ، إنك على كل شىء قدير » .

والمؤلف يصوِّر فى هذه الفقرة ما يخشاه من الفتن والمكاره الدنيوية .

ومن جيد التصوير لضعف النفس قوله :

« وزحزحنا فى الدنيا عن نار الشهوة ، وأدخلنا بفضلك فى ميادين الرحمة واكسنا من لدنك جلابيب العصمة ، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، ومُهَيمناً من أرواحنا ، ومسخِّرا مس أنفسنا ، كى نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا ، إنك كنت بنا بصيرا » .

والمهم فى هذه الفقرة هو الرجاء فى أن يجعل الله لنا ظهيراً من العقول ، ومهيمناً من الأرواح ، ومسخراً من النفوس .

ثم يقول :

« واذكرنا إذا غفلنا عنك بأحسن ما تذكرنا به إذا ذكرناك ، وارحمنا إذا عصيناك بأتم ما ترحمنا به إذا أطعناك . واغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها وما تأخر ، والطف بنا لطفاً يحجبنا عن غيرك ولا يحجبنا عنك ، إنك بكل شىء عليم » .

وصدر هذه الفقرة فى غاية من الحسن عند من يتأملون .

ولننظر قوله فى الخوف من النفس ومن خطرات المعصية :

(اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها . وذكِّرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها ، واحملنا على النجاة منها ومن التفكر فى طرائقها ، وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها ، واستبدلها بالكراهة لها والطعم لما هو بضدها ، وأفض علينا من بحر كرمك وعفوك حتى نخرج من الدنيا على السلامة من وبالها) .

والمؤلف فى هـذه الفقرة يصور ما تتعرض له النفس من الشوق إلى ما اجتنت من اللذات : فقد تتلفت النفس إلى لذاتها الماضية فيفسد عليها روح المتاب ، وهو يرجو أن يذكّره الله بالخوف منه قبل هجوم الخطرات ، خطرات المعاصى والذنوب

ثم يقول :

« واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من من أبغضت ، فالاحسان لا ينفع مع البغض منك ، والاساءة لا تضر مع الحب فيك ، وقد أبهمت علينا الأمر لنرجو ونخاف : فآمنْ خوفنا ، ولا تخيب رجاءنا ، وأعطنا سؤلنا ، فقد أعطيتنا الإيمان من قبل أن نسألك »

ولو مضينا لرأينا الشاذلى يدعو الله أن يهبه حقيقة الإيمان حتى لا يخاف غيره ، ولا يرجو غيره ، ولا يحِب غيره ، ولا يعبد شيئاً سواه ، ورأيناه يقول :

« فهأنذا عبدك إن تعذبنى بجميع ما علمت من عذابك فأنا به حقيق » .

فيعترف بأنه لا ينال الرحمة إلا بفضل من الله ، ثم يوفَّق كل التوفيق إذ يقول :

« فليس كرمك مخصوصاً بمن أطاعك وأقبل عليك ، بل هو مبذول بالسبق لمن شئت من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك . وليس من الكرم أن لا تحسن إلا لمن أحسن إليك وأنت المفضال الغنىّ ، بل الكرم أن تحسن إلى من أساء إليك وأنت الرحيم العلىّ ، كيف وقد أمرتنا أن نحسن إلى من أساء الينا ، فانت أولى بذلك منا » .

تلك إشارات إلى ما فى حزب البر من الآيات فليرجع إليه القارىء إن شاء . وليرجع إلى أمثاله من مختلف الأحزاب ففيها خُلُـق وفيها بيان . ومن موجبات الأسف أن لا يقرأ هذه الأحزاب غير العوام ، مع أن فيهـا من دقائق الاشارات ما لا يفهمه غير كبار الحكماء .

الوصايا والنصائح

في الوصايا ملامح من الأدب وأصول من الأخلاق — قدم هذا الفن في اللغة العربية — خصائص النصح عند الصوفية — نماذج من وصايا النساك — حرص الناس على وصايا الصوفية — الروح الغالب على هذه الوصايا هو الدعوة الى تطهير القلب ، والتنفير من الدنيا الفانية ، والتشويق الى دار البقاء .

---

١ — هذا الفن مزاج من الأدب والأخلاق : هو أدب لأن الناصحين كانوا يحرصون فى الأغلب على جمال الصورة ، فيسجعون ويزاوجون ، كقول علقمة بن لبيد :

(يا بنى ، اذا نزغتك الى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا صحبته زانك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك خصاصة مانك ، وإن قلت صدّق قولك ، وإن صلت شدّ صولك ، وإن مددت يدك بفضل مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن سألته أعطاك . وإن سكتّ عنه ابتداك ، وإن نزلت بك احدى الملمات آساك [١])

وهو أخلاق لأن الناصحين كانوا يفكرون أولاً وقبل كل شيء فى المعانى الخلقية ، وكانت النصائح لا تصدر الا عن أناس عرفوا بالحكمة وأصالة الرأى ، وكانت لاتوجه الاّ إلى ناس يراد توجيهم الى صالح الأعمال، ومن أجل ذلك أضفنا هذا الفصل الى قسم الأخلاق.

---

(١) عيون الأخبار ج ٣ ص ٤

٢ — والوصايا من أقدم الفنون التى عرفتها البيئات العربية ، والقرآن يحدثنا أن لقمان قال لابنه وهو يعظه :

« يا بنى ، لاتشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم .... يا بنى ، أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما اصابك ، إن ذلك لمن عزم الأمور . ولا تصعِّر خدَّك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير[١] »

وهى كذلك من أقدم الفنون التى عرفتها البيئات الفارسية ، ومن أشهر ما أثر عن الفرس فى هذا الباب كتاب أردشير بن بابك الى بنيه والملوك من بعده ، وهو كتاب طويل نقتبس منه هذه الفقرات :

« رشاد الوالى خير للرعية من خصب الزمان . الملك والدين توأمان لا قوام لأحدهما الاّ بصاحبه . . . واعلموا أنه ليس ينبغى للملك أن يعرف للعبّاد والنسّاك بأن يكونوا أولى بالدين منه . . . واعلموا أنكم ستبلون على الملك بالأزواج والأولاد والقرباء والوزراء والأخدان والأنصار والأعوان والمتقربين والندماء والمضحكين ، وكل هؤلاء الا قليلا أن يأخذ لنفسه أحب اليه من أن يعطى منها عمله ، وانما عمله سوق ليومه وذخيرة لغده . فنصيحته للملوك فضل نصيحته لنفسه ، وغاية الصلاح عنده صلاح نفسه ، وغاية الفساد عنده فسادها ، يقيم للسلطان سوق المودة ما أقام له سوق الأرباح والمنافع . . واعلموا أن لكل ملك بطانة ، ولكل رجل من بطانته بطانة ، ثم إن لكل امرىء

(١) سورة لقمان

من بطانة البطانة بطانة ، حتى يجتمع من ذلك أهل المملكة ، فاذا أقام الملك بطانته على حال الصواب فيهم أقام كل امرىء بطانته على مثل ذلك حتى يجتمع على الصلاح عامة الرعية (١)».

وقد ازدهر هذا الفن فى اللغة العربية ، ودخل فى أكثر أبواب الحياة ، فهناك وصايا الخلفاء والملوك وهى التى تسمى « العهود » ولكل طائفة وصايا ، ومن أشهر الوصايا الأدبية وصية عبد الحميد بن يحي التى وجهها الى الكتاب ، وهناك وصايا الآباء للأبناء وقد كتبت عنها ثلاث مقالات نشرتها فى البلاغ ، ثم تبينت أنها تحتاج الى درس أطول مما اشتملت عليه تلك المقالات الثلاث . . . وقد انتقل هذا الفن الى الفكاهة ، فرأينا نماذج كثيرة من وصايا الطفيليين الى أبنائهم ، وكل أولئك يبين كيف صار هذا الفن مما يتبارى فيه الكتاب والشعراء .

٣ — وقد تعبنا فى البحث عن الفروق الجوهرية التى يتميز بها هذا الفن فى كلام الصوفية ، ثم رأينا أن الفروق على كثرتها ترجع الى باب واحد ، فالوصايا فى الأغلب تدور حول الشؤون المعاشية ، وتطوف بالأصول من كرائم الخلال ، كقول الأوس بن حارثة :

« يا مالك ، المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلّد لا التبلّد ، واعلم أن القبر خير من الفقر ، ومن كرم الكريم الدفاع عن الحريم ، وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة ، والدهر يومان : يوم لك ويوم عليك ،

---

(١) كتاب أردشير خليق بأن يقرأ كله ، فليرجع اليه القارى فى شرح ابن ابى الحديد ج ٤ ص ١٥٦ — ١٥٨

فاذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر [١] » .

ولـكنها عند الصوفية تنصبّ على أمور ذوقية وروحية ، كأن يحدّث من يقول :

« أقبلنا قافلين من بلاد الروم نريد البصرة ، حتى إذا كنّا بين الرصافة وحمص سمعنا صائحاً يصيح من بين تلك الرمال — سمعته الآذان ولم تره العيون — يقول : يا مستور يا محفوظ ، اعقل فى ستر من أنت ؟ فان كنت لا تعقل من أنت فى ستره فاتق الدنيا فانها حمى الله ، فان كنت لا تعقل كيف تتقيها فصيّرها شوكا ثم انظر أين تضع قدميك منها [٢] » .

وكأن يقول بعض الزهاد :

« لا تغترنّ بطول السلامة مع تضييع الشكر ، ولا تُعمِلنّ نعمة الله فى معصيته ، فان أقل ما يجب لمهديها ألاّ تجعلها ذريعة إلى مخالفته ، واستدع شارد النعم بالتوبة ، واستدم الراهن منها بكرم الجوار ، واستفتح باب المزيد بحسن التوكل [٣] » .

وكأن يقول غَيلان :

« إن التراجع فى المواعظ يوشك أن يُذهب يومها ويأتى يوم الصاخّة ، كل الخلق يومئذ مصيخ يستمع ما يقال له ويُقضَى عليه ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، فاصمت اليوم عما يصمتك يومئذ ، وتعلّم ذلك حتى تعلمه ، وابتغه حتى تجده ، وبادر قبل أن تفجأك دعوة الموت ، فانها

---

(١) الأمالى ج ١ ص ١٠٢

(٢) عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٢

(٣) عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٤٤

عنيفة إلا بمن رحم الله ، فيقحمك فى دار تسمع فيها الأصوات بالحسرة والويل والثبور ، ثم لا يقالون ولا يستعتبون ، إنى رأيت قلوب العباد فى الدنيا تخشع لأيسر من هذا وتقسو عند هذا ، فانظر إلى نفسك أعبد الله أنت أم عدوه ، فيا رب متعبد لله بلسانه ، معاد له بفعله ، ذلول فى الانسياق إلى عذاب السعير فى أمنية أضغاث أحلام يعبرها بالأمانى والظنون ، فاعرف نفسك ، وسل عنها الكتاب المنير ، سؤال من يحب أن يعلم ، وعلم من يحب أن يعمل . . . ولا تكن كعلماء زمن الهرج إن وُعظوا أنفوا ، وان وَعظوا عنفوا (١) » .

فما الذى نراه فى أمثال هذه النصائح ؟ انها نفثات موجهة إلى غاية واحدة هى اصلاح القلوب ، والوسيلة هى التذكير بقارة الدنيا والترغيب فى الأعمال الصالحات ، فالزاهد حين ينصح لا يفكر فى المعاش على نحو ما يفكر المعنيون بالشؤون الدنيوية ، وانما يفكر فى إعداد النفس ليوم الحساب .

٤ — وكان يتفق للصوفية أن يسلكوا فى نصائحهم مسلك التعليل والتحليل ، كأكثر رجال الأخلاق ، فنرى منهم من يعجب حين يرى طالب الدنيا أجدَّ من طالب الآخرة ، وخائفها أتعب من خائف الآخرة ، وهو يعلم يقيناً أنه رُبَّ مطلوب فى الدنيا قد صار حين نِيلَ حتفاً لطالبه ، وأنه رب مخوف فيها قد لحق كَرَها بالهارب منه فصار حظاً له ، وأن المطلوب اليه من أهلها ضعيف عن نفسه ، محتاج إلى ربه ، مملوك عليه ماله ، مخزونة عنه

---

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٤٥

قدرته ، ثم يقضى بأن جماع ما يسعى له الطالب ويهرب منه الهارب أمران : أحدهما أجله والآخر رزقه ، ويعجب حين يرى الناس يختلفون فى أمر الآخرة ولا يختلفون فى أمر الدنيا ، وكيف لا يكون خائف الآخرة لربه كخائف الدنيا لسلطانه ، فيصبر على تجشم المكروه وتجرع غصص الغيظ ، ويتحفظ من أن يضمر له على غش أو يهم له بخلاف ، فان ابتُلى بالسخط من سلطانه فكيف حزنه ووحشته ، وإن أنس منه رضًا عنه فكيف سروره واختياله ، وإن قارف ذنبا اليه فكيف تضعضعه واستخذاؤه ، وإن ندبه لأمر فكيف خفته ونشاطه ، وإن نهاه عنه فكيف حذره واتعاظه ، وهو يعلم أن خالقه ورازقه يعلم سره وجهره ، ويراه فى متقلَّبه ومثواه ، ويعاينه فى فضائحه وعورته ، فلم يزعه عنها حياء منه ، ولا تقية له ، قد أمره فلم يأتمر ، وزجره فلم يزدجر ، وحذَّره فلم يحذر ، ووعده فلم يرغب ، وأعطاه فلم يشكر ، وستره فلم يزدد بالستر إلا تعرضاً للفضائح ، وكفاه فلم يقنع بالكفاية ، وضمن له فى رزقه ما هو فى طلبه مُشيح ، ويقّظه من أجله لما هو عنه لاه ، وفرّغه من العمل لما هو عنه بغيره مشغول[(١)] » .

ولنذكر أن هذا نوع من النصح الملفوف ، وهو من المذاهب التعليمية ، فقد كتب رجل من العباد خطاباً إلى صديق له يستفتيه فى تلك الدقائق التى لخصناها فى هذه الفقرة فأجابه الصديق بخطاب مطول بيّن فيه أن اليقين كالشجرة النابتة فى القلب أغصانها العمل وثمرتها الثواب ، ثم قال :

«وأما قولك : كيف لم يكن خائف الآخرة لربه كخائف الدنيا لسلطانه ،

(١) انظر ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ ج ٢ عيون الأخبار

فان الله عزَّ وجلَّ خلق الانسان ضعيفاً وجعله عَجولاً ، فهو لضعفه موكَّل بخوف الأقرب فالأقرب مما يكره ، وهو بعجلته موكل بحب الأعجل فالأعجل مما يشتهى ، وزاده حرصاً على المخلّص من المكروه ، وطلباً للمحبوب ، حاجته إلى الاستمتاع بمتاع الدنيا الذى لولا ما طبع عليه القلب من حبه ، وسهل على المخلوقين من طلبه ، لما انتفع بالدنيا منتفع ولا عاش فيها عائش[1] . »

والخطاب والجواب يرجعان إلى أصل واحد هو تعليل ما يغلب على النفس الإنسانية من الضعف

٥ — وأقدم النصائح الصوفية فى الإسلام نصائح على بن أبى طالب ، وهى كثيرة جداً ، نكتفى منها بقوله :

(إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا . ألا إن الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الأرض بساطاً والتراب فراشاً والماء طيباً ، ألا من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن الحرمات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات) [2])

وللقارىء أن يرجع إلى الجزء الأول من نهج البلاغة فينظر فى الصفحات ٢٦٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٧ ، ٣٩٢ ، ٤٣٣ فان فيها صوراً مختلفة من وصايا ابن أبى طالب ، وهى فى الأغلب ترمى إلى تطهير النفس ، وإصلاح القلب ، والتنفير من الدنيا الفانية ، والتشويق إلى دار البقاء

---

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٤٩ (٢) ص ٣٥٣

٦ — وأُثِرت عن الصوفية أجوبة تعليمية فى مسائل كثيرة ، فقد قيل للحسن البصرى : قد أكثر الناس تعلم الآداب ، فما أنفعها عاجلا وأوصلها آجلا ؟ فقال : التفقه فى الدين فانه يصرف اليك قلوب المتعلمين ، والزهد فى الدنيا فانه يقربك من رب العالمين ، والمعرفة بما لله عليك يحويها كمال الإيمان (١)

وسُئل ابن سيرين : أى الآداب أقرب إلى الله تعالى وأزلف للعبد عنده ؟ فقال : معرفة بربوبيته ، وعمل بطاعته ، والحمد لله على السراء ، والصبر على الضراء (١)

وكتب يوسف بن الحسين إلى بعض الحكماء :

(أشكو ركونى إلى هذه الدنيا وما أجد فى طبعى من الأخلاق التى لست أرضاها من نفسى لنفسى)

فكتب اليه

(بسم الله الرحمن الرحيم . وصل كتابك ، وفهمت ما ذكرت ، ومخاطبك أكرمك الله شريكك فى شكواك ، ونظيرك فى بلواك . إن رأيت أن تديم الدعاء وقرع الباب فانه من قرع الباب ولم يعجز عن القرع دخل ، وإن تهيَّأ لك ما تريد من الصفاء والطهارة فدع ما أنت فيه من البلاء من اقتراف مساوىء لا تجدى عليك منفعة فى دينك ولا دنياك ، وتجنب قرب من لا تأمن على نفسك فى مواصلة الغفلة والبطالة ، واستعن على ذلك كله بالقناعة والتجزِّى ، وسله أن يمنَّ عليك بتوبة طهرى لا عملى ، والسلام (٢)) .

---

(١) اللمع ص ٢٤٢ (٢) ص ٢٣٦ ، ٢٣٧

وكتب بعض اخوان سرىّ السقطى اليه

(يا أخى ، أوصيك بتقوى الله الذى يسعد بطاعته من أطاعه ، وينتقم بمعصيته من عصاه ، فلا تدعونّك طاعته إلى الأمن من عذابه ، ولا تدعونّك معصيته إلى الاياس من رحمته ، جعلنا الله واياكم حذرين من غير قنوط ، وله راجين من غير اغترار ، والسلام [١])

٧ — وقد نظرت فرأيت للصوفية رسائل كثيرة تجرى مجرى النصح ، وتعيّن مقاصدهم فى الحياة ، وتبيِّن إلى أى حد كانوا يهتمون بالأخلاق ، ولنثبت هنا رسالة الجنيد إلى أبى بكر الكسائى ، ففيها كثير من الاشارات التى توضح كيف كانوا يتواصون بالأدب والرفق

(أخى ، أين محلك عند تعطيل العشار ، وأين دارك وقد خربت الديار ، وأين منزلك والمنازل قاع صفصف قفار ، وأين مكانك والأماكن عواف دوارس الآثار ، وماذا خبرك عند ذهاب جوامع الأخبار ، وفيم نظرك عند اصطدام محاضر النظار ، وفيم فكرك وليس بحين نظر ولا افتكار ، وكيف هدوءك على ممرّ الليل والنهار ، وكيف حذرك عند وقوع فواجع الأقدار ، وكيف صبرك ولا سبيل إلى عزاء ولا اصطبار . فابك الآن إن وجدت سبيلا إلى البكاء ، بكاء الوالهة الحزينة الموجعة الثكلى بفقد أعزة الألاّف ، وفناء أجلّة الأخلاف ، وإبادة ما مضى من الاكتناف ، وذهاب مشايخ الاعتطاف ، وورود بداية الاختطاف ، وروادف عواصف الارتجاف وتتابع قواصف الانتساف ، وبواهر قواهر الاعتكاف ، وثواقب ملامح

(١) اللمع ص ٢٣٨

الاعتراف ، فإلى أين موئلك ؛ وإلام يبلغ مصدرك ، والأحلام متمزقة ، والقلوب متصدعة ، والعقول منخلعة ، والأنباء كلها مرتفعة ، وأنت فى أوابد مندمسة ، ونجوم منطمسة ، وسبل ملتبسة ، قد أضلّك فى اختلاف مناهجها ظلماؤها ، وانطبقت عليك أرضها وسماؤها . ثم أفضى بك ذلك إلى لجة اللجى والبحر الزاخر الغامر المختلج ، الذى كل بحر دونه أو لجّة ، فهو فيه كتفلة أو مجّة ، فقد قذف بك فى كثيف أمواجه ، وتلاطم عليك بعظيم هوله وارتجاجه ، فمن مستنقذك من متلفات المهالك ، أو مخرجك مما هنالك ؟

كتابى إليك ، أبا بكر ، وأنا أحمد الله حمداً كثيراً ، وأسأله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، وصل إلىَّ منك كتب فهمت ما ذكرت فيها ولم يمنعنى من إجابتك عليها ما وقع فى وهمك ، وشقّ علىّ ما ذكرت من غمك ، وليس حالك عندى حال معتوب عليه، بل حالك عندى حال معطوف عليه ؛ وبحسبك من بلائك أن أكون سبباً للزيادة فى البلاء عليك ، وإنى عليك لمشفق ، وانما منعنى من مكاتبتك أنى حذرت أن يخرج مافى كتابى اليك إلى غيرك بغير علمك ، وذلك أنى كتبت منذ مدة كتابا إلى أقوام من أهل أصبهان ففتح كتابى وأخذت نسخته ، واستعجم بعض ما فيه على قوم فأتعبنى تخلصهم ، ولزمنى من ذلك مؤونة عليهم ، وبالخلق حاجة إلى الرفق ، وليس من الرفق بالخلق ملاقاتهم بما لا يعرفون ، ولا مخاطبتهم بما لا يفهمون ، وربما وقع ذلك من غير قصد اليه ، ولا تعمد له ، جعل الله عليك واقية وجُنّة ، وسلمنا واياك ، فعليك رحمك الله بضبط لسانك ، ومعرفة أهل زمانك ، وخاطب الناس بما يعرفون ودعهم مما لا يعرفون ، فقلَّ من جهل شيئاً إلاَّ عاداه ، وانما الناس كالابل

المائة ليس فيها راحلة ، وقد جعل الله تعالى العلماء والحكماء رحمة من رحمته وبسطها على عباده ، فاعمل على أن تكون رحمة على غيرك إن كان الله قد جعلك بلاءً على نفسك ، واخرج إلى الخلق من حالك بأحوالهم ، وخاطبهم من قلبك على حسب مواضعهم ، فذلك أبلغ لك ولهم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (١) »

وانما نقلنا هذا الخطاب على طوله لأنه وثيقة صوفية ، والجنيد يبتدىء خطابه بالتذكير والتخويف ، ويشير إلى ما ينتظر المتخلفين من الهول والفزع ثم يترفق فيذكر أنه لم ينقطع عن مكاتبة رفيقه إلا خوفاً من أن يقع كتابه فى يد أناس لا يفقهون ما يقول ، ويحكى أنه كتب مرة إلى أقوام من أهل أصبهان ففتح كتابه وأخذت نسخته واستعجم بعض ما فيه على قوم فأتعبه التخلص من ملاحقتهم بالقيل والقال ، وكثرة السؤال . وفى هذه النقطة يظهر شىء من أحوال الصوفية : فقد كانوا يتكاتبون بما يشقّ فهمه على عامة الناس .

ثم ينتقل الجنيد فينصح رفيقه بهذه الكلمات :

« فعليك رحمك الله بضبط لسانك ، ومعرفة أهل زمانك ، وخاطب الناس بما يعرفون ، ودعهم مما لا يعرفون ، فقلّ من جهل شيئاً إلا عاداه »

ونشهد بأن هذه هى السياسة العليا ، وهى تصلح للصوفية وغير الصوفية ولكن الصوفية اليها أحوج ، لأنهم يعيشون فى أودية من المعانى لا يفطن اليها إلا القليل .

وقد رأى الجنيد أن العلماء والحكماء رحمة من رحمة الله على عباده ، ثم توجّه إلى رفيقه بهذا النصح الحصيف :

---

(١) اللمع ص ٢٤١

« فاعمل على أن تكون رحمة على غيرك ، إن كان الله قد جعلك بلاءً على نفسك »

وهو بذلك يوصيه أن يجمع بين حالين : حال الرفق مع الناس ، وحال العنف مع النفس

٨ — ولنقيد أن الوصية كانت تطلب كثيراً جداً من الصوفية ، فقد كان الناس يرونهم مظنّة الخير والرشد ، وينتظرون منهم كل جميل . ومن أمثلة الشغف بنصائحهم ما وقع لبشر الحافى وقد ظفر برؤية علىّ الجرجانى على عين ماء . قال بشر : فهرب منى وقال : بذنب منى رأيت اليوم انساناً ! فعدوت خلفه وقلت : أوصنى ، فقال : عانق الفقر ، وعاشر الصبر ، وعادِ الهوى ، وعاقّ الشهوات (١)

وقد عقد الطوسى فى كتاب اللمع فصلا لوصايا الصوفية ، وهو فصل جيِّد تكفينا منه الإشارة إلى قول أبى سعيد الخراز لبعض أصحابه:

« احفظ وصيتى ، أيها المريد ، وارغب فى ثواب الله تعالى ، وهو أن ترجع إلى نفسك الخبيثة فتذيبها بالطاعة وتميتها بالمخالفة ، وتذبحها بالاياس فيما سوى الله ، وتقتلها بالحياء من الله عز وجل ، ويكون الله حسبك ، وتسارع إلى جميع الخيرات ، وتعمل فى جميع المقامات وقلبك وجلٌ أن لا يقبل منك (٢) »

وقول ذى النون :

« يا أخى ، اعلم انه لا شرف أعلا من الإسلام ، ولا كرم أعزُّ من

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٢٩ (٢) اللمع ص ٢٦٤

التقى ، ولا عقل أحرز من الورع ، ولا شفيع أنجح من التوبة ، ولا لباس أجلّ من العافية ، ولا وقاية أمنع من السلامة ، ولا كنز أغنى من القنوع ، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت ، ومن اقتصر على بُلغة الكَفاف فقد انتظم الراحة ، والرغبة مفتاح التعب ، ومطية النصَب ، والحرص داع إلى التهجم فى الذنوب ، والشره جامع لمساوىء العيوب ، و رُب طمع كاذب ، وأمل خائب ، ورجاء يؤدى إلى الحرمان ، وأرباح تؤول إلى الخسران [1] »

(١) اللمع ص ٢٦٥

وصايا ذى النون المصرى

حياة ذى النون — شواهد من وصاياه

١ — من الصوفيـة من غلب عليه هذا الفن ، وهو إسداء الوصايا والنصائح ، من هؤلاء ذو النون المصرى ، وهو رجل نشأ فى أخميم ، وتوفى بالجيزة سنة ٢٤٦ (١) ، وكان ذو النون من أهل العلم ، ولـكن غلب عليه التصوف فشاعت عنه أمور دعت الناس إلى اتهامه بالزندقة ، وسعى به قوم إلى المتوكل فاستحضره من مصر إلى بغداد ، فسيق مقيداً مغلولا ، وسافر معه جماعة من أهل مصر يشهدون عليه ، فلما دخل على المتوكل وعظه فبكى وردّه مكرماً ، وعاد خصومه خاسئين .

قال اسحق بن ابراهيم السرخسى : سمعت ذا النون وفى يده الغُل ، وفى رجله القيد ، وهو يساق إلى المطبق والناس يبكون حوله وهو يقول : هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياه ، وكل فعـاله عذب حسن طيب ، ثم أنشد :

لك من قلبىَ المكانُ المصونُ　　كل لوم علىَّ فيك يهونُ
لك عزم بأن أكون قتيلا　　فيك والصبر عنك ما لا يكون(٢)

وكان ذو النون يهيجه السماع ، فقد حدثوا أنه لما دخل بغداد اجتمع

(١) كذلك ذكر ياقوت فى معجم البلدان عنـد الـكلام على أخميم ، ويذكر صاحب وفيات الأعيان أنهم اختلفوا فى موته فقيل سنة خمس وأربعين وقيل سنة ست وأربعين وقيل سنة ثمان وأربعين (ج ١ ص ١٨١)

(٢) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٧٩

اليه الصوفية ومعهم قوّال فابتدأ ينشد :

صغير هواك عذبنى ... فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت من قلبي ... هوى قد كان مشتركا
أما ترثى لمكتئب ... إذا ضحك الخلىّ بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر منه(١)

ومن كلامه : الصوفية هم قوم آثروا الله على كل شىء فآثرهم على كل شىء

والكلام عن ذى النون كثير جداً ، ويكفى أن نحيل القارىء على ترجمته فى الجزء الثانى من كتاب (جامع كرامات الأولياء) للنابلسى فقد جمع أكثر أخباره وكراماته ، وهو شخصية جذابة تستحق الدرس ، ولكن منهج البحث لا يسمح بأكثر من هذه الفقرات .

٢ — ونصائح ذى النون كثيرة جداً ، وهى فى فنون مختلفة من الأخلاق ونحن ذاكرون طائفة قليلة تبين مذهبه فى القول ، وطريقته فى إصلاح القلوب .

الوصية الأولى

« ليس بذى لب من كاس(٢) فى أمر دنياه ، وحمق فى أمر آخرته ، ولا من سفه فى مواطن حلمه ، وتكبر فى مواطن تواضعه ، ولا من فقد منه الهوى فى مواضع طمعه ، ولا من غضب من حق إن قيل له ، ولا من زهد فيما يرغب العاقل فى مثله ، ولا من رغب فيما يزهد الأكياس فى مثله ، ولا من استقل الكثير من خالقه عز وجل ، واستكثر قليل الشكر من نفسه

(١) نشر المحاسن الغالية ج ٢ ص ٢٠٥

(٢) من الكياسة وهى العقل

ولا من طلب الانصاف من غيره لنفسه ولم ينصف من نفسه غيره ، ولا من نسى الله فى مواطن طاعته ، وذكر الله فى مواطن الحاجة إليه ، ولا من جمع العلم فعرف به ثم آثر عليه هواه عند متعلمه ، ولا من قلّ منه الحياء من الله على جميل ستره ، ولا من أغفل الشكر عن إظهار نعمته ، ولا من عجز عن مجاهدة عدوه لنجاته إذا صبر عدوه على مجاهدته ، ولا من جعل مروءته لباسه ، ولم يجعل أدبه وورعه وتقواه لباسه ، ولا من جعل علمه ومعرفته تظرفاً وتزييناً فى مجلسه » .

وهذه الوصية نقلها ابن عربى فى الفتوحات [1] ويظهر أنه قالها فى أحد المجالس ، بدليل قوله :

« ثم قال : أستغفر الله ، إن الكلام كثير ، وإن لم تقطعه لم ينقطع ، ثم قام وهو يقول : لا تخرجوا من ثلاثة : النظر فى دينكم بايمانكم ، والتزود لآخرتكم من دنياكم ، والاستعانة بربكم فيما أمركم به ، ونهاكم عنه » .

الوصية الثانية

« من نظر فى عيوب الناس عمى عن عيوب نفسه ، ومن اعتنى بالفردوس والنار شغل عن القيل والقال ، ومن هرب من الناس سلم من شرهم ، ومن شكر المزيد زيد له [2] » .

الوصية الثالثة

واعتل رجل من اخوان ذى النون فكتب إليه أن يدعو له فكتب إليه ذو النون :

---

(١) ج ٤ ص ٦٦٥ (٢) الفتوحات ج ٤ ص ٦٦٦

« سألتنى أن أدعو الله لك أن يزيل عنك النعم ، واعلم يا أخى أن العلة مجازاة يأنس بها أهل الصفاء والهمم والضياء . . . ومن لم يعدّ البلاء نعمة فليس من الحكماء ، ومن لم يأمن الشفيق على نفسه فقد أمن أهل التهم على أمره ، فليكن معك يا أخى حياء يمنعك عن الشكوى . والسلام [1] »

ومن هذه الشواهد القليلة نعرف اتجاه ذى النون فى فهم الأخلاق . فهو رجل يرى الخير كل الخير فى الأنس بطاعة الله ، ويرى المغنم الحق فى صفاء القلوب .

(١) الفتوحات ج ٤ ص ٦٩٠

الشجاعة الأدبية

حب الدنيا هو أصل الجبن — شجاعة بنان الحمال — أعرابى ينصح سليمان بن عبد الملك — شعيب بن حرب والرشيد — الفضيل بن عياض — العمرى — ابن السماك — صالح ابن عبد الجليل — عمرو بن عبيد — أحزاب المعارضين وسياستهم فى اختراع النصائح — شجاعة الاوزاعى فى مواقف تحكمت فيها الاحقاد السياسية — خلاصة البحث .

---

١ — الشجاعة من أشرف مناقب الرجال ، وهى من أظهر شمائل الصوفية ، وإنما كان الصوفية من الشجعان لأنهم استهانوا بالدنيا ، وزهدوا فى طيبات العيش . وحب الدنيا والعيش أصل الجبن والخضوع ، وما أحب رجل الدنيا إلا ذل ، ورأى السلامة فى التملق والرياء .

وكيف لا يشجُع من يتخلق بأدب أبى حازم إذ يقول : إنما بينى وبين الملوك يوم واحد ، أما أمس فلا يجدون لذته ، وأنا وهم من غد على وجل ، وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون اليوم ؟ (١)

ولولا الشجاعة ما استطاع بنان الحمال أن يُقْدِم على ما فعل يوم قام إلى وزير خُمارَوَيْه فأنزله عن دابته ، وكان نصرانياً ، وقال : لا تركب الخيل ويلزمك ما هو مأخوذ عليكم فى ملتكم (٢)

ولولا الاستهانة بالعواقب ما استطاع رجل أن يقول لسليمان بن عبد الملك :

« سأطلق لسانى بما خرِستْ عنه الألسن ، تأدية لحق الله تعالى ، إنه قد

---

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٢ (٢) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٢١

اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم . وخافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة ، وسلم للدنيا ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فانهم لم يألوا الأمانة تضييعاً ، والأمة كسفاً وخسفاً ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنيا غيره[1] » .

٢ — وكان الصوفية يحسبون أنفسهم مسئولين عن تذكير الملوك ، يدل على ذلك قول شعيب بن حرب :

« بينا أنا فى طريق مكة إذ رأيت هرون الرشيد فقلت لنفسى : قد وجب عليك الأمر والنهى ، فقالت لى : لا تفعل ، فان هذا رجل جبار ، ومتى أمرته ضرب عنقك ، فقلت لنفسى : لا بد من ذلك ، فلما دنا منى صحت : يا هرون ! قد أتعبت الأمة . وأتعبت البهائم ! فقال : خذوه ! فأدخلت عليه وهو على كرسى وبيده عمود يلعب به ، فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من أفناء الناس ، فقال : ممن ؟ ثكلتك أمك ! قلت : من الأبناء ، قال : فما حملك على أن تدعونى باسمى ؟ قال شعيب : فورد على قلبى كلمة ما خطرت لى قط على بال فقلت له : أنا أدعو الله باسمه فأقول : يا ألله ، يارحمن ، ولا أدعوك باسمك؟ وماتنكر من دعائى باسمك ؟ وقد رأيت الله سمَّى فى كتابه أحب الخلق اليه محمداً ، وكنى أبغض الخلق اليه أبا لهب فقال : تبّت يدا أبى لهب ! فقال هرون أخرجوه : فأخرجونى[2] » .

---

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٢٣٣

(٢) تاريخ بغداد ج ٩ ص ٢٣٩

وشعيب هذا صادق فيما حدَّث به ، وهذا الصدق يرشدنا إلى ما كان يُعرف عن الصوفية أحياناً من الحذلقة والتكلف ، وإلا فما معنى هذه التهمة الجوفاء : يا هرون ! قد أتعبت الأمة ، وأتعبت البهائم !

وقد اتفق أن خطب المنصور فحمد الله ومضى فى كلامه ، فلما انتهى إلى (أشهد أن لا إله إلا الله) وثب رجل من أقصى المسجد فقال : أذكّرك من تذكر ! فقال المنصور : سمعاً لمن فهم عن الله وذكّر به ، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عصياً ، وأن تأخذنى العزة بالإثم ، لقد ضللتُ إذن وما أنا من المهتدين ، وأنت والله أيها القائل ما أردت بها الله ، ولكن حاولت أن يقال قام فقال فعوقب فصبر، وأهونْ بقائلها لو هممت ، فاهتبلْها ويلك إذا عفوت . وإياكم معشر الناس وأختها ، فان الموعظة علينا نزلت ، ومن عندنا انبثّت ، فردّوا الأمر إلى أهله يُصدروه كما أوردوه (١)

وهذا الخبر يفهمنا أنه كانت هناك وثبات للواعظين ، وأن الخلفاء كانوا يعرفون ذلك ، وأنه كان من لذات بعض النـــاس أن يقال : قام فقال فعوقب فصبر

والحق أنه يعسر الاطمئنان إلى صدق الشجاعة الأدبية فى جميع الأحوال فهى فى بعض الأحيان زهو وخيلاء ، والإثم فيهـا أكبر من النفع ، وهى كسائر الفضائل عرضة للرياء ، والرياء يمحق جلائل الأعمال .

٣ — ومن المؤكد أن الصوفية لم يكونوا جميعاً مرائين ، فلأكثرهم مقامات جمعت بين الشجاعة والصدق ، ومن شواهد ذلك ما صنع الفضيل

---

(١) عيون الاخبار ج ٢ ص ٣٣٦

ابن عياض مع الرشيد ، فقد ذهب الرشيد لزيارته ليلاً مع الفضل بن الربيع فلما وصلا إلى بابه سمعاه يقرأ (أمْ حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم . ساء ما يحكمون) فقال الرشيد للفضل : إن انتفعنا بشيء فبهذا . فناداه الفضل : أجب أمير المؤمنين . فقال وما يعمل عندى أمير المؤمنين ؟ قال الفضل فقلت : سبحان الله ! أما له عليك طاعة ؟ فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف أمير المؤمنين قبلى اليه . فقال : يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل ! فقلت فى نفسى : ليكلمنّـه الليلة بكلام من قلب تقىّ . فقال له : خذ فيما جئناك له رحمك الله ! فقال له : إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظى ورجاء بن حيوة فقال لهم : إنى قد ابتُـليت بهذا البلاء فأشيروا علىّ ، فعدّ الخلافة بلاءً ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة . فقال له سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة من عذاب الله فَصُمْ عن الدنيا وليكن فِطرك منها الموت . وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ابناً ، فوقّر أباك ، وأكرم أخاك ، وتحنن على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم متْ إذا شئت

وإنى أقول لك يا هرون : إنى أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزلّ فيه الأقدام ، فهل معك رحمك الله من يشير بمثل هذا ؟ فبكى هرون بكاءً شديداً حتى غشى عليه

قال الفضل فقلت : ارفق بأمير المؤمنين ! فقال : تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا ؟

ثم أفاق . فقال له : زدنى رحمك الله . فقال له : يا أمير المؤمنين بلغنى أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا إليه ، فكتب إليه : يا أخى أذكِّرك بسهر أهل النار فى النار ، مع خلود الأبد . واياك أن يُنصَرف بك من عند الله عز وجل فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء . فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبى بكتابك لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل .

قال : فبكى هرون بكاءاً شديداً ثم قال له : زدنى يرحمك الله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن العباس عم المصطفى صلى الله عليه وسلم جاء إلى النبى فقال : يا رسول الله ، أمِّرْنى على إمارة ، فقال له : يا عم ، إن الامارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فان استطعت أن لا تكون أميراً فافعل

فبكى هرون بكاء شديداً ، وقال له : زدنى رحمك الله ، فقال : يا حسن الوجه ، أنت الذى يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ، فان استطعت أن تقى هذا الوجه فافعل ، وإياك أن تصبح أو تمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك .

فبكى هرون وقال له : هل عليك دَين ؟ فقال : نعم ، دين لربى لم يحاسبنى عليه ، فالويل لى إن سألنى والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم أُلْهَمْ حجتى . قال الرشيد : انما أعنى دَين العباد . فقال الفضيل : إن ربى لم يأمرنى بهذا ، وقد قال عز وجل : إن الله هو الرزاق . فقال له الرشيد : هذه ألف

دينار خذها وأنفقها على عيالك ، وتقوَّ بها على عبادتك ، فقال : سبحان الله ! أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئنى بمثل هذا[١] ؟

ومن طريف المواقف ما حدَّث به سعيد بن سليمان قال :

كنت بمكة والى جانبي عبد الله بن عبد العزيز العمرى وقد حج هرون الرشيد وقال له إنسان : يا أبا عبد الله ! هو ذا أمير المؤمنين يسعى ، وقد أُخْلِيَ له المسعى ، قال العمرى للرجل : لاجزاك الله عنى خيراً ، كلفتنى أمراً كنت عنه غنيا . ثم قام فتبعه ، فأقبل هرون الرشيد من المروة يريد الصفا ، فصاح به : يا هرون ! فلما نظر اليه قال : لبيك يا عمرىّ ! قال : إرق الصفا ، فلما رقاها قال : إرم بطرفك الى البيت ، قال هرون : قد فعلت . قال : كم هم ؟ قال : ومن يحصيهم ؟ قال فكم فى الناس مثلهم ؟ قال : خلق لا يحصيهم إلا الله ! قال : اعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يُسأل عن خاصة نفسه ، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ! — فبكى هرون — فقال العمرى : وأخرى أقولها . قال : قل ياعم ! قال والله إن الرجل ليسرف فى ماله فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن أسرف فى مال المسلمين !

قال البغوى : فبلغنى أن هرون الرشيد كان يقول : إنى لأحب أن أحج كل سنة ما يمنعنى إلا رجل من ولد عمر يسمعنى ما أكره[٢]

---

(١) انظر الفتوحات المكية ج ٤ ص ٦٧٤ ولهذا الحديث بقية تصور العتاب بين الفضيل وبين زوجته ، فقد ساءها أن يرفض المال ، فقال لها : مثلى ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه وأكلوا لحمه

وقد ورد هذا المقام فى الكشكول ص ٢٣٥ بصورة تختلف عن هذه الصورة بعض الاختلاف

(١) الفتوحات المكية ج ٤ ص ٦٩٣

وقريب من هذا المقـــام فى الخشونة والصدق ما كان بين أبى حازم وسليمان بن عبـــد الملك ، فقد حجّ سليمان وبعث الى أبى حازم حين قدم المدينة للزيارة ، فلما دخل قال : تكلم ، يا أبا حازم ، قال : فيم أتكلم ، يا أمير المؤمنين ؟ قال : فى المخرج من هذا الأمر . قال : يسيرٌ ، إن فعلته ! قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء الا من حلهـا ، ولا تضعها الا فى أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك ! قال : عظنى يا أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصر اليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك ، بمثـل ما صار اليك . قال : يا أبا حازم ، أشر علىّ ، قال : انما انت سوق ، فما نَفَـق عندك حمل اليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت ! قال : ما لك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع باتيانك ، يا أمير المؤمنين ، إن أدنيتنى فتنتنى ، وإن أقصيتنى أخزيتنى ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندى ما أخافك عليه ! قال : فارفع الينا حاجتك . قال : قد رفعتها الى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت (١)

وكان فى الزهاد من يُـغرب فى الوعظ حتى يصل الى الاسفاف فى الصورة واللفظ ، فقد قال الرشيد لابن السماك : عظنى — وأتى بماء ليشربه — فقال : يا أمير المؤمنين ! لو حبستْ عنك هذه الشربة ، أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم ! قال : فلو حبس عنك خروجها أكنت تفديهـا بملكك ؟ قال : نعم ! قال : فما خير فى ملك لا يساوى شربة ولا بولة (١)

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٠٦

وهذه الغلظة أعقبت بكلمات أطيب من المسك ، فقد قال الرشيد : يا ابن السماك ، ما أحسن ما بلغنى عنك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لى عيوباً لو اطلع الناس منها على عيب واحد ما ثبتت لى فى قلب واحد مودّة ، وإنى لخائف فى الكلام الفتنة ، وفى السر الغرة ، وإنى لخائف على نفسى من قلة خوفى عليها (١)

٤ — والواقع أن مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك تدل على أمرين : الأول شجاعة أولئك الزهاد ، وقدرتهم على الجهر بكلمة الحق ، والثانى صلاحية بعض الخلفاء والملوك لاستماع نصح الناصحين من أهل البر والتقوى ، وإقبالهم على من ينهاهم عن المنكر ويأمرهم بالمعروف ، يدل على ذلك قول صالح بن عبد الجليل بين يدى المهدى :

« إنه لما سهل علينا ما توعّر على غيرنا من الوصول إليك ، قمنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم باظهار ما فى أعناقنا من فريضة الأمر والنهى عند انقطاع عذر الكتمان ، ولا سيما حين اتسمت بميسم التواضع ، ووعدت الله وحملة كتابه إيثار الحق على ما سواه ، فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التمحيص ليتمّ مؤدّينا على موعود الأداء ، وقابلُنا على موعود القبول ، أو يزيدنا تمحيص الله ايانا فى اختلاف السر والعلانية ويحلّينا حلية الكذابين ، فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل ، وأشد منه عذاباً من أقبل إليه العلم وأدبر عنه . ومن أهدى الله إليه علماً فلم يعمل به فقد رغب عن هدية

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٠٦

الله وقصّر بها ، فاقبل ماأهدى الله اليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل لاقبول سمعة ورياء ، فانه لايعدمك منا إعلام لما تجهل ، أو مواطأة على ماتعلم ، أو تذكير من غفلة . . . أطلع الله على قلبك ما ينوّرد من إيثار الحق ومنابذة الأهواء (١) »

وكلام صالح هذا فيه تصريح بأن الزهاد كان يسهل عليهم ما يتوعّر على غيرهم من الوصول الى الخلفاء ، وفيه كذلك تصريح بأن من المواعظ ما كان يقبله الخلفاء قبول سمعة ورياء ، ومعنى هذا أن تقريب الزهاد كان من السياسة قبل أن يكون من الدين ، أو هو مزاج من السياسة والدين ، وهذا الملحظ قد يحط من شجاعة الزهاد وإخلاص الخلفاء ، ولكن لا ريب فى أن هذه المظاهر فيها خير ملموس ، والزهاد لا يصلون إلى هذه المواطن إلا بعد أن يكونوا استطاعوا تثبيت سلطتهم الروحية ، والخلفاء لا يستقدمون الزهاد ليسمعوا مواعظهم إلا وفى قلوبهم شىء من عناصر الرشد وأصول الاهتداء .

٥ — غير أن هذه الوصولية السياسية لم تطَّرد فى جميع المقامات ، فقد كان المنصور يعرف عمرو بن عبيد قبل أن يتولى الخلافة ، وكان يعتقد أنه على جانب عظيم من الصدق والاخلاص ، فكان يستقدمه لينتفع برأيه ، وإن كان ذلك لايمنع أنه كان يسرُّ بأن يقال إنه انتفع بمواعظ عمرو بن عبيد ، والضمائر لا يعرفها إلا علام الغيوب .

ولنسق حديث ابن عبيد مع المنصور ، فهو نموذج فى الأدب وفى الاخلاق :

---

(١) انظر العقد الفريد ج ١ ص ٣٠٤ وعيون الاخبار ج ٢ ص ٣٣٣ وقد عدلنا الجملة الأخيرة بعض التعديل

حدَّث اسحق بن المفضل الهاشمى قال : إنى لعلى باب المنصور يوماً والى جنبى عُمارة بن حمزة إذ طلع عمرو بن عبيد على حمار ، فنزل عن حماره ثم دفع البساط برجله وجلس دونه ، فالتفت إلىّ عُمـارة وقال : لا تزال بصرتكم ترمينا منها بأحمق ! فما فصل كلامه من فيـه حتى خرج الربيع وهو يقول : أبو عثمان عمرو بن عبيد ، قال : فوالله ما دل على نفسه حتى أرشد إليه ، فأتكأه يده ثم قال له : أجب أمير المؤمنين ، جعلت فداك ! فمر متكئاً عليـه ، فالتفتُّ الى عمـارة فقلت له : ان الرجل الذى استحمقته قد أدخل وتُركنا ، فقال : كثيراً ما يكون ذلك ، فأطال اللبث ، ثم خرج الربيع وهو متوكىء عليه والربيع يقول : يا غلام ، حمار أبى عثمان ، فما برح حتى أتى بالحمار ، فأقره على سرجه ، وضمّ اليه نشر ثوبه ، واستودعه الله . فأقبل عمارة على الربيع فقال : لقد فعلتم اليوم بهـذا الرجل ما لو فعلتموه بولىّ عهدكم لقضيتم ذمامه ! قال : فما غاب عنك مما فُعِل به أكثر وأعجب ! قال عمارة : فان اتسع لك الحديث فحدثنا ، فقـال الربيـع : ما هو إلا أن سمع الخليفة بمكانه فما أمهل حتى أمر بمجلس ففرش لبوداً ، ثم انتقل اليه والمهدى معه عليه سواده وسيفه ، ثم أذن له . فلما دخل عليه سلم بالخلافة فردّ عليه ، وما زال يدنيه حتى أتكأه فخذه وتحفى به ، ثم سأله عن نفسه وعن عياله يسميهم رجلا رجلا وامرأة امرأة ، ثم قال : يا أبا عثمان ، عظنا . فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم (والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر) ومرّ فيها الى آخرها وقال : إن ربك يا أبا جعفر لبالمرصاد . قال : فبكى المنصور بكاءاً شديداً كأنه لم يسمع تلك الآيات الا تلك الساعة

ثم قال : زدنى . فقال : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه بيعضها، واعلم أن هذا الأمر الذى صار اليك انما كان فى يد من كان قبلك ثم أفضى اليك ، وكذلك يخرج منك الى من هو بعدك ، وإنى أحذّرك ليلة تمخض صبيحتها عن يوم القيامة . قال : فبكى أشد من بكائه الأول حتى رجف جنباه . وفى رواية أخرى أنه لما انتهى الى آخر السورة قال : يا أمير المؤمنين ، إن ربك لبالمرصاد لمن عمل مثل عملهم أن ينزل به مثل ما نزل بهم ، فاتق الله فان من وراء بابك نيراناً تأجج من الجور ، ما يعمل فيها بكتاب الله ، ولا بسنة رسوله ، فقال : يا أبا عثمان ، إنا لنكتب اليهم فى الطوامير نأمرهم بالعمل بالكتاب ، فان لم يفعلوا فما عسى أن أصنع ؟ فقال له : مثل أذن الفأرة يجزيك من الطوامير، الله ، أتكتب اليهم فى حاجة نفسك فينفذونها وتكتب اليهم فى حاجة الله فلا ينفذونها ؟ والله لو لم ترض من عمالك الا رضا الله إذن لتقرب اليك من لا نية له فيه

وكان فى المجلس سليمان بن مجالد فقال : رفقاً بأمير المؤمنين فقد أتعبته منذ اليوم

فقال له عمرو بن عبيد : بمثلك ضاع الأمر وانتشر ، لا أبالك ، وماذا على أمير المؤمنين أن بكى من خشية الله !

وفى رواية أخرى أن سليمان بن مجالد لما قال له ذلك رفع عمرو رأسه فقال له : من أنت ؟ فقال أبو جعفر : أولا تعرفه ، يا أبا عثمان ؟ قال : لا ، ولا أبالى أن لا أعرفه ! فقال له : هذا أخوك سليمان بن مجالد . فقال : هذا أخو الشيطان ! ويلك ، يا ابن مجالد ، خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين ،

ثم أردت أن تحول بينه وبين من أراد نصيحته . يا أمير المؤمنين ، إن هؤلاء اتخذوك سلماً لشهواتهم ، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب ! فاتق الله فانك ميت وحدك ، ومحاسَب وحدك ، ومبعوث وحدك ، ولن يغنى عنك هؤلاء من ربك شيئاً .

فقال له المنصور : يا أبا عثمان ، أعنّى بأصحابك أستعن بهم . فقال له : أظهر الحق يتبعك أهله :

ثم قال المنصور : بلغنى أن محمد بن عبد الله بن الحسن كتب اليك كتاباً . فقال : قد جاءنى كتاب يشبه أن يكون كتابه . قال : فبماذا أجبته ؟ قال : أوَلست قد عرفت رأيي فى السيف أيام كنت تختلف الينا وأنى لا أراه ؟ قال : أجل . ولكن تحلف ليطمئن قلبي . قال : لئن كذبتك تَقِيةً لأحلفنّ لك تَقِيةً ! فقال المنصور : أنت الصادق البارّ ، وقد أمرت لك بعشرة آلاف درهم تستعين بها على زمانك . فقال : لا حاجة لى فيها ، فقال المنصور : والله لتأخذنها ، فقال عمرو : والله لا أخذنها ، فقال له المهدى : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ؟ فأقبل عمرو على المنصور وقال : من هذا الفتى ؟ فقال : هذا ابنى محمد ، وهو المهدى ولىّ العهد ، فقال : والله لقد سميته اسما ما استحقه بعمل وألبسته لَبوساً ما هو لَبوس الأبرار . ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون أشغل ما تكون عنه

ثم قال المنصور : يا أبا عثمان ، هل من حاجة ؟ قال : نعم ، يرفع هذا الطيلسان عنى — وكان المنصور طرح عليه طيلساناً حين دخل عليه

ثم قال له المنصور : لا تَدَعْ إتياننا ، يا أبا عثمان

فقال : نعم ، لا يضمنى وإياك بلد إلا دخلت اليك ، ولا بدت لى حاجة إلا سألتك ، ولكن لا تعطنى حتى أسألك ، ولا تدعنى حتى آتيك !

فقال المنصور : إذن لا تأتينا أبداً !

ثم ودّع المنصور ونهض ، فلما ولّى أتبعه بصره وأنشأ يقول

كلكم طالب صيد كلكم يمشى رُوَيْد

غير عمرو بن عبيد

ونحن مطمئنون إلى صدق ابن عُبَيْد فى النصح وصدق المنصور فى الاستماع ، وللملوك لحظات ينسون فيها الوصولية السياسية وينصتون إلى صوت الوجدان (١)

٦ — والظاهر أن المنصور كان من الشخصيات المعروفة بالتسامح ، فقد رأينا آنفا كيف يقف رجل فيذكّره بالله وهو يخطب ، وقد ذكر ابن قتيبة أنه سمع وهو يطوف ليلاً قائلا يقول :

« اللهم إنى أشكو اليك ظهور البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع »

فخرج المنصور فجلس ناحيةً من المسجد وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى الرجل ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة فقال له المنصور : ما الذى سمعتك تذكر من ظهور البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ، فوالله لقد حشوت مسامعى ما أرمضنى (٢)

---

(١) ورد حديث عمرو بن عبيد مع المنصور بصيغ مختلفة فى زهر الآداب ج ١ ص ٩٤ وعيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣٧ وأمالى المرتضى ج ١ ص ١٢٠ — ٢٢٢ ووفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠١ والعقد الفريد ج ١ ص ٣٠٧

(٢) أرمضه : أوجعه وآلمه

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، إن أمّنتنى على نفسى أنبأتك بالأمور من أصولها ، وإلا احتجزت منك واقتصرت على نفسى ففيها لى شاغل ، فقال المنصور : أنت آمن فقل ، فقال : ان الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغى والفساد لأنت !

فقال المنصور: ويحك ! وكيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى قبضتى والحلو والحامض عندى ؟

فقال الرجل : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك ؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجصّ والآجرّ وأبواباً من الحديد وحَجَبَةً معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك فيها عنهم ، وبعثت عمالك فى جباية الأموال وجمعها وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس الا فلان وفلان ، نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ، ولا الملهوف ولا الجائع العارى ، ولا الضعيف الفقير ، ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت أن لا يحجبوا عنك ، تجبى[(١)] الأموال وتجمعها ولا تقسمها ، قالوا : هذا قد خان الله ، فما بالنا لا نخونه ، وقد سجن لنا نفسه ؟ فائتمروا بأن لا يصل اليك من علم أخبار الناس شىء الا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا خونوه عندك ونفوه حتى تسقط منزلته ، ويصغر قدره . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم

---

(١) جملة (تجبى الأموال) معمول (رآك هؤلاء)

الناس وهابوهم فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك. ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك، وأنت غافل. فان جاء متظلم حيل بينه وبين دخول مدينتك، وإن أراد رفع قصته اليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك، وأوقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم، فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك خبره سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته اليك، فإن المتظلم منه له بهم حرمة، فأجابهم خوفا منهم، فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتلّ عليه، فاذا أُجْهِد وأُحْرِج وظَهرتَ صرخ بين يديك فضُرِب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره، وأنت تنظر فلا تنكر، فما بقـــاء الاسلام على هذا! وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر الى الصين فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه، فبكى يوما بكاءً شديداً، فحثه جلساؤه على الصبر فقال: أما إنى لست أبكى للبلية النازلة بى، ولكنى أبكى لمظلوم بالباب يصرخ ولا أسمع صوته، ثم قال: أما إذ ذهب سمعى فان بصرى لم يذهب، نادوا فى الناس أن لا يلبس ثوبا أحمر الاَّ متظلم، ثم كان يركب الفيل طرفى نهاره، وينظر: هل يرى مظلوماً؟ فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين شح نفسه، وأنت مؤمن بالله ثم من أهل بيت النبى ولا تغلب رأفتك بالمسلمين على شح نفسك! فان كنت انما تجمع المال لولدك فقد أراك الله عِبراً فى الطفل يسقط من بطن أمه، وما له على الأرض مال، وما من مال الا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يلطف بذلك

الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليه . ولست بالذى تعطى ، بل الله يعطى من يشاء ما يشاء . وإن قلت إنما أجمعُ المال لتشديد السلطان فقد أراك الله عبراً فى بنى أميـــة : ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وأعدّوا من الرجال والسلاح والكراع ، حين أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلت انما أجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنا فيها ، فو الله ما فوق ما أنت فيه الا منزلة لا تُدرَك إلا بخلاف ما أنت عليه . يا أمير المؤمنين ، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟ قال المنصور : لا . قال : فكيف تصنع بالمَلِك الذى خوّلك مُلك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ، ولكن بالخلود فى العذاب الأليم ، قد رأى ما قد عُقِد عليه قلبك ، وعملته جوارحك ، ونظر اليه بصرك ، واجترحته يداك ، ومشت اليه رجلاك ، هل يغنى عنك ما شححت عليه من الدنيا إذا انتزعه من يدك ، ودعاك الى الحساب ؟ فبكى المنصور وقال : يا ليتنى لم أخلق ! ويحك ! فكيف أحتال لنفسى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن للناس أعلاما يفزعون اليهم فى دينهم ويرضون بهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم فى أمرك يسددوك ، قال : قد بعثت اليهم فهربوا منى ، قال : خافوا أن تحملهم على طريقتك ، ولكن افتح بابك ، وسهل حجابك ، وانصر المظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ الفيء والصدقات مما حلّ وطاب ، واقسمه بالحق والعدل على أهله ، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويسعدوك على صلاح الأمة .

وجاء المؤذنون فسلموا عليه فصلى وعاد الى مجلسه وطلب الرجل فلم يوجد(١)

---

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٣ — ٣٣٦ والعقد الفريد ج ١ ص ٣٦٥

٧ — ولكن أكان المنصور حقا متسامحا حتى يستمع مثل هذا الحساب ؟ أنا أستبعد أن يكون هذا الحديث صحيحاً ، وأرجح أنه وضع لغاية من غايات المعارضين ، ودليل هذا الترجيح أن القائل مجهول : فهو أحد الزهاد ، وأنه حُـفِـظ بلغة قويه لا يُعقل أن تُسمع فتُحفَـظ ، ولو كان حواراً طارئا طُلِب صاحبه فلم يوجد لما أمكن أن تحفظ منه هذه الصورة القوية .

والمعقول أن يكون هذا الحديث من وضع رجل ثائر كان يكره بنى أمية وبنى العباس ، فان التعمق فى وصف حجاب المنصور وما كان يقع لعهده من إغفال المظالم ومن سيطرة الوزراء لا يتفق الا لرجل ثائر على تقاليد ذلك العهد . والثورة على الاستبداد بالملك وتصريف أمور الناس كانت كثيرة الوقوع فى تلك الأيام ، وكانت التورية عن فساد النظام مما يطيب للكتاب والشعراء . وقد كثر القول بأن ابن المقفع لم يترجم كليلة ودمنة الا ليحارب به ما كان يراه من ظلم الخلفاء ، فليس من المستبعد أن توضع الأحاديث على ألسنة الزهاد ليكون فى أذاعتها تنديد بالسياسة الظالمة التى يرتكبها خلفاء بنى العباس فى بعض الأحيان .

ولنتذكر أن شخصية « الوزير » ملحوظة فى هذا الحديث ، والوزير كان فى تلك العهود نموذجا من نماذج الغطرسة والعنف والاجحاف ، وكان لا بد أن يحاربه الناس بسوء القالة إن عجزوا عن محاربته بالسلاح .

ومنشىء هذا الحديث جعل بطله من الزهاد ، وهذا يدلنا على أن الصوفية فى تلك الأيام كانت لهم سلطة روحية وخلقية ، وكان من المعروف عنهم أن يجهروا بكلمة الحق ، وأن لا يبالوا غضب الخلفاء والوزراء ، فاختيار

بطل الحديث من الصوفية هو الشاهد على ماكان يعرف عنهم من الشجاعة الأدبية .

ولسنا نعرف بالضبط من أى حزب كان منشىء هذا الحديث ، والظاهر أنه كان يميـــل إلى الصوفية ، فقد قال له المنصور : كيف أحتال لنفسى ؟ فأجاب : إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم فى دينهم ، ويرضون بهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم فى أمرك يسددوك .

ولم يكتف بهذا فى تمجيد أصحابه من أهل الزهد ، بل ادّعى أن المنصور قال : قد بعثت اليهم فهربوا منى ، وهو بذلك يجعلهم أصلح النـاس لولاية الأمر وأخوفهم من الاتصال بأهل الدنيا وأقدرهم على احتقار المناصب البراقة : مناصب الوزراء .

وجملة القول أن هذا الحديث يشهد بأن أحزاب المعارضين كانت تتستر باسم الزهاد والصوفيـة ، ومعنى ذلك أن الزهاد والصوفية كانوا معروفين بالجرأة والشجاعة فى الدفاع عن الحق . وكان ماينشر باسمهم خليقاً بأن يتلقاه كبار الناس بالقبول . وبعض ذلك كاف للاقتناع بأنهم كانوا قوة خلقية فى ذلك الحين .

٨ — ويماثل هذا المقـام مقام الأوزاعى بين يدى المنصور ، ذكره عبد الله بن المبارك عن رجل من أهل الشام قال : دخلت عليه فقال : ما الذى أبطأ بك عنى ؟ قلت : ياأمير المؤمنين ، وما الذى تريد منى ؟ فقال : الاقتباس منك . قلت انظر ما تقول فان مكحولا حدثنى عن عطية بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من بلغه عن الله نصيحة فى دينه فهى رحمة

من الله سيقت اليه ، فان قبلها من الله بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ، ليزداد إثماً وليزداد الله عليه غضباً ، وإن بلغه شيء من الحق فرضى فله الرضا، وإن سخط فله السخط ، ومن كرهه فقد كره الله ، لأن الله هو الحق المبين » فلا تجهلنّ . قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمع !

قال الأوزاعى : فسلّ علىّ الربيع السيف وقال : تقول لأمير المؤمنين هذا ؟ فانتهره المنصور وقال : أمسِكْ . ثم كلمه الأوزاعى وكان فى كلامه أنْ قال : إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به ، والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها ونقيرها ، ولقد حدثنى عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ما من راع يبيت غاشا لرعيته إلا حرّم الله عليه رائحة الجنة » فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظراً ، ولما استطاع من عوراتهم ساترا ، وبالقسط فيما بينهم قائما ، لا يتخوف محسنهم منه رهقاً ، ولا مسيئهم عدواناً ، فقد كانت بيد رسول الله جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين فأتاه جبريل فقال : « يا محمد ، ماهذه الجريدة بيدك ؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً » فكيف من سفك دماءهم ، وشقق أبشارهم ، وأنهب أموالهم ! يا أمير المؤمنين ! إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابياً لم يتعمده فهبط جبريل فقال : يا محمد ، إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك . . . إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ، ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل اليك يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار عُلّق بين السماء والأرض لآذاهم ، فكيف من يتقمصه ؟

ولو أن ذنوباً [١] من صديد أهل النار صبّ على ماء لآجنه [٢] . فكيف بمن يتجرعه ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب ، فكيف من سلك فيها ويردّ فضلها على عاتقه !

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يظلف نفسه وعماله ، فذلك له أجر المجاهد فى سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع ورتع عماله ، فذاك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله وأمير يظلف نفسه[٣] ويرتع عماله، فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الأكياس[٤] .

ولهذا الحديث بقية ، وما سلف منه يبين مسلك الأوزاعى فى النصح ، وجرأته فى مصارحة الخلفاء . والشجاعة من أخص صفات الزاهدين والصالحين .

وللأوزاعى موقف مع عبد الله بن علىّ يعدّ من أخطر المواقف ، لأنه يمسّ الأحقاد السياسية ، وللسياسة أحقاد سود تذهب بالحلم والعقل ، وكان ذلك الموقف بعد أن أجلى عبد الله بنى أمية عن الشام وأزال الله دولتهم على يديه ، فقد طلب الأوزاعى ليسأله رأيه فيما صنع ببنى أمية ، وكان ينتظر بالطبع أن يظفر منه بكلمات من الثناء يفلّ بها حدّة من ينكرون عليه الاسراف فى النهب والقتل ، ولكنه فوجىء بما لم يكن فى الحسبان ، وأراه

---

(١) الذنوب ، بالفتح ، الدلو التى دون الملء (٢) آجنه : غير طعمه ولونه
(٣) يظلف نفسه : يكفها (٤) عيون الأخبار ج ٣ ص ٣٣٩

الأوزاعى أن فى الدنيـا ناساً يجهرون بكلمـة الحق فى أحرج المواقف والمقامات .

قال الأوزاعى : فدخلت عليه وهو على سرير ، والمسوّدة عن يمينه وشماله معهم السيوف مطلقة ، فسلمت عليه فلم يرد ، ونـكت بتلك الخيزرانة التى بيده ثم قال : يا أوزاعى ، ماترى فيما صنعنا من إزالة أيدى أولئك الظلمة عن البلاد والعباد ، أجهاد هو ؟ قال : فقلت : أيها الأمير ، سمعت يحي بن سعيد الأنصارى يقول : سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » قال : فنـكت بالخيزرانة أشدّ ماكان ينـكت ، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم ، ثم قال : يا أوزاعى ، ما تقول فى دماء بنى أمية ؟ فقلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يحلّ دم امرىء مسلم إلا باحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب والزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » قال : فنـكت بها أشدّ من ذلك ، ثم قال : ما تقول فى أموالهم ؟ فقلت : إن كانت فى أيديهم حراما فهى حرام عليك أيضاً ، وإن كانت لهم حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعى ، قال : فنـكت أشدمما كان ينـكت قبل ذلك ، ثم قال : ألا نوليك القضاء ؟ فقلت : إن أسلافك لم يكونوا يشقّون علىَّ فى ذلك ، وإنى أحب أن تتم ما ابتدأونى به من الإحسان ، فقـــال : كأنك تحب الانصراف ، فقلت : إن ورائى حرماً وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن

وقلوبهن مشغولة بسببى ، قال : وانتظرت رأسى يسقط بين يدى ، فأمرنى بالانصراف ، فلما خرجت إذا رسول من ورائى ، وإذا معه مائتا دينار فقال : يقول لك الأمير : استنفق بهذه ، قال : فتصدقت بها ، وانما أخذتها خوفا(١)

٩ — وهذا المقام يدل على أمرين : الأول أن الأمراء والملوك كانوا منذ ذلك الزمان يشعرون بقوة أهل العلم والزهد والصلاح ، وكانوا يحبون أن يستظهروا بهم ، وكانوا كذلك يعرفون عنهم اللين فى أغلب الأحيان ، ولولا ذلك لقلَّت الرغبة فى استدعاء مثل الأوزاعى فى مثل ذلك الموقف .

والثانى أن الزهاد كانوا استطاعوا أن يخلقوا لهم عصبية يحسب حسابها فى الأزمات السياسية ، يؤيد هذا ما روى أن بعض الولاة هدد الأوزاعى مرة فقال له أصحابه : دعه ، فوالله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك(٢)

وطمعُ الولاة والأمراء فى لِين أهل التصوف لا ينقض ما عُرفوا به من الشجاعة الأدبية ، فنحن لا نقول بأن تلك الشجاعة كانت من نصيب كل من تصوف ، وانما نجزم بأنها كانت من أخلاق كل من صدق فى التصوف ، والعصبية التى كانت تحميهم لا يمكن أن تغض من شجاعتهم الأدبية ، لأنها فى الأكثر عصبية عزلاء ، ولأنها على كل حال من مغانمهم الأخلاقية ، لأنهم اكتسبوها بفضل الصلاح والتقوى ، وهو مكسب تُبذل فى سبيله أثمان غالية يعرفها من يعانون رياضة النفس على التجمل بالآداب الدينية .

---

(١) حسن المساعى فى مناقب الأوزاعى ص ٧٩ — ٨٢

(٢) حسن المساعى فى مناقب الأوزاعى ص ٨٩

١٠ — وكان يتفق فى أحيان كثيرة أن تقابل تلك الشجاعة باللطف ، ومن طريف ذلك أن ابن هبيرة كتب إلى الحسن وابن‌سيرين والشعبى فقدم بهم عليه ، فقال لهم : إن أمير المؤمنين يكتب إلىّ فى الأمر إن‌فعلته ِخفتُ على دينى ، وإن لم أفعله خفت على نفسى ، فقال له ابن سيرين والشعبى قولا رقّقا فيه ، وقال له الحسن : يا ابن هبيرة ! إن الله يمنعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله . يا ابن هبيرة ! خف الله فى يزيد ، ولا تخف يزيد فى الله ! يا ابن هبيرة ! إنه يوشك أن يبعث الله اليك ملكا فينزلك عن سريرك إلى سعة قصرك ، ثم يخرجك عن سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك . يا ابن هبيرة ، إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق (١)

والطريف فى هذا الموقف أن ابن هبيرة أمر للحسن بأربعة آلاف درهم وأمر لابن سيرين والشعبى بالفين ، فقالا : رققنا فرقق لنا !

١١ — وهناك مواقف لأبى حازم مع سليمان بن‌عبد الملك وابن‌السماك مع الرشيد . والمقام يضيق عن الاستقصاء ، ولو مضينا نستقرى أخبار الصوفية فى‌مختلف‌العصور لرأينا لهم كثيراً من أمثال هذه المواقف ، والناس فى مصر وفى تركيا خاصة يذكرون حوادث جرت لأهل الورع والدين مع الولاة والسلاطين ، ومناقب الصوفية تفيض‌بأمثال هذه الأخبار . وأكثرها صدق ، والمخترع منها له دلالة خلقية ، فهو شاهد بأن الناس كانوا يشهدون للصوفية بالشهامة والجهر بكلمة الحق .

---

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص٣٤٣

وقد رأينا أن تلك المواقف عادت بفوائد كثيرة على الأدب والاخلاق فهى من حيث الصورة نماذج أدبية ، وهى من حيث المعنى لا تزال توحى بالحرص على التخلق بأخلاق الرجال [١]

(١) فى مسامرة الأبرار لابن عربى أنباء نفيسة من هذا النوع

الدنيا في أذهان الصوفية

ذم الصوفية للدنيا شاهد على تعلقهم بها — هل الدنيا قبيحة فى جميع الأحوال ؟ — حقائق الجمال فى هذا الوجود — الدنيا فى كلام الأنبياء — شخصية المسيح — دفاع المؤلف عن الصوفية — ذم الدنيا وأثره فى الأخلاق وفى الأدب — مشكلة خلقية — المحمود والمذموم فى الشؤون الدنيوية — النفس كالشجرة التى تحيا بالحرية فى مكافحة الهواء .

---

١ — زارت رابعة أصحابها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها فقالت : اسكتوا عن ذكرها . فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها . ألا من أحب شيئاً أكثر من ذكره(١)

وإنى لأخشى أن تكون هذه النظرة مما يصدق فى أكثر الصوفية : فهم جميعا يذمون الدنيا ، ويخافون شرها ، ويكثرون من تقبيحها والتنفير منها ، ويندر أن يكتب فى التصوف كتاب ولا تكون الدنيا شغل المؤلف وهمه فى أكثر الفصول . والواقع أن الدنيا شغلت الصوفية فلم تخل منها قلوبهم طرفة عين ، ولو خلت منها قلوبهم لما طوقوها بقلائد الهجاء ، وانما مثلها فى أنفسهم مثل المرأة المطلقة التى يحن اليها زوجها ويتمنى لو عادت لياليها الملاح ، وكيف يخلص الناس من فتنة دنياهم وهم مقيدون بما فيها من هواء وماء ؟ إن النفحة السماوية التى يتشوفون اليها لم تكن الا لفتة فنية ، والتطلع الى السماء انما هو كبر إنسانى شريف ، ولكنه على ما فيه من شرف لا يخلو

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ٢٠٨

من تهور واعتساف ، فالانسـان من الأرض خلق والى الأرض يعود ، والنفس على ما فيها من رقة وصفاء قيدتها الارادة الأزلية بأسباب العيش ، وفرضت عليها الخضوع لسلطان الأمعاء ، فليصنع الصوفية ما يشاءون فسيظل ابن آدم منسوبا الى الطين والماء

٢ — وإسراف الصوفية فى ذم الدنيـا لا يخلو من غفلة وجهل ، فللدنيا فتنة روحية ، وفى الـكفاح فى مناكبها سحر وإشراق ، والعليل هو الذى لا يدرك جمال هذا الوجود ، ولا يعرف أن القبح نفسه فيه شعر وجمال ، وأن دمامة الأخلاق فيها فرص نورانية لمن يعرف على أى أساس بنيت هذه الدنيا الفيحاء .

إن الرجل الذى يعود الى بيته وهو مهدم الأعصاب يزعجه صراخ الطفل ، أفيكون انزعاجه دليـلا على وجود البشاعة فى صراخ الأطفال ؟ وكيف والرجل السليم يرى فى بكاء الطفـل ملامح شعرية ، ويتوسم فى انفعالاتهم بوارق من نور الوجود ؟

إن إسراف الصوفيه فى ذم الدنيـا هو الشاهد على انحرافهم فى فهم الأخلاق ، وهو كذلك الشاهد على أن قواعد الأخلاق أقيمت فى الأغلب على الأهواء الذاتية ، فنحن نرضى عن الدنيا ساعة ونغضب ساعات ، فتكون لنا عند الرضى آراء ، وعند الغضب آراء ، والصوفية أولى الناس بالتهمة عند الانحراف ، لأن التصوف يقع فى أكثر الأحيان عند المرض والمشيب ، والمريض الأشيب ينظر الى الدنيا نظرة الحقد والأزدراء

٣ — إن أشنع غلطة اقترفها الصوفية هى التنفير من الدنيا ، والدعوة الى

هجر ما فيها من الطيبات ، وإصرارهم على إقناع الناس بأنهم يلدون للموت ويبنون للخراب . والحق أن كل ميلاد الى موت ، وأن كل بناء الى خراب ، ولكن بين الحالين مواسم للخير والبر والجمال والصفاء ، ومن الحمق أن يجهل المرء أنه خلق لغاية نبيلة تتمثل فى تطوره من حال الى حال ، وتنقله بين الحلم والجهل ، والعقل والجنون . وكان الصوفية أجدر الناس بأن ينظروا هذه النظرة ، وأن يتصوروا ما فى تقلب الطباع من رونق وبهاء ، ولكن خبز الشعير ولباس الصوف والملح الجريش ، كل أولئك طبع أرواحهم بطابع التلوم والاشفاق .

كيف غاب عنهم وجه الخير فى هذه الهموم السود التى يعانيها أشراف الرجال ؟ وكيف غفلوا عن المغانم النفيسة التى يظفر بها من يحارب الخسة والدناءة والاسفاف ؟ إن فرص الجهاد لا تتاح إلا لمن ينغمس فى الدنيا ويشهد ما يقع فيه الدنيويون من محاربة الشرف والصدق والنبل ، ولو استمع العالم إلى نصائح الصوفية لضاعت أصول كثيرة من الخير والحق والجمال

إن العالم الباقى لم يتمثل لعشاقه إلا عن طريق العمران : فهو قصور وأنهار وحدائق ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون . ولو كان النعيم يبغض لذاته لما رضى الصوفية أن يجعلوه نصيبهم فى دار البقاء ، فلم يبق إلا أن يكون الكدر فى هذه الدنيا أثرا من الانحراف فى أخلاق الناس ، وتكون النتيجة أن الناس أعطوا ملكا فلم يحسنوا سياسته ، أعطاهم الله تلك الأنهار الجارية والرياض الحالية ، وسخر لهم الشمس والقمر والنجوم ، فغفلوا عن مفاتن ذلك الملك الذى ينتظم محاسن الأرض والسماء ، وحولوا حياض الأزهار

إلى ميادين تسفك فيها الدماء ، وتزهق الأرواح

وكان الظن بالصوفيــة وهم من أهل البصائر والقلوب ، أن يعرفوا قيمة هذه الدنيا ، هذا الملك الذى ضيعه أهله ، كان الظن بهم أن يجاهدوا ما فيـه من شهوات وأباطيل ، ولـكنهم آثروا الهرب والانزواء ، وصاروا يعرفون من أنهار الجنة ما لا يعرفون من أنهار هذا العالم ، ويعلمون من أبواب جهنم ما لا يعلمون من أسـباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب ، ويدركون من نعيم الآخرة ما لا يدركون من معنى الملك والقوة فى هذا الوجود

إن الاعتصام بشواهق الجبال فراراً من ظلم الناس فيه ملامح شعرية ، ولـكنه دليل على حب السلامة ، وذلك من أخلاق الضعفاء ، وأشرفُ منه أن تدخل المعركة ، وأن يخضب الدم وجهك وصـدرك ويديك ، وأن تلقى الله بوجه شريف لم يعرف صاحبه الجبن ولا الرياء ولا الخداع

الدنيا جنة دانية القطوف ، وفى بعض أركانها أفاع وصلال ، وما أفاعيها إلا لئام الناس ، فـكيف خانتكم الشجاعة أيها الصوفية فـلم تقتلوا ما فى تلك الجنة من خبيث الحشرات ؟

أفى الحق أن الدنيا بنيت على الـكيد والفتك والنفاق ؟ ليكن ذلك ، ولـكن لا تنكروا أنها أعظم مما تتوهمون ، إن فى الدنيا جمالا جذابا يستهوى العقول والقلوب ، وهى صالحة كل الصلاحية لأن تـكون من ميادين المجد فى عالم الأخلاق ، ولـكن أين الصابرون ؟ وأين المحتسبون ؟ كل امرىء فى دنيانا يودّ أن يغنم المعركة فى لحظـة واحدة ، والا ففى مهاوى الفرار متسع للجميع ،

وقد عجز الصوفية ثم تواصوا بالتقهقر والانسحاب ، فلنسجل عليهم هذه الخزية البلقاء .

٤ — اهتم الصوفية بنقل ما قال الرسول فى ذم الدنيا ، فحدثونا أنه وقف على مزبلة وقال : هلموا الى الدنيا ، وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاما قد نخرت ، فقال : هذه الدنيا [١] وحدثونا أنه قال : ألهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت [٢] ؟ وأنه قال : الدنيا دار من لادار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لاعقل له ، وعليها يعادى من لا علم له ، وعليها يحسد من لا فقه له ، ولها يسعى من لا يقين له [٢] وحدثوا أن أبا هريرة قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة ، ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها ؟ فقلت : بلى ، يا رسول الله ، فأخذ بيدى وأتى بى واديا من أودية المدينة فاذا مزبلة فيها رؤوس أناس وعذرات وخرق وعظام . ثم قال : يا أبا هريرة ، هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم ، وتأمل كأملكم ، ثم هى اليوم عظام بلا جلد ، ثم هى صائرة رمادا ، وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها . وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ، فمن كان باكيا على الدنيا فليبك [٢]

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ٢٠٢

(٢) ص ٢٠٤

ولم يكتف الصوفية بكلام نبي المسلمين فنقلوا عن صحف ابراهيم هذه الكلمات :

« يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنّعت وتزينت لهم ، إنى قذفت فى قلوبهم بغضك ، والصدود عنك ، وما خلقت خلقا أهون علىّ منك ، كل شأنك صغير ، والى الفناء يصير ، قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومى لأحد ، وإن بخل بك صاحبك وشحّ عليك(١) .

ومضوا يقصون أخبار المسيح فرووا أنه اشتد عليه المطر والرعد والبرق فجعل يطلب شيئا يلجأ اليه فوقعت عينه على خيمة من بعيد ، فأتاها فاذا فيها امرأة فحاد عنها ، فاذا هو بكهف فى جبل فأتاه فاذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال : إلهى لكل شيء مأوى ، ولم تجعل لى مأوى ، فأوحى الله تعالى اليه : مأواك فى مستقر رحمتى ، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدى ، ولأطعمنّ فى عرسك أربعة آلاف عام ، كل يوم منها كعمر الدنيا ، ولآمرنّ مناديا ينادى : أين الزهاد فى الدنيا ، زوروا عرس الزاهد فى الدنيا عيسى ابن مريم (١)

وحدثوا أنه مرّ بقرية فاذا أهلها موتى فى الأفنية والطرق فقال : يا معشر الحواريين ، إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا ، فقالوا : يا روح الله ، وددنا أنا علمنا خبرهم ، فسأل الله تعالى فأوحى اليه : اذا كان الليل فنادهم يجيبوك ، فلما كان الليل أشرف على نشز ثم نادى : يا أهل القرية ، فأجابه مجيب : لبيك يا روح الله . فقال : ما حالكم وما قصتكم ؟

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ٢٠٤

قال : بينا نحن فى عافية أصبحنا فى الهاوية . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصى ، قال : وكيف كان حبكم للدنيا ؟ قال : حب الصبىّ لأمه ، اذا أقبلت فرح بها واذا أدبرت حزن وبكى عليها . قال : فما بال أصحابك لم يجيبونى ؟ قال : لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدى ملائكة غلاظ شداد . قال : فكيف أجبتنى من بينهم ؟ قال : لأنى كنت فيهم ولم أكن منهم . فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم ، فأنا معلق على شفير جهنم ، لا أدرى أنجو منها أم أكبكب فيها . فقال المسيح للحواريين : لأكلُ خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة[1]

٥ — وما يهمنا فى هذا المقام أن نبحث فى صحة هذه الأحاديث وفيها الزائف والصحيح ، لا يهمنا ذلك ، لأن عناية الصوفية بدرسها وروايتها هى الشاهد على ما نراه فى تصوير مذاهبهم الأخلاقية ، وهم يذمون الدنيا إطلاقا ولا يتسامحون فى الرضا عنها إلا فى رسوم ضيّقة أشدّ الضيق ، ولولا غلبة هذه النزعة عليهم لكان لهم موقف آخر فى توجيه تلك الأحاديث ، فما نظن أن الرسول كان يرى الدنيا جيفة فى جميع الأحوال ، والمعقول أنه كان يحقرها حين يرى الناس يتكالبون عليها ويقترفون فى سبيلها منكر الآثام ، ولو عرض الرسول لدنيا رجل صالح لقضى بأن الدنيا مطية المؤمن ، وأن الغنى من نعم الله على عباده الصالحين .

إن وقوف الصوفية عند هذا الجانب من كلام الرسول لم يقع إلا عن قصد ، فذلك هو منحاهم فى الأخلاق ، والشخصية الخلقية عندهم هى شخصية

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ٢٠٥

فقيرة معدمة لا تعرف غير التفكير فى الجزء المجرد من الملكوت ، أما النظر فى هذا العالم الصاخب المملوء بالمحاسن والعيوب فذلك لأهل الدنيا الذين قضى عليهم الصوفية بالغفلة والسقوط .

واهتمام الصوفية بأدب المسيح يؤكد ما نراه فى نزعتهم الأخلاقية ، فالمسيح هو أعظم درويش عرفه هذا العالم ، وهو فى ذاته شخصية جذابة ، ولكن الاقتداء به اقتداءاً مطلقاً لا يخلو من عدوان على مُلك العقل ، ولا يصح النظر إلى المسيح كشخصية مستقلة تمام الاستقلال ، وإنما يجب النظر فيما كان يحيط به من تكالب أرباب الأموال ، وتصور ما كانوا عليه من قذارة التعامل وسفاهة الإجحاف ، فاليهود الذين عرفهم عيسى كانوا بغوا فى الأرض واشتروا رقاب الناس بالربا الفاحش . وكذلك كانت دعوته إلى بغض الدنيا دعوة طبيعية يقرها الأدب والذوق .

٦ — ولكن كيف نبخل على الصوفية بما سمحنا به للمسيح ، وكيف نحرّم هنا ما حللناه هناك ؟

الواقع أن الصوفية نشأوا فى بيئات غلب عليها الفساد ، فساد الخلق والدين ، وما كانت المعاملات بين الناس فى العهود الماضية إلا ضروباً من الختل والعدوان ، وهل صلح الناس فى زماننا هذا مع قوة القانون وحزم القضاء ؟ حدثنى كم رجلاً فيمن تعرف يصلح للتعاون بلا صكّ مكتوب ؟ وكم رجلاً فيمن تصادق تأتمنه فلا يخون ؟ وكم رجلاً فيمن تؤاخى يحفظ سرك ويرعى عهدك ، ويظل ظهيرك فى المحضر والمغيب ؟

لقد نشأ الصوفية فى أزمان لم يكن فيها لغير الحاكم المسيطر أمر يطاع ،

وكانت الدسائس والوشايات أساس الحل والعقد فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء، وكان الندمان والمحاسيب هم محور الحركة والسكون ، وأصل الإدبار والإقبال ، على نحو ما يقع أحياناً كثيرة فى هذا الزمان ، فكيف ننكر أن يكون إسراف الصوفية فى ذم الدنيا أثراً من آثار ذلك الاضطراب فى السياسة والخلق والدين ؟ وما هى تلك الدنيا البشعة التى يستجيز أهلها الغدر والعقوق ؟ وهل يغدر الغادر ويعق العاق إلا وهو مؤيد بقوى خفية من الطمع والجشع ، وحب التملك والاستعلاء ؟

إن مطامع الدنيا هى الأصل فى فساد الأخلاق ، فهل يلام الصوفية على تحقيرهم إياها ، ورمى عشاقها بالإثم والبهتان ، وحربهم بأقوال الحكماء والأنبياء والمرسلين ؟

إننا نتهم الصوفية بالضعف حين يفرون من دنيا السفهاء ، فلنجالد نحن ، ولننظر عواقب المعركة بين الهدى والضلال ، وأغلب الظن أننا سنرمى الراية يائسين ، لأن هنالك سراً لا يعلمه إلا علام الغيوب ، هنالك المشكلة الباقية التى قضت بأن لا يخلص العالم من اشتباك الحلم والجهل ، والعقل والجنون .

إن رجل الأخلاق ليس أحسن حالا من راعى الغنم ، يجمع هذه فتنفر تلك ، ولا يزال معذب القلب بين الشاردات والواردات ، وليس أعظم قدرة من المدرس الذى يساق اليه التلاميذ بلا تخير ولا اصطفاء ، ثم يطلب منه أن يتعلم تلاميذه جميعاً وأن ينجحوا جميعاً .

من الحق أن تطالب رجل الأخلاق بالثبات ، ولكن من الظلم أن لا تشفق

عليه حين ينهزم ، فان الضعف أنفذ سهماً من القوة فى عالم الأخلاق ، أنت تعظ ولكن أين من يسمع ؟ وتسير فى طريق الهدى ولكن أين من يسايرك ، وتبنى ، ولكن أين من يشد أزرك ويحمل معك أحجار الأساس ؟ !

والخلاصة أن فرار الصوفية من الدنيا وأهلها يدل على ثلاثة أمور :

الأول شعورهم بالتبعة الأخلاقية .

والثانى ضعفهم عن مقاومة الرذائل الاجتماعية .

والثالث فساد ما نشأوا فيه من البيئات الدينية والمعاشية .

٧ — فان سأل القارىء عن أثر ذلك فى الأخلاق ، فانا نجيب بأن كتمان الصوفية لأسباب الهزيمة صوّر فرارهم من الدنيا بصورة العمل المقبول ، فاقتدى بهم كثير من الناس وشاع الزهد فى الطيبات فضاع من العالم الاسلامى جزء كبير من الثروة المعنوية التى يمثلها جمال العمران وتتابع الرزق فى عالم الاقتصاد .

ومضى المنهزمون يسترون الهزيمة بذم الدنيا فكان للأدب من ذلك مغانم عظيمة ، واستطاع على بن أبى طالب أن يحسن مثل هذه الأقوال :

« إنما الدنيا منتهى بصر الأعمى لا يبصر مما وراءها شيئاً ، والبصير ينفذها بصره ، ويعلم أن الدار وراءها ، فالبصير منها شاخص والأعمى اليها شاخص ، والبصير منها متزود ، والأعمى لها متزود[1] . . . أنظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها الصادفين عنها ، فانها والله عما قليل تزيل الثاوى الساكن ، وتفجع المترف

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٢٧٠

الآمن ، لا يرجع ما تولى فأدبر ، ولا يدرى ما هو آت منها فينتظر ، سرورها مشوب بالحزن ، وجلدَ الرجال فيها إلى الضعف والوهن[١]... لم يكن أمرؤ منها فى حبرة إلا أعقبتها عبرة ، ولم يلق فى سرائها بطناً إلا منحته من ضرائها ظهراً ، ولم تطلة فيها ديمة رخاء إلا هتنت عليه مزنة بلاء[٢] . . . أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تتركوها ، والمبلية لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها ، فانما مثلكم ومثلها كسفْر سلكوا سبيلا فكأنهم قد قطعوه ، وأمّوا علَما فكأنهم قد بلغوه ، وكم عسى المجرى الى الغاية أن يجرى إليها حتى يبلغها ، وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه ، وطالب حثيث يحدوه فى الدنيا حتى يفارقها ، فلا تنافسوا فى عز الدنيا وفخرها ، ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها ، ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها ، فان عزها وفخرها إلى انقطاع ، وإن زينتها ونعيمها إلى زوال ، وضراءها وبؤسها إلى نفاد ، وكل مدة فيها إلى انتهاء ، وكل حى فيها إلى فناء[٣] » .

وكلام ابن أبى طالب فى ذم الدنيا كثير جداً ، وهو يمثل مذهبه فى الزهد ويشرح هزيمته السياسية ، وكذلك فعل الخوارج ، فقد أطالوا القول فى التنفير من الدنيا ، ولهم فى ثلبها خطب ضربت بفصاحتها الأمثال ، من ذلك قول قطرىّ بن الفجاءة ·

« أيها الناس ، إعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تغتروا بالأمل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فانها غدّارة خدّاعة ، قد تزخرفت لكم بغرورها ، وفتنتكم بأمانيها ، وتزينت لخطّابها ، فأصبحت كالعروس المجلوّة :

---

(١) ج ١ ص ٢١٣ (٢) ج ١ ص ٢٣٤
(٣) ج ١ ص ٢٠٧

العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها عاكفة ، والنفوس لها عاشقة ، فكم من عاشق لها قد قتلت ، ومطمئن إليها خذلت ، فانظروا اليها بعين الحقيقة ، فإنها دار كثرت بوائقها ، وذمها خالقها ، جديدها يبلى ، ومالكها يفنى ، وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، وحيها يموت ، وخيرها يفوت ، فاستيقظوا من غفلتكم ، وانتبهوا من رقدتكم ، قبل أن يقال : فلان عليل ، أو مدنف ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ، أو على الطبيب من سبيل ، فيدعى لك الأطباء ، ولا يرجى لك الشفاء ، ثم يقال : فلان أوصى ، ولماله أحصى ، ثم يقال : قد ثقل لسانه ، فما يكلّم إخوانه ، ولا يعرف جيرانه ، وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك ، وثبت يقينك ، وطمحت جفونك ، وصدقت ظنونك ، وتلجلج لسانك ، وبكى إخوانك ، وقيل لك : هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان ومنعت الكلام فلا تنطق ، ثم حلّ بك القضاء ، وانتزعت نفسك من الأعضاء ، ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك ، وأحضرت أكفانك ، فغسلوك وكفنوك ، فانقطع عوّادك ، واستراح حسادك ، وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتهناً بأعمالك (١) »

وما نريد أن نطيل فى بيان ما غنم الأدب من تبرم الصوفية بدنيا الناس فقد عقدنا لذلك فصلاً موجزاً فى القسم الأول بينّا فيه كيف أولع الصوفية بتصوير الدنيا ، وكيف لوّنوها وعرضوها فى مختلف التشبيهات . . . .

ولننصّ فى هذا المقام على أن ما قالوه حق ، فالدنيا سخيفة لا ثبات لنعيمها ولا بقاء ، ولكن الاصرار على إحقاق هذا الحق ، والدوران حوله من

(١) نهاية الأرب ج ٥ ص ٢٥١

وقت إلى وقت ، أو تمثله فى أغلب الأحوال ، انما هو من أوهام النفوس العليلة التى يتراءى لها شبح الموت فى كل حين . والموت حق ، ولكن الحياة أيضاً حق ، والشغل بها من دلائل الفتوة الجسمية والعقلية والروحية ، واليها المرجع فى تصوّر النعيم المأمول ، وعلى ما فيها يقاس ما سيكون فى دار البقاء

٨ — وهناك مشكلة اختلف فى حلها الصوفية ، وهى حال الرجل الغنىّ الذى يؤدى حقوق الغنى فينفق فى وجوه الحلال ويتصدق على الفقراء والمساكين ، فقد قال رجل للحسن البصرى : ما تقول فى رجل آتاه الله مالا فهو يتصدق منه ، ويصل منه ، أيحسن له أن يتعيّش فيه — يعنى يتنعم — فقال : لا ، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ، ويقدم ذلك ليوم فقره (١)

فالحسن يقاوم التنعم ، وينهى عنه الأغنياء الذين يؤدون حقوق المال

أما أبو حازم المدنى فيقول بغير ذلك فى شيء من الرفق ، فقد قال له رجل : أشكو اليك حب الدنيا وليست لى بدار . فقال : أنظر ما آتاكه الله عزّ وجلّ منها ، فلا تأخذه إلا فى حله ، ولا تضعه إلا فى حقه ، ولا يضرك حب الدنيا (٢)

وهذا جواب حكيم ، ولكن الغزالى يأبى إلا التعقيب عليه فيقول : وانما قال هذا لأنه لو آخذه بذلك لأتعبه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها (٢)

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ٢٠٩ (٢) ص ٢٠٧

وهذا التعقيب يعيّن مذهب الغزالى فى الزهد ، وجوهره يدل على ما كان عند أبى حازم من حكمة وعقل ، فإن الأغنياء الذين يؤدون حقوق الغنى هم ظل الله فى الأرض ، وهم أهل الحرث وأرباب العمران ، والحكم عليهم بالانحراف عن جادة الحق فيه تيئيس وتثبيط وتعويق ، والصوفية لا يستكثر عليهم أن يسرفوا فى التزهيد ، وإن كانوا يتلطفون أحيانا ، فقد نقل الغزالى قول أبى سليمان الدارانى : إذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزحمها فاذا كانت الدنيا فى القلب لم تزحمها الآخرة ، لأن الآخرة كريمة ، والدنيا لئيمة . ثم قال : وهذا تشديد عظيم ، ونرجو أن يكون ما ذكره سيّار بن الحكم أصحّ إذ قال : الدنيا والآخرة تجتمعان فى القلب ، فأيهما غلب كان الآخر تَبَعاً له . وقال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدنيا يخرج همّ الآخرة من قلبك . وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك (١)

وفى هذا الحكم اعتدال ، وهو يقضى بأن الدنيا خليقة بالحب ، وليس فى حبها ما يعيب ، على شرط أن لا تكون هى الغالبة ، وأن يكون ما فيها من الطيبات وسيلة لصالح الأعمال

٩ — وقد وضع الغزالى علائم واضحة للمحمود والمذموم من الشؤون الدنيوية ، ويتلخص كلامه المطول فى الفقرة الآتية :

ليس كل ما تميل اليه بمذموم بل هو ثلاثة أقسام : الأول ما يصحبك فى الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت ، وهو شيئان العلم والعمل فقط ، والعلم هنا هو العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ٢٠٩

وسمائه والعلم بشريعة نبيه ، والعمل هو العبادة الخالصة لوجه الله . والقسم الثانى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له فى الآخرة كالتلذذ بالمعاصى والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات . والقسم الثالث متوسط بين الطرفين وهو كل حظ عاجل يعين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن وكل ما لا بد منه ليتأتى للأنسان البقاء (١)

وهذا الكلام فى ذاته مقبول . ولكنه ينتهى إلى غاية واحدة : هى أن يكون الإنسان كُتْلةً خُلقية لا يتقدم ولا يتأخر إلا وَفْقاً لسياسة روحية ضيقة المسالك . ومن الجميل أن يكون الإنسان كتلة خلقية ، وأن يكون له فى كل خطوة هاد من القلب والوجدان ، ولكنى أخشى أن يكون فى ذلك ما يهدم جانباً من دعائم الأخلاق ، فالنفس قريبة الشبه بالشجرة الصغيرة التى تحيا بالحرية فى مكافحة الهواء ، ويؤذيها أن يرعاها الجنَّان فى كل لحظة ، وأن لا يَدَعَها بغير سناد ، وكذلك تخمد النفس حين تُسْأل عن كل شىء ، فلا تقرب الطعام إلا لغرض ، ولا تباشر اللباس إلا لغرض ، ولا تنظر فى كتاب إلا بعد أن تميز لأى غاية ألف ، ولا تصحب أحداً إلا بعد أن تستوثق من الطهر فى قصده المكنون

لقد أسرف الصوفية فى ذم الدنيا وأهلها ، وأسرفوا فى الدعوة إلى التحرر منها ، ولو كانوا أصحاء لآثروا الاعتدال .

---

(١) انظر الصفحات ٢٢٠ — ٢٢٥ ج ٣

المقامات والأحوال

ما هو المقام وما هو الحال فى اصطلاح الصوفية — أهمية المقامات والأحوال فى تصوير الشخصية الخلقية — عقل العصر الحاضر والحياة الروحية — مقام التوبه — مقام الصبر — مقام الشكر — مقام الرجاء — مقام الخوف — مقام الرضا — مقام الزهد — مقام الفقر — مقام الورع — حال المراقبة — حال القرب — حال الحب — حال الشوق — حال الأنس — حال الطمأنينة — حال اليقين — درجات العشق ونقلها الى التصوف .

١ — المقامات جمع مقام بالتذكير وهو الخطبة أو العظة يلقيها الرجل فى حضرة الخليفة أو الملك ، وقد عقد ابن قتيبة فصلا فى المجلد الثانى من عيون الأخبار سماه (مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك) وقد تؤنث كقول بديع الزمان فى أحد الواعظين (فاصبر عليه إلى آخر مقامته ، لعله ينبىء بعلامته) [١] والمقام فى الأصل المجلس ، ففى القرآن (أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً) وفى شعر زهير :

وفيهم مقامات حسان وجوههم   وأندية ينتابها القول والفعل

والمقام أيضاً الموقف العصيب . قال لبيد :

ومقام ضيّق فرّجتهُ   بكلام وبيان وجدل

لو يقوم الفيل أو فيّالهُ   زلّ عن مثل مقامى وزحل

أما الصوفية فالمقام عندهم معناه : مقام العبد بين يدى الله عزّ وجل فيما

(١) مقامات بديع الزمان ص ١٤٣

يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله تباركت أسماؤه ، ومنه آية القرآن (ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) (١)

أما الحال فنازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم ، والفرق بين المقام والحال أن المقام يكتسب بطريق المجاهدات والعبادات والرياضات ، وأن الحال يأتى من فيض الله ، وقد أفصح الجرجانى عن ذلك حين قال :

« الحال عند أهل الحق معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أوقبض أو بسط أوهيئة ، ويزول بظهور صفات النفس سواء يعقبه المثل أو لا ، فاذا دام وصار ملكا يسمى مقاماً ، فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتى من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود (٢) »

٢ — ودرس المقامات والأحوال يصور لنا فهم الصوفية للحياة الخلقية ، وهم يرون الإنسان بين حالين : الأول حال المجاهدة ، والثانى تلقى الفيض ، فالشخصية الخلقية لا تنفك تجاهد الأهواء والشهوات ، ولا تزال موجّهة القلب إلى النفحات الروحانية ، فهى فى شغل موصول بمواجهة أسباب الصفاء .

وأثر التصوف من هذه الناحية عظيم جداً فى الأخلاق ، فالرجل المتصوف يحاسب نفسه فى كل لحظة ، ويتلمس مواقع الفيض فى كل لحظة ، وهذه الشواغل الدائمة قد تكون مما يصرف النفس عن التوجه لما يجدّ فى عالم المحسوسات والمعقولات ، وتصير الرجل من أهل الوسواس فى تعقب

(١) اللمع ص ٤١ (٢) التعريفات ص ٥٥

ما كان وانتظار ما سيكون من أعمال القلب والوجدان ، ولكنها عند الاعتدال تخلق من المرء قوة خلقية تنفع فى توجيه الإرادة إلى الصالح من الأعمال.

وعقل العصر الحاضر لا يفهم هذه الوسوسة الروحية ، لأنه اندفع فى التيارات الواقعية ، فلم يعد يدرك ما فى هذه الوسوسة من الصدق والجلال . وأغلب الظن أن القلق فى عالم العيش هو الذى ضيّق الخناق على المعانى الروحية ، لأنها فى نظر العقل الحاضر لا تقدم إلى أصحابها شيئاً من البخار أو البنزين ، والتصوف لا ينمو إلا فى البيئات التى خفّت أثقالها فى عالم العيش ، واستطاعت أن تغمض الجفون ولو لحظات لتنظر ما يجرى فى دنيا الوجدان

ونشهد أننا نجد مشقة فى تقريب تلك السياسة النفسية من عقل هذا الزمان ، ولكن ما حاجتنا إلى ذلك ؟ نحن نؤرخ بعض المذاهب الفلسفية ، والمؤرخ لا يجمل به أن يشغل نفسه بالتحسين والتقبيح ، وانما يجب عليه أن يقدم الصور الصحيحة لما وقع فى التاريخ

ولنواجه المشكلة بعزم وصراحة فنقول إن تلك السياسة الصوفية أضرت من وجه وأحسنت من وجوه ، أضرت حين قصرت الشخصية الخلقية على الحياة الفردية ، وقضت بأن يصم الرجل أذنيه فى أكثر الأحيان عما يجرى فى المجتمع من أخبار الجد والابداع ، وأحسنت حين ربطت مصير الفرد بمجاهدة الأهواء ، ومحاربة الشهوات ، وأقنعته أن لا غنى اه عن ترقب الفيض الإلهى فى جميع اللحظات ، وراضته على احتقار المغانم الدنيوية ،

والايمان بأن المغنم الحق هو الاتصال بالمبدع الأول الذى وهب الروح لكل موجود ، وصير العالم كتلة من الكهرباء

٣ — ولنأخذ فى شرح المقامات فنذكر أن المقام الأول هو التوبة النصوح وهى ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح ، وإضمار أن لا يعود التائب إلى الذنب (١)

وجملة ما على العبد فى التوبة وما تعلق بها عشر خصال : أولها أن لا يعصى الله تعالى . والثانية أن لا يصرّ إذا ابتلى بمعصية . والثالثة التوبة إلى الله تعالى منها . والرابعة الندم على ما فرط منه . والخامسة عقد الاستقامة على الطاعة إلى الموت . والسادسة خوف العقوبة . والسابعة رجاء المغفرة . والثامنة الاعتراف بالذنب . والتاسعة اعتقاد أن الله قدر عليه ذلك وأنه عدل منه . والعاشرة المتابعة بالعمل الصالح ليكفر عما تقدم من السيئات (٢)

وهذه الخصال تشهد بأن الصوفية يرون المرء مجرداً من الحول والقوة ، فهو يذنب بقدر ، ويتوب بقدر ، ومن واجبه أن يؤمن بأن الله كتب عليه الذنب ، وأن ذلك من الله عدل ، ومن واجبه أن يخاف العقوبة ويرجو المغفرة ، وأن ينوى الاستقامة على الطاعة الى الموت

وقليل من الانصاف يكفى لاعلان أن هذه اللمحة من أهم الدعائم فى الحياة الخلقية ، فكل تردد فى التوبة هو فى بناء الخلق صدع وانحلال ، وكل صدق فى التوبة هو حجر متين فى تقوية الشخصية الخلقية .

ومن علامة صدق التائب فى توبته أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة

---

(١) قوت القلوب ج ٢ ص ٦٥
(٢) القوت ج ٢ ص ٦٧

الطاعة[١] ولا تصحّ للتائب توبة الا بأكل الحلال ، ولا يقدر على الحلال حتى يؤدى حق الله تعالى فى الخلق ، وحق الله تعالى فى نفسه . ولا يصحّ له هذا حتى يبرأ من حركته وسكونه الا بالله تعالى وحتى لا يأمن الاستدراج بأعماله الصالحات[٢]

ومن شرط التوبة أنه ينبغى للتائب المنيب أن يبدأ بمباينة أهل المعاصى ثم بنفسه التى كان يعصى الله تعالى لها فلا ينيلها إلا ما لا بدّ منه ، ثم الاعتزام على أن لا يعود فى معصية أبدا ، ويلقى عن النـــاس مؤونته ، ويدع كل ما يضطره الى جريرة[٢]

وينبغى لأهل التوبة أن يحاسبوا نفوسهم فى كل طرفة ، ويدعوا كل شهوة ، ويتركوا الفضول ، وهى ستة أشياء : ترك فضول الكلام ، وترك فضول النظر . وترك فضول المشى ، وترك فضول الطعام ، والشراب واللباس[٢]

ولا تنظر ، أيها التائب ، الى صغر الخطيئة ، ولكن انظر إلى من عصيت[٢] ، فقد كانت الصغائر عند الخائفين كبائر ، وكان من الصحابة من يقول : إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم من الموبقات[٢]. وليس معنى ذلك أن الكبائر التى كانت على عهد النبى صارت بعده صغائر ، ولكن معناه أنهم كانوا يستعظمون الصغائر لعظمة الله تعالى فى قلوبهم ، ولم يكن ذلك الوجدان فى قلوب من بعدهم من المؤمنين .

واختلف الصوفية فى نسيان ما سلف من الذنوب ، فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك ، وقال آخر : حقيقة التوبة أن

---

(١) القوت ج ٢ ص ٦٨ (٢) القوت ج ٢ ص ٦٩

تنسى ذنبك . وهذان طريقان لطائفتين ، وحالان لأهل مقامين ، فأما ذكر الذنوب فطريق المريدين وحال الخائفين ، وأما نسيان الذنوب فطريق العارفين وحال المحبين (١) .

ونحن نرجح الرأى الثانى ونرى الأخذ به فى جميع الأحوال ، فان تذكر الذنوب الماضية يشلّ العزيمة ويفتّ فى عضد التائب ، ويخلق جواً جديداً للتعرف إلى ما سلف من الذنوب ، وهو فوق ذلك جهد ضائع وشغل للقلب بما لايفيد . وإقامة المناحات على الهفوات الماضية علالة سخيفة يتوهم فريق من الناس أنها تزيد فى طهر القلوب ، وهى فى عالم الأخلاق تشبه بعض ما يقع فى عالم القضاء ، فلو كان يصح للقضاة أن يتعقبوا ماضى الناس ليأخذوهم بهفوات قدم عليها العهد لاختل الميزان ، وذهب جمال الحاضر ، وزهد الناس فى فضل المتاب ، فان الأصل فى التوبة أن تكون حجازاً بين عهدين ، وأن يصبح التائب وكأنه مولود جديد ، ولا ننسى أن اجترار الذكريات الماضية سيء الأثر فى نظام الأعصاب ، وهو خليق بأن ينتهب العافية ويضيع جمال الساعة الحاضرة ، وهى العدة الخلقية فى نظام الأعمال .

ولا يقف الصوفية عند التوبة من الذنوب ، لأنها فى رأيهم توبة العوامّ بل يدعون إلى التوبة من الغفلة ، وهى عندهم توبة الخواص « فأما لسان أهل المعرفة والواجدين وخصوص الخصوص فى معنى التوبة فهو ماقاله أبو الحسين النورى رحمه الله حين سئل عن التوبة فقال : التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله تعالى ، والى هذا أشار الذى أشار بقوله : ذنوب المقربين حسنات

(١) القوت ج ٢ ص ٧٠

الأبرار ، وهو ذوالنون ، والذى قال أيضاً : رياء العارفين إخلاص المريدين فشتان بين تائب وتائب ، فتائب يتوب من الذنوب والسيئات ، وتائب يتوب من الزلل والغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات(١) » .

٤ — المقام الثانى مقام الصبر ، وهو مقام شريف ، وقد جعله على بن أبى طالب ركناً من أركان الايمان ، فقال : بنى الإسلام على أربع دعائم : على اليقين والصبر والجهاد والعدل (٢) ، وروى عن النبى أنه قال : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحب إلىّ من أن يوافينى كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضاً ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ، ثم قرأ : ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٢) ، وكان سهل يقول : أفضل منازل الطاعة الصبر عن المعصية ، ثم الصبر على الطاعة . . . وقال : الصالحون فى المؤمنين قليل ، والصادقون فى الصالحين قليل ، والصابرون فى الصادقين قليل ، فجعل الصبر خاصية للصدق ، وجعل الصابرين خصوص الصادقين (٣) وقد قال بعض العلماء : ما كنا نعد إيمان من لم يؤذَ فيحتمل الأذى ويصبر عليه إيماناً (٤) وقد قال الله تعالى فى جزاء المخلصين (أولئك لهم رزق معلوم) وقال تعالى فى جزاء الصابرين (إنما

---

(١) اللمع ص ٤٤ (٢) القوت ج ٢ ص ٧٨

(٣) القوت ج ٢ ص ٨٨ (٤) ص ٧٩

يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) قيل فى التفسير : يغرف لهم غرفاً ، والمعنى فى ذلك أن الصبر أشق على النفس ، وأمرّ على الطبع ، ويصعب فيه الألم والكظم عند الذل والضيم . ومنه التواضع والكتم ، وفيه الأدب وحسن الخلق ، وبه يكون كف الأذى عن الخلق ، واحتمال الاذى من الخلق ، وهذه من عزائم الأمور ، التى يضيق منها أكثر الصدور (١) .

وللصوفية فى الصبر كلام كثير . حدّث السراج الطوسى قال : وقف رجل على الشبلى رحمه الله فقال له : أى صبر أشدّ على الصابرين ؟ فقال : الصبر لله . فقال الرجل : لا ، فقال : الصبرمع الله ، فقال : لا. فغضب الشبلى رحمه الله وقال : ويحك ، فأيش ؟ فقال الرجل : الصبر عن الله عزّ وجلّ . فصرخ الشبلى رحمه الله صرخة كادت تتلف روحه (٢) قال : وسألت ابن سالم بالبصرة عن الصبر فقال : على ثلاثة أوجه : متصبر وصابر وصبّار، فالمتصبر من صبر فى الله تعالى ، فمرة يصبر على المكاره ، ومرة يعجز ، والصابر من يصبر لله وفى الله ، ولا يجزع ، وأما الصبار فذاك الذى صبره فى الله ولله وبالله ، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يعجز ولا يتغير ، من جهة الوجوب والحقيقة ، لا من جهة الرسم والخليقة (٣) وكان الشبلى يتمثل بهذه الأبيات إذا سئل عن الصبر

عبرات خططن فى الخد سطراً   قد قراها من ليس يحسن يقرا
إن صوت المحب من ألم الشو   ق وخوف الفراق يورث ضرّا
صابر الصبر فاستغاث به الصبـــر   فصاح المحب بالصبر صبرا

---

(١) القوت ج٢ ص ٩٠   (٢) اللمع ص ٤٩   (٣) اللمع ص ٥٠

وعناية الصوفية بالصبر تمثّل جانباً هاماً من تصورهم لكرائم الخلال ، فالصبر فى جوهره من عناصر الشجاعة فى مقاومة الشدائد ، والشدائد قد تكون حسّية وقد تكون عقلية . والصبر عنصر أصيل فى الحياة الخلقية ويظهر فضله فى كل باب من أبواب العيش : فيكون فى العبادات ، وفى طلب العلم ، وفى الصناعات ، وفى معاملة الناس ، ويكون فى الصحة وفى المرض ، وفى الحب وفى البغض ، وفى النعيم وفى البؤس . ورياضة النفس على الصبر هى ذاتها من مصادر العافية فى عالم الأخلاق .

والصوفية يتمثلون الصبر فى صور جذابة تفصح عنها الحكاية الآتية :

حكى عن ذى النون أنه قال : دخلت على مريض أعوده ، فبينما كان يكلمنى أنّ أنّة ، فقلت له : ليس بصادق فى حبه من لم يصبر على ضربه . فقال المريض : بل ليس بصادق فى حبه من لم يتلذذ بضربه (١)

فالصابر على هذا الوجه يتلقى المكاره بالقبول ، ويراها من نعم الله ، وعند التأمل نرى العناية الالهية تسوق الينا الشدائد لحكمة عالية ، والجاهل هو الذى يضجر ويحزن ويكتئب ، أما العاقل فيلتمس وجوه الخير فيما يبتليه الله به من الشدائد ، وقد جربنا فرأينا النقم تساق لمنافع مستورة نجهلها كل الجهل ، ثم تظهر رويداً رويداً فنرى الخيرة فيما اختاره الله ، ونندم على ما أسلفنا من الحزن والاكتئاب

إن التخلق بخلق الصبر على هذا الوجه من أهم الدعائم فى بناء الأخلاق ، وأقل مزاياه أن يورثنا ابتسامة دائمة ندفع بها ما قد نفجع به من آلام

---

(١) اللمع ص ٥٠

وخطوب . والخلق الصحيح هو الذى يورثك رباطة الجأش حين تثور الأنواء ، ويمنحك السيطرة على الحوادث ، ويومض لك ببريق الفوز فى حلك البأساء .

٥ — ويميل أكثر الصوفية إلى تفضيل الصبر على الشكر ، لأن الصبر حال البلاء ، والشكر حال النعمة ، والبلاء أفضل لأنه على النفس أشق [١] وعند أكثرهم أن الصابر العارف أفضل من الشاكر العارف ، لأن الصبر حال الفقر والشكر حال الغنى ، فمن فضل الشكر على الصبر فى المعنى فكأنه قد فضّل الغنى على الفقر . قال المكى : وليس هذا مذهب أحد من القدماء ، انما هذه طريقة علماء الدنيا .. فان من فضل الغنى على الفقر فقد فضل الرغبة على الزهد . والعز على الذل ، والكبر على التواضع . وفى هذا تفضيل الراغبين والأغنياء على الزاهدين والفقراء ، ويخرج ذلك إلى تفضيل أبناء الدنيا على أبناء الآخرة . وانما فضلنا الصبر على الشكر فى الجملة والمعنى لأن الصبر حال من مقامه البلاء ، وأهل البلاء هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء . ولأن الصبر أبعد من أهواء النفوس ، وأقرب إلى الضر والبؤس ، وأشد فى مكاره النفوس وأنفر لطباعها وأشد مباينة لما يلائمها [٢]

وهذا الكلام يمثل اتجاه الصوفية فى أكثر ضروب الحياة ، فالجانب الأقرب إلى البؤس والخمول هو عندهم أقرب إلى الطاعة والصفاء ، والظاهر أنهم لم يتنبهوا كل التنبه إلى قيمة الشكر فى الغنى ، ولو فطنوا له لعرفوا أن الشكر على الغنى يفرض على صاحبه مكاره قد تكون أصعب من الصبر على

---

(١) القوت ج ٢ ص ٩٦ (٢) ص ٩٨

البلاء. فالشكر على الغنى ليس كلمة تسهل فتقال ، ولكنه جهاد عنيف يلقى فيه الأغنياء بلايا من حرب النفس ، وليس من القليل أن ينتصر الغنيّ على نزواته وأهوائه وأطماعه فيؤدى حقوق الجاه وحقوق المال ، ويعيش عيش الأصفياء الذين لا يعرفون غير الحلال

٦ – على أن من الصوفية من فضل الشكر على الصبر ، فقد قال مطرّف ابن عبد الله : لأن أعافى فأشكر ، أحب إلىَّ من أن أبتلى فأصبر ، لأن مقام العوافى أقرب إلى السلامة ، فلذلك أختار الشكرَ على الصبر ، لأن الصبر حال أهل البلاء (١)

وصاحب هذا الكلام يرى العافية من أبواب السلامة ، أى سلامة النفوس ، لأن البلاء قد يعرض النفس للجزع والارتياب ، وتعريض النفس للفتنة غير مأمون العواقب ، أما العافية فتحفظ توازن النفس ، وتجعل الرجل قادراً على صالح الأعمال

والحق أن الإنسان يكابر حين يرحب بالمصائب ، لأنه أسير لنظام الأعصاب فى أكثر الأحيان ، ومن الخير له أن يسأل الله العافية ، وأن يتجنب التعرض للامتحان ، فقد يضعف عن مواجهة ما يشتهى من المصاعب ، ويعرف بعد الانزلاق فى هوة المكاره أن العزيمة قد تفتر أو تخون

وعند التأمل نرى النعم والعوافى تزيد فى الصلة الروحية بين الانسان وبين ربه ، والفرق بعيد بين الحالين ، حال الطمأنينة وحال الاحتساب ،

---

(١) القوت ج ٢ ص ١٠٥

فالمطمئن ينظر الى ربه نظرة المدين ، وهى نظرة كلها ترفق وتخشّع ، أما الصابر المحتسب فيتعرض للزهو بالصبر على ما يعانى، والزهو من أشدّ آفات النفوس[1].

٧ — وهناك مقام الرجاء. والرجاء هو اسم لقوة الطمع فى الشىء بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشىء ، ولذلك أقام الله تعالى الطمع مقام الرجاء فى التسمية ، وأقام الحذر مقام الخوف ، فقال : يدعون ربهم خوفا وطمعا[٢] والرجاء من أوصاف المؤمنين ، ولا يصح الايمان إلا به ، كما لا يصح الايمان الا بالخوف ، فالرجاء بمنزلة أحد جناحى الطائر ،وهو لا يطير الا بجناحيه ، كذلك لا يؤمن من لا يرجو من آمن به ويخافه ، وهو أيضا مقام من حسن الظن بالله تعالى وجميل التأميل له ، وقد أوصى به الرسول فقال : لا يموتنّ أحدكم الا وهو حسن الظن بالله تعالى لأنه قال : أنا عند ظنّ عبدى بى ، فليظنّ بى ماشاء[٢] ومن علامة صحة الرجاء فى العبد أن يكون الخوف باطنا فى رجائه ، لأن من تحقق برجاء شىء خاف فوته لعظم المرجوّ فى قلبه وشدة اغتباطه به ، فهو لا ينفكّ فى حال رجائه من خوف فوت الرجاء. والرجاء هو ترويحات الخائفين ، ولذلك سمت العرب الرجاء خوفا ، لأنهما وصفان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، ومن مذهبهم اذا كان الشىء لازما لشىء أو وصفا له

---

(١) من كلام القدماء « لا يصبر على مرارة الصبر الا صادق ، ولا يصبر على حلاوة الشكر الا صديق » ومن كلام بعض الصحابة « ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر » أنظر اليافعى فى هامش جامع الكرامات ج ٢ ص ٣١٤

ومعنى هذا أن السراء بلية ، وانما كانت كذلك لأن شكرها يحتاج الى جهاد .

(٢) القوت ج ٢ ص ١١٨

أو سببا منـه أن يعبروا عنـه به ، فقالوا : مالك لا ترجو كذا وهم يريدون مالك لا تخاف[١] .

وللصوفية كلام كثير جداً فى الرجاء ، واهتمامهم به هو أيضا من دعائم الأخلاق ، لأن المذنب الذى لا يرجو ربه فى قبول المتاب ينقلب الى قوة يائسة خطرة لا يرجى لها صلاح ، ولا ينتظر منها نفع ، وانقطاع الصلة بين المرء وبين ربه هو أقصى غايات الفساد . وتخويف المرء من ربه له حدود ، ولا ينبغى أن يصل الخوف الى اليأس : فان التربية التى تقوم على الخوف المطلق تربية فاسدة ، لأنهـا تطمس أصول النور فى القلب ، وتمنع عناصر الخير من النهوض ، ففى كل إنسان عواطف غافية تنتظر لحظات التيقظ والانتباه ، والرياضة الصحيحة هى التى تعنى بايقاظ ما غفا من عواطف الخير والبر والرشاد .

٨ — ومع أن الصوفية يوصون بالرجاء ، فهم أيضا يوصون بالخوف ، ويرون أن المحب لا يسقى كأس المحبة الا من بعـد أن ينضج الخوف قلبه وكل مؤمن بالله تعالى خائف منه ، ولـكن خوفه على قدر قربه[٢] والخوف نوعان : خوف العموم وهو أن يحفظ رأسه وما حواه من السمع والبصر واللسان ، وأن يحفظ بطنه وما وعاه وهو القلب والفرج واليد والرجل ، فأما خوف الخصوص فهو أن لا يجمع ما لا يأكل ، ولا يبنى ما لا يسكن ، ولا يكاثر فيما عنه ينتقل ، وهذا هو الزهد[٣]

(١) أنظر بقية هذا الـكلام فى القوت ج ٢ ص ١٢٠

(٢) ص ١٣٤ (٣) ص ١٣٥

والصوفية يرون الخوف ملاك الحياة الخلقية ، فسر بعضهم هذه الآية « خلق الموت والحياة ليبلوكم » فقال : يبلوكم بتقليب القلوب فى حال الحياة بخواطر الذنوب ، وفى حال الموت بالحياد عن التوحيد ، فمن خرجت روحه على التوحيد وجاوزت البلاوى كلها الى المبلى فهو المؤمن ، وذلك هو البلاء الحسن ، كما قال الله تعالى « وليبلى المؤمنين منه بلاءاً وحسنا » فهذه المعانى من العلوم أوجبت خوف الخائفين من علم الله تعالى فيهم ، فلم ينظروا معها الى محاسن أعمالهم ، لحقيقة معرفتهم بربهم(١)

والخوف عند العلماء على غير ما يتصور فى أوهام العامة ، وخلاف ما يعدونه من القلق والاحتراق أو الوله والانزعاج ، لأن هذه خطرات وأحوال ومواجيد للوالهين ، وليست من حقيقة العلم فى شىء ، وانما الخوف اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة ، فان أعطى عبد حقيقة العلم وصدق اليقين سمى هذا خائفا ، ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم من أخوف الخلق لأنه كان على حقيقة العلم ، ومن أشدهم حبا لله تعالى لأنه كان فى نهاية القرب (٢) .

وليس لدينا من الأنوار الروحانية ما نستطيع به شرح هذه الاشارة وهى تبدو لنا فى غاية من العمق ، ويكفى أن نقول إنها تقسم الخائفين الى طائفتين : طائفة تخاف العذاب فتقاسى أهوال المخاوف الحسيّة ، وطائفة يكمن خوفها فى حقيقة العلم وصدق اليقين ، ولا يظهر عليها جزع ولا هلع ولا إشفاق .

---

(١) القوت ج ٢ ص ١٤٥ (٢) ص ١٤٩

ويخيّل الىّ أن تفسير هذا الخوف يتمثل فى طمأنينة من يعلم فيقف عند الواجب ، ولا يعرّض نفسه لزيغ ولا إثم ولا فسوق ، ثم يترقى فى خوفه فيتحلى بأشرف ما يتحلى به المقربون ، وعندئذ تنتقل مظاهر الخوف من عالم الجسم إلى عالم الروح ، فتكون للعارف أشجان لا يدركها الا أهل الصفاء .

٩ — ويجىء بعد ذلك مقام الرضا ، والرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ، وهو أن يكون قلب العبد ساكنا تحت حكم الله عزّ وجلّ(١)

وأهل الرضا فى الرضا على ثلاثة أحوال : فمنهم من يعمل فى إسقاط الجزع بحيث يستوى عنده ما يجرى عليه من حكم الله ، من المكاره والشدائد والراحات والمنع والعطاء ، ومنهم من يذهب عن رؤية رضائه عن الله برؤية رضا الله عنه ، فلا يثبت لنفسه قدم فى الرضا ، وإن استوى عنده الشدة والرخاء والمنع والعطاء ، ومنهم من يجاوز هذا ويذهب عن رؤية رضا الله عنه ورضاه عن الله لما سبق من الله تعالى لخلقه من الرضا(٢) والمتأمل يرى فى هذا المقام قاعدة متينة من أصول الأخلاق ، فالتسليم لله من أدب النفس ، وهو يطرد عن القلب نوازع كثيرة يخلقها التفكير فى النصيب الحاضر من حظوط الحياة ، ومن الواضح أن هذا المقام يحتاج الى رياضة شديدة ، لأن الرضا لا يكون الا بعد تطهير القلب من الوساوس النفسية .

وهو بالتأكيد من أسباب الاطمئنان ، والطمأنينة أكبر الغنائم فى الحياة الخلقية . وقد يقال إن الرضا المطلق يبعث على البلادة ويغرى النفس بإيثار الركود ، ونجيب بأنه لا تنافى بين الرضا بالواقع وبين الرغبة فى تكميل النفس

---

(١) اللمع ص ٥٣ (٢) اللمع ص ٥٤

وإمدادها بما تحتاج اليه من الأغذية الدنيوية والعقلية والروحية .

١٠ — ومن أهم المقامات مقام الزهد « وهو أساس الأحوال الرضية ، والمراتب السنية ، وهو أول قدم القاصدين الى الله عز وجل والمنقطعين الى الله والراضين عن الله والمتوكلين على الله تعالى ، فمن لم يُحكم أساسه فى الزهد لم يصح له شىء مما بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد فى الدنيا رأس كل خير وطاعة (١) » .

والمراد هو الزهد فى الحـــلال الموجود ، وأما الحرام والشبهة فتركه واجب(١) والزهاد على ثلاث طبقات فمنهم المبتدئون وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم ، ومنهم المتحققون فى الزهد وهم الذين تركوا حظوط النفس من جميع ما فى الدنيا ، وانما كان هذا زهد المتحققين لأن الزهد فى الدنيا فيه حظ للنفس هو الثناء والمحمدة واتخاذ الجاه عند الناس ، فمن زهد بقلبه فى هذه الحظوظ فهو متحقق فى زهده ، أما الفرقة الثالثة فهى التى تزهد فى الزهد ، ويمثلها قول الشبلى : الزهد غفلة ، لأن الدنيا لاشىء ، والزهد فى لا شىء غفلة (٢).

وقد يبدو لنا هذا القول غريباً أشد الغرابة ، ولـكن مايهمنا ؟ نحن نؤرخ فـكرة فلسفية فيها الواضح والغامض ، والمقبول والمردود ، وليس من المستبعد أن تمر بالنفس لحظات تؤمن فيهـا بأن الخلق كل الخلق أن يعتقد المرء أن الدنيا لا شىء ، ومن التجنى أن نطلق القول بأن هذه النزعة علامة مرض ،

---

(١) اللمع ص ٤٦ (٢) اللمع ص ٤٧ وهناك أثر يقول (ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس)

فقد تكون حيناً من علائم العافية ، ومن العدل أن نقضى بأن الخلق السليم قد يوجب الطمع حيناً ، والزهد حيناً ، يوجب الطمع حين يستطيع المرء أن يوجّه منافع دنياه وجهة الخير والشرف ، ويوجب الزهد حين يخشى المرء أن تسير به دنياه إلى مزالق البغى والعدوان

ونشهد صادقين بأننا نحار فى تعليل هذه المقامات أشد الحيرة ، ونخاف فى أحوال كثيرة من عواقب التجنى على الصوفية ، ففى منافع العيش خير وشرف وجمال ، ولكن فيها أحياناً شرّ وضعة وقبح ، والذى يمشى على صراط الخلق يتذكر الصراط الذى وصفوه بأنه أدق من الشعرة وأحدّ من السيف

١١ — ويأتى بعد مقام الزهد مقام الفقر ، وهو عند الصوفية مقام شريف ، يؤيدهم فيه قول الرسول : الفقر أزين بالعبد المؤمن من العذار الجيد على خد الفرس[١] وقد وصفه الخوّاص فقال : الفقر رداء الشرف ، ولباس المرسلين ، وجلباب الصالحين ، وتاج المتقين ، وزين المؤمنين ، وغنيمة العارفين ، ومنية المريدين ، وحصن المطيعين ، وسجن المذنبين[١]

والفقراء على ثلاث طبقات : فمنهم من لا يملك شيئاً ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئاً ، ولا ينتظر من أحد شيئا ، وإن أعطى شيئاً لم يأخذ وهذا مقام المقربين ، ومنهم من لا يملك شيئاً ولا يسأل أحداً ولا يطلب ولا يعرّض ، وإن أعطى شيئاً من غير مسألة أخذ ، ومنهم من لا يملك شيئاً وإذا احتاج انبسط إلى بعض إخوانه ممن يعلم أنه يفرح بانبساطه اليه[١]

---

(١) اللمع ص ٤٨

ونحن فى هذا المقام نواجه شخصية « الدرويش » وهى شخصية نمقتها أشد المقت ، لأنها حرب على الأخلاق ، وتنتهى إلى إيثار الهرب من تكاليف الحياة . فالفقير الأول الذى لا يملك ولا يطلب ولا يقبل ليس إلا صورة خيالية ، والأمعاء لم تخلق عبثاً ، وانما هى جنود تقوم بوظائف حيوية لا يمترى فيها إلا المكابرون . والفقير الذى لا يملك ولا يطلب ثم يقبل هو من الشخصيات الضعيفة الحول فى هذه الحياة ، والفقير الذى لا يملك ثم ينبسط إلى إخوانه حين يحتاج هو إنسان رقيع ، والخير له أن ينبسط الى العمل والجدّ والكفاح فى ميادين الرزق الحلال

ولا ننكر أن الصوفية استطاعوا تزيين هذه الشخصيات ، فقد قال أبو على الروزبارى : سألنى أبو بكر الدقاق فقال : يا أبا على ، لم ترك الفقراء أخذ البلغة فى وقت الحاجة ؟ فقلت : لأنهم مشغولون بالمعطى عن العطاء ، فقال : نعم ، ولكن وقع لى شىء آخر فقلت : هات أفدنى ما وقع لك . فقال : لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود إذ الله فاقتهم ، ولا تضرهم الفاقة إذ الله وجودهم (١)

وهذا كلام طريف ، ولكن يجب أن تقف طرافته عند هذا الحد فلا تتعداه إلى وضع القواعد الخلقية ، وإلا سادت الفوضى وعمّ الكسل والجمود (٢)

---

(١) اللمع ص ٤٨

(٢) ومن أدب الفقر ما روى اليافعى بسنده قال : كان عندنا بمكه فتى عليه أطمار رثة ، وكان لا يداخلنا ولا يجالسنا ، فوقعت محبته فى قلبى ، ففتح لى بمائتى درهم من وجه حلال فحملتها اليه ووضعتها على طرف سجادته . وقلت إنه فتح لى ذلك من وجه حلال تصرفه فى =

١٢ — ومن المقامات الشريفة مقام الورع ، وهو ملاك الدين ، ومن الصوفية من يتورع عن الشبهات ، وهى ما بين الحرام البيّن والحلال البين وما لا يقع عليه اسم حلال مطلق ولا اسم حرام مطلق فيكون بين ذلك (١) ومنهم من يتورع عما يقف عنه قلبه ويحيك فى صدره ، وهذا لا يعرفه إلا أرباب القلوب . وهناك ورع العارفين والواجدين ، وهم الذين يرون أن كل ما يشغلك عن الله فهو مشئوم عليك (٢)

ومن أشرف ما قيل فى الورع قول أبى سعيد الخراز : الورع أن تتبرأ من مظالم الخلق ومن مثاقيل الذرحتى لا يكون لأحدهم قبلك مظلمة ولادعوى ولا طلبة (٣)

وهذا رأى سديد ، فنحن فى الأغلب ننسى حقوق الناس ، وهى كثيرة جداً ، يتصل بعضها بالسلوك ، وبعضها بالمعاش ، ولا يستطيع تحقيق الورع على هذا الوجه إلا الأقلون

١٣ — ومن شريف الأحوال المراقبة ، وأشرف أحوال المراقبة أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك (٣) ، أو أن تراقب الله وتسأله أن يرعاك ، فانه لا يكل خاصته فى جميع أحوالهم إلى نفوسهم ، ولا إلى أحد (٣) وقال ابن عطاء لبعض حكماء خراسان ممن قد ولع بالجهل

= بعض اموركـ، فنظر الى شزراً ثم قال: اشتريت هذه الجلسة مع الله سبحانه على الفراغ بسبعين الف دينار غير الضياع والمستغلات وتريد أن تخدعنى عنها بهذه ؟ وقام وبددها ، وقعدت ألتقطها ، فما رأيت كعزه حين مر ، ولا كذلى حين كنت ألتقطها (أنظر نشر المحاسن الغالية ج ٢ ص ٣١٧)

(١) اللمع ص ٤٤ (٢) ص ٤٥

(٣) اللمع ص ٥٥

وقارن التقشف : أوَ ما علمت أن ما تقارن بيدنك أقذار فى جنب ما تطالع بقلبك ، وما تطالعه بقلبك هباء فى جنب ما تراقب فى سرك ؟ فراقب الله فى سرك وعلانيتك فإنه خير مما تقارن من عملك وعبادتك

١٤ — وقد ينشأ عن المراقبة حال القرب وحال الحب ، أما القرب فسبيله الطاعة وصدق العبودية ، كما قيل :

تحققتك فى السرّ فناجاك لسانى
فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان
إن يكن غيّبك التعظيم عن لحظ عيانى
فلقد صيَّرك الوجد من الأحشاء دانى

وأما المحبة فسبيلها الأنس بالنعم الالهية ، والمحبون على ثلاثة أحوال ، فالحال الأول محبة العامة ، ويتولد ذلك من إحسان الله تعالى اليهم ، وعطفه عليهم ، وشرط هذا الحال صفاء الود مع دوام الذكر ، وموافقة القلوب لله وبذل المجهود ، والمبالغة فى الثناء على المحبوب . والحال الثانى يتولد من نظر القلب إلى جلال الله وعظمته وعلمه وقدرته ، وهو حب الصادقين ، وشرطه هتك الأستار ، وكشف الأسرار ، ومحو الارادات . وأما الحال الثالث فهو محبة الصديقين والعارفين ، وهى تتولد من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة ، فيحبونه كذلك بلا علة . وقد سئل ذوالنون فقيل له : ما المحبة الصافية التى لا كدرة فيها ؟ فأجاب : حب الله الصافى الذى لا كدرة فيه سقوط المحبة عن القلب والجوارح حتى لا تكون فيها المحبة ، وتكون الأشياء بالله ولله ، فذلك المحب لله

وحب الله من أهم القواعد فى بناء الأخلاق ، وهو يحوّلنا إلى أرواح لطيفة لا يصدر عنها شرّ ولا عدوان ، وقد يصل بنا إلى حبّ كل شىء فى الوجود ، حين نتمثل العالم كله من صنع المحبوب . وهذا بالطبع لا يتيسر إلا حين يغلب علينا الصفاء ، فننسى البغض والحقد والانتقام والحسد ، وسائر الدسائس الصغيرة التى تفسد جمال الحياة ، وتصيّر الأحياء أشقياء .

والصوفية يشترطون فى الحب أن يتصل بأدب النفس ، فمن المحبة الاستراحة إلى علم الله وحده بحال المحب ، وإخلاص المعاملة لوجهه ، وحسن الأدب فيها وهو الاخفاء لها ، وكتم مايحكم به من الضيق والشدائد ، وإظهار ما ينعم به من الألطاف والفوائد ، وكثرة التفكر فى نعمائه وخفىّ ألطافه وغرائب صنعه وعجائب قدرته ، وحسن الثناء عليه فى كل حال ، والصبر على بلائه ، لأن المحب قد صار من أهله وأوليائه . والمحبوب قد يعنف بأحبابه لتمكنه منهم ومكانتهم عنده ، لعلمه أنهم لا يريدون به بدلا ، ولا يبغون عنه حِوَلا : إذ ليست لهم راحة لسواه ، ولا بغية فى سواه ، ولا همّ لهم إلا فيه ، كما قال بعض المحبين : ويلى منك ، وويلى عنك ، أفزع منك وأشتاق اليك ، إن طلبتك أتعبتنى ، وإن هربت منك طلبتنى ، فليس لى معك راحة ، ولا لى فى غيرك استراحة (١)

وكانت رابعة العدوية من المحبين ، سألها النورى فقال : لكل عبد شريطة ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقالت ما عبدت الله خوفا من الله فأكون كالأَمَة السوء إن خافت عملت ، ولا حبّا للجنة فأكون كأمَة السوء

---

(١) القوت ج ٣ ص ٨٠

إن أُعطيت عملت ، ولكنى عبدته حباً له وشوقا إليه [١] وخطبها محمد بن سليمان أمير البصرة على مئة ألف وقال : لى غلة عشرة آلاف فى كل شهر أدفعها اليك ، فكتبت إليه : ما يسرنى أنك لى عبد وأن كل ما تملكه لى وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين [٢]

ولها أبيات فى معنى المحبة رواها كبار الرجال من القوم :

أحبّك حبين حبَّ الهوى   وحبا لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حبُّ الهوى   فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهلٌ لهُ   فكشفك للحُجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى   ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ولننظر شرح المكى لهذه الأبيات : لأنه يصور فهم الصوفية للحب ، وهو يستكثر أن يدركه من لا ذوق له ولا قدم له فيه ، ويقول فى معنى حب الهوى « إنى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة عين اليقين ، لا عن خبر وسمع وتصديق من طريق النعم والاحسان فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك علىّ ، ولكن محبتى من طريق العيان فقربت منك ، وهربت إليك ، واشتغلت بك وانقطعت عمن سواك ، وقد كانت لى قبل ذلك أهواء متفرقة فلما رأيتك اجتمعت كلها فصرت أنت كليّة القلب وجملة المحبة فأنسيتنى ما سواك ، ثم إنى مع ذلك لا أستحق على هذا الحب ولا أستأهل أن أنظر اليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان ، لأن حبى لك لا يوجب عليك جزاء عليه ، بل يوجب علىّ فى كل شىء لك

(١) القوت ج ٣ ص ٨٣   (٢) ص ٨٤

كل شيء مما لا أطيقه ، ولا أقوم بحقك فيه أبداً ، إذ كنت قد أحببتك فلزمني خوف التقصير ووجب عليّ الحياء من قلة الوفاء ، فتفضلت عليّ بفضل كرمك ، وما أنت له أهل من تفضلك ، فأريتني وجهك عندك آخراً كما أريتنيه اليوم عندى أولاً ، فلك الحمد على ما تفضلت به فى ذا عندى فى الدنيا ولك الحمد على ما تفضلت به فى ذاك عندى فى الآخرة ، ولا حمد لى فى ذا ههنا ولا حمد لى فى ذاك هناك ، إذ كنت إنما وصلت اليهما بك ، فأنت المحمود فيهما لأنك وصلتنى بهما (١) » .

وهذا التفسير يدل على أن الصوفية لا يقفون فى فهم الحب عند المعانى الفطرية ، ولكنهم يتوغلون فيعللون ويحللون ويصبغون الحب بصبغة الفكر والعقل ، فهم ينظرون الى الحب نظرة فلسفية ويضيفونه إلى دقائق المشكلات العقلية .

١٥ — ويتصل بحال الحب حال الشوق ، وقد روى عنه عليه السلام أنه كان يقول فى دعائه : أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك . ولذة النظر إلى وجه الله تعالى فى الآخرة ، والشوق إلى لقائه فى الدنيا (٢) وسئل بعضهم عن الشوق فقال : هيمان القلب عند ذكر المحبوب ، وقال آخر : الشوق نار الله تعالى أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات (٣) وأهل الشوق فى الشوق على ثلاثة أحوال : فمنهم من اشتاق الى ما وعد الله تعالى لأوليائه من الثواب والكرامة والفضل والرضوان ، ومنهم من اشتاق إلى محبوبه من شدة محبته ،

---

(١) القوت ج ٣ ص ٨٤ (٢) اللمع ص ٦٥ (٣) اللمع ص ٦٤

وتبرمه ببقائه شوقا إلى لقـائه ، ومنهم من شاهد فى قرب سيده أنه حاضر لا يغيب ، فتنعم قلبه بذكره وقال إنما يشتاق إلى غائب وهو حاضر لا يغيب ، فذهب بالشوق عن رؤية الشوق فهو مشتاق بلا شوق ، ودلائله تصفه عند أهله بالشوق وهو لا يصف نفسه بالشوق(١)

وهذا نظر دقيق ، فقوة الحب تذهل المحب عن إدراك حال الشوق ، لأن التفكير فى المحبوب ليس إلا من أحوال أهل البدايات فى الحب ، فاذا امتزجت الأرواح نسى الحب ونسى الشوق .

١٦ — أما حال الأنس فلا يمكن التعبير عنه بأكثر من قول الطوسى : معنى الأنس بالله الاعتماد عليه والسكون إليه والاستعانة به (١) ومن شواهده ما رُوى أن مطرف بن عبد الله كتب إلى عمر بن عبد العزيز

« ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه ، فان لله تعالى عباداً استأنسوا بالله فكانوا فى وحدتهم أشد استئناساً من الناس فى كثرتهم ، وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون ، وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون (٢) »

وأهل الأنس فى الأنس على ثلاثة أحوال ، فمنهم من أنس بالذكر واستوحش من الغفلة ، وأنس بالطاعة واستوحش من الذنب . ويفسر هذا قول سهل بن عبد الله : أول الأنس من العبد أن تأنس النفس والجوارح بالعقل ، ويأنس العقل والنفس بعلم الشرع ، ويأنس العقل والنفس والجوارح بالعمل لله خالصاً فيأنس العبد بالله ، أى يسكن اليه (٢) والحال الثانى أن يأنس العبد بالله ويستوحش مما سواه من العوارض والخواطر الشاغلة ،

---

(١) اللمع ص ٦٤ (٢) ص ٦٥

ويفسره قول ذى النون وقد قيل له : ما علامة الأنس بالله ؟ فقال : إذا رأيته يؤنسك بخلقه فانه هو ذا يوحشك من نفسه ، وإذا رأيته يوحشك من خلقه فهو ذا يؤنسك بنفسه(١) والحال الثالث هو الذهاب عن رؤية الأنس بوجود الهيبة والقرب والتعظيم مع الأنس . وسئل الشبلى عن الأنس فقال : وحشتك منك ومن نفسك ومن الكون (٢)

١٧ — والأنس بالله يقتضى الطمأنينة ، وهى ضروب : طمأنينة العوامّ الذين إذا ذكروا ربهم اطمأنوا إلى ذكرهم له ، فحظهم منه الاجابة للدعوات باتساع الرزق ودفع الآفات ، وطمانينة الخواص الذين يرضون بقضاء الله ويصبرون على بلائه ، وطمأنينة خواصّ الخواصّ وهم الذين علموا أن سرائرهم لا تقدر أن تطمئن إليه هيبة وتعظيما ، لأنه ليس له غاية تدرك وليس وليس كمثله شىء (٣)

١٨ — والطمأنينة تقتضى المشاهدة ، وهى وصل بين رؤية القلوب ورؤية العيان ، وتتمثل فى مشاهدة الأشياء بأعين الفكر ، وأشرف أحوالها أن تشاهد قلوب العارفين مشاهدة تثبيت فيكونوا حاضرين غائبين وغائبين حاضرين على انفراد الحق فى الغيبة والحضور ، فيشاهدوه ظاهراً وباطناً وآخراً وأولاً (٤)

١٩ — والمشاهدة تقتضى حال اليقين ، واليقين هو ارتفاع الشك ، وليس لزياداته نهاية ، وكلما تفقه المريدون فى الدين ازدادوا يقيناً إلى

---

(١) اللمع ص ٦٥ (٢) ص ٦٦ (٣) ص ٦٧ (٤) ص ٦٩

يقين ، ونهاية اليقين تحقيق التصديق بالغيب بازالة كل شك وريب .[١]

٢٠ — إلى هنا عرف القارىء صوراً من المقامات والأحوال ، ورأى كيف تمثل هذه النوازع فهم الصوفية للحياة الخلقية . ولنقرر أننا اعتمدنا فى هذا البحث على كتاب اللمع وكتاب قوت القلوب ، وبين هذين الكتابين تفاوت قليل فى فهم المقامات والأحوال ، فما يكون حالا عند هذا قد يكون مقاماً عند ذاك .

أما تقسيم بعض المقامات أو الأحوال إلى درجات ثلاث فهو من صنع الطوسى فى اللمع ، ومن واجبنا أن ننبه القارىء إلى أن هذا التقسيم لا يعدو حدود التقريب ، فالنفس قد يكون لها فى الحال الواحد مئات من الأشكال وقد يتقلب القلب فى اللحظة الواحدة إلى ضروب مختلفة من الأنس واليقين ، وتلك وثبات روحية لا يعلم تصرفها غير علاّم الغيوب

٢١ — ولنشر فى ختام هذا الفصل إلى رأى المسيوماسينيون فى مقامات العشق ، وهو يرى أن العشاق نقلوا أحوال الحب عن الصوفية ، ومن أمثلة ذلك قول محمد بن داود : « إن الأحوال التى تتولد عن السماع والنظر مختلفة ولها مراتب : فأول مايتولد عن النظر والسماع الاستحسان ، ثم يقوى فيصير مودة ، والمودة سبب الارادة ، فمن ودّ إنسانا ودّ أن يكون له خلاّ ، ومن ودَّ غرضاً ودَّ أن يكون له ملكا . ثم تقوى المودَّة فتصير محبة ، ثم تقوى المحبة فتصير خُلّة ، ثم تقوى الخلة فتوجب الهوى ، ثم يقوى الهوى فتصير عشقاً ، ثم يزداد العشق فيصير تتيما ، ثم يزداد التتيم فيصير ولها . والشوق

(١) اللمع ص ٧١

تابع لكل واحدة من هذه الأحوال ، والمستحسن يشتاق إلى ما يستحسنه على قدر محله من نفسه ، ثم كلما قويت الحال قوى معها الاشتياق[١].

والواقع أن الحب الذي يفهمه ابن داود هو ذاته نزعة صوفية ، فقد وقف عند قول أبي الشيص

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لى متأخَّر عنه ولا متقدَّم
أجد الملامة فى هواك لذيذة حباً لذكرك فليلمنى اللوَّم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم إذ كان حظى منك حظى منهمُ
وأهنتنى فأهنت نفسى جاهداً ما من يهون عليك ممن أكرم

ثم قال : ولو لم يقل أبي الشيص فى عمره بل لو لم يقل أحد من أهل عصره غير هذه الأبيات لكانوا غير مقصِّرين ، واذا كانت كل خواطر العاشق فيما يتمناه واقعة ممن يهواه على الأمر الذي يرضاه فهذه هي المشاكلة الطبيعية التى لا يفنيها مرُّ الزمان ، ولا تزول إلا بزوال الانسان ، وإذا صح هذا المذهب لم يعجب من أن يميل الانسان إلى الانسان بخلة أو خلتين ، فاذا زالت العلة زال الهوى ، فلا يزال المرابط متنقلا إلى أن يصادف من يجتمع فيه هواه فحينئذ يرضاه فلا ينعطف عنه إلى أحد سواه

وليس من المستبعد أن يكون الصوفية هم الذين أخذوا المقامات والأحوال عن المحبين ، فالحب الحسىّ يقع أولاً ، ويجيء الحب الروحى ثم الالهى ثانياً . والعرب حين قالوا (تيم اللات) أو (تيم الله) انما نقلوا التتيم من المحسوس

(١) لخصنا هذا من كتاب الزهرة ص ١٩ — ٢١

إلى المعقول ، فشبهوا الحب الروحى بالحب الحسى ، لأن المحسوس أقوى فى الظهور من المعقول .

وقد ظل الحب الحسى مقياساً للصدق، حتى صح لأحدهم أن يقول

تعصى الاله وأنت تظهر حبه　　　هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته　　　إن المحب لمن يحب مطيع

التجريد والأسباب

ما هو التجرد وما هو التسبب — الأغراض التى يطلب من أجلها المال — هل المتجرد والمتسبب فى رتبة واحدة — آداب التجرد — آداب التسبب — الادخار — رأى الغزالى فى المال — الدعوة الى الفقر — خطر هذه الدعوة — هجوم على الصوفية — بعض ما يجلب المال من هوان النفوس .

---

١ — رأينا عند الصوفية مقامات الفقر والورع والزهد . ولكن لا بد من النص على آرائهم فى الفقر والغنى ، لأن لذلك صلة وثيقة بمذاهبهم الاخلاقية فى طرائق المعاش . ونبادر فنذكر أن التصوف يسمى الفقر ، والصوفية يسمون الفقراء . وهذا وحده كاف لتعيين مسالكهم فى الحياة

والانقطاع بالكلية إلى الله يسمى التجرد ، وطلب الرزق يسمى التسبب ، وهذه الكلمة الثانية لا تزال حية ، والعوام فى مصر يقولون (رجل متسبب) وربما سموا ما يتجرون به سبباً ، وقد يقولون فيمن يبحث عن الرزق : أخذ فى الاسباب

٢ — والصوفية لا يؤثرون الفقر لذاته ، وانما يؤثرونه لما فيه من صرف النفس عن الشواغل الدنيوية التى تبعد المرء من الله . وهم حين يدعون إلى جمع المال ينصون على أنه لا يطلب لذاته ، وانما يطلب للأغراض الآتية :

الاول — أن ينفقه المرء على نفسه : إما فى عبادة أو فى الاستعانة على عبادة ، أما فى العبادة فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد ، وأما فيما يقوّيه على العبادة فذلك هو المطعم والملبس والمسكن ، وما إلى ذلك من ضرورات العيش ، لأن هذه الشؤون إذا لم تتيسر كان القلب مصروفا إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين

الثانى — ما يصرفه فى الصدقة والمروءة ووقاية العرض وأجرة الاستخدام . ومن وقاية العرض فى رأيهم بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء ، وقطع ألسنتهم ودفع شرهم [1] وفى وقاية العرض صرفٌ للناس عن رذيلة الاغتياب ، وليس من الإسراف أن يكون للرجل خدم : لأن قيامه بجميع شؤونه قد يعطل عليه أوقاته فلا يتفرغ لعبادة الله على الوجه المقبول

الثالث — ما ينفقه للخير العام كبناء المساجد والملاجىء والمستشفيات[2]

تلك فضائل المال من الوجهة الدينية ، ولا بأس بأن يحمد المتصوف ما فى المال من الحظوظ الدنيوية : كالخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول إلى العز والمجد بين الخلق وكثرة الاخوان والأعوان والأصدقاء والوقار والكرامة فى القلوب [3]

وفى تحرير ذلك يقول ابن عطاء الله : إعلم أن الأشياء انما تذم وتمدح

---

(١) لم تكن عندهم جرائد ولا مجلات

(٢) الملاجىء فى التعابير القديمة كانت تسمى الخوانق أو الرباطات . والمستشفيات كانت تسمى دور المرضى أو البيمارستانات

(٣) انظر الاحياء ج ٣ ص ٢٣٧و٢٣٨

بما تؤدى إليه : فالتدبير المذموم ما شغلك عن الله ، وعطلك عن القيام بخدمة الله ، وصدك عن معاملة الله . والتدبير المحمود هو ما ليس كذلك مما يؤديك إلى القرب من الله ، ويوصلك إلى مرضاة الله . وكذلك الدنيا ليست تذم بلسان الاطلاق ولا تمـــدح كذلك ، وانما المذموم منها ما شغلك عن مولاك ، ومنعك الاستعداد لأخراك [١]

٣ — وليس معنى هذا أن المتسبب والمتجرد فى رتبة واحدة . لا . ليس الأمر كذلك ، ولن يجعل الله من تفرغ لعبادته وشغل أوقاته به كالداخل فى الأسباب ، ولو كان فيها متقيا ، فالمتسبب والمتجرد إذا استوى مقامهما من حيث المعرفة بالله فالمتجرد أفضل

ذلك كلام ابن عطاء الله فى (التنوير) [٢] وهو فى (الحكم) يدعو المريد إلى أن يقيم حيث أقامه الله [٣] ولا تناقض بين الفكرتين ، لأنه مع استواء التجرد والتسبب يرى قيام المتجرد أعلى وأكمل

ونحن لا نرتضى هذا الرأى ، ولـكن من نحن ؟ نحن نرى التسبب فرصة ذهبية ، لأنه يعرض النفس للمحن ويروضها على البلاء . ولا تعرف قيمة الخلق إلا عند الاتصال بالناس ، والأدب مع الناس موصول الأواصر بالأدب مع الله ، لأننا لا نحب العدل والانصاف إلا لنتخلق بأخلاق الله ، ولا نبغض الجور والظلم والعسف إلا ابتغاء مرضاة الله ، والمتجرد لا يتعرض لشىء من ذلك ، هو رجل خلت دنياه من أسباب الشقاق والنزاع منذ سـلمت نفسه

---

(١) التنوير ص ٣٣

(٢) ص ٣٤

(٣) انظر شرح الرندى ج ١ ص ٤

من بلايا الأخذ والعطاء . ويمكن الفصل فى هذه القضية بأن نفضل التجرد حين نخشى على أنفسنا الضعف عن رعاية الحقوق ، ونفضل التسبب حين نرى فى عزائمنا من القوة والصلابة ما ندوس به على المطامع الدنيئة التى تستهوى من يطلبون الأرزاق

٤ — ولكن ما هو التجرد المحمود ؟ وما هو التسبب المحمود ؟

لقد وضع ابن عطاء الله فى ذلك رسالة طريفة سماها التنوير فى إسقاط التدبير ، وهى رسالة ممتعة من الوجهة الأدبية والصوفية ، لأنها حوت فقرات كثيرة مما أنشأ الصوفية فى الدعوة إلى التخلق بكرائم الخلال

وإليك خلاصة ما وضعه لآداب التجرد

الاول — علمك بسابق تدبير الله فيك ، وذلك أن تعلم أن الله كان لك قبل أن تكون لنفسك ، فكما كان لك مدبراً قبل أن تكون ولا شىء من تدبيرك معه ، كذلك هو سبحانه مدبر لك بعد وجودك ، فكن له كما كنت له يكن لك كما كان لك

الثانى — أن تعلم أن التدبير منك لنفسك جهل منك بحسن النظر لها

الثالث — علمك بأن القدر لايجرى على حسب تدبيرك . بل أكثر مايكون ما لا تدبر ، وأقل ما يكون ما أنت له مدبر .

الرابع — علمك بأن الله تعالى هو المتولى لتدبير مملكته : علوها وسفلها، غيبها وشهادتها . وكما سلمت له تدبيره فى عرشه ، وكرسيه ، وسماواته ، وأرضه ، فسلم له تدبيره فى وجودك إلى هذه العوالم

الخامس — علمك بأنك ملك لله ، وليس لك تدبير ما هو لغيرك . فما ليس لك ملكه ليس لك تدبيره .

السادس — علمك بأنك فى ضيافة الله ، لأن الدنيا دار الله ، وأنت نازل فيها عليه ، ومن حق الضيف أن لا يعول همّا مع رب المنزل

السابع — نظر العبد إلى قيومية الله تعالى فى كل شىء ، فاذا علم العبد قيومية ربه وقيامه عليه ، ألقى قياده اليـــه ، وانطرح بالاستسلام بين يديه .

الثامن — اشتغال العبد بوظائف العبودية ، فاذا توجهت همته إلى رعاية عبوديته شغله ذلك عن التدبير لنفسه

التاسع — أن تعلم أنك عبد مربوب ، وحق العبد أن لا يعول هماً مع سيده مع اتصافه بالافضال وعدم الاهمال ، فان روح مقام العبودية الثقة بالله والاستسلام إلى الله

العاشر — عدم علمك بعواقب الأمور ، فربما دبرت أمراً ظننت أنه لك فكان عليك ، وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد ، والشدائد من وجوه الفوائد ، والاضرار من وجوه المسارّ ، والمسار من وجوه الاضرار وربما كمنت المنن فى المحن ، والمحن فى المنن ، وربما انتفعت على أيدى الاعداء وأرديت على أيدى الأحباب (١)

٥ — أما المتسبب فتجب عليه مراعاة الآداب الآتية :

---

(١) انظر التنوير ص ٩ — ١٣

الأول — ربط العزم مع الله قبل الخروج من المنزل على العفو عن المسيئين اليه ، إذ الأسواق محل المخاصمة والمقاولة ، فيكون كأبى ضمضم الذى كان إذا خرج من بيته قال : اللهم إنى تصدقت بعرضى على المسلمين

الثانى — أن يتوضأ ويصلى قبل خروجه ويسأل الله السلامة فى مخرجه ذلك فانه لا يدرى ماذا يقضى عليه

الثالث — ينبغى له إذا خرج من منزله أن يستودع الله أهله ومسكنه وما فيه ، فانه قادر على أن يحفظ ذلك عليه

الرابع — يستحب له إذا خرج من منزله أن يقول : باسم الله توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله · فان ذلك يوئس منه الشيطان

الخامس — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وليجعل ذلك شكراً لنعمة القوة والتقوى ، اللتين وهبهما المولى له ، فمن أمكنه الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، بحيث لا يصل إليه أذى فى نفسه ، أو عرضه ، أو ماله ، فهو ممن مكن له فى الارض ، والوجوب متعلق به ، وإن كان لا يصل إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا بالأذى سقط عنه الوجوب .

السادس — أن يكون مشيه بالسكينة والوقار . لقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » وليس ذلك خاصاً بالمشى ، بل المطلوب منك أن تكون أفعالك كلها تقارنها السكينة ويلازمها التثبيت .

السابع — أن يذكر الله تعالى فى سوقه ، فانه قد جاء عنه عليه السلام :

ذاكر الله فى الغافلين كالمقاتل بين الفارين (١) ، ذاكر الله فى السوق كالحىّ بين الموتى .

الثامن — ألاّ يشغله ما هو فيه من المبايعة عن النهوض إلى الصلاة فى أوقاتها جماعة ، لأنه إذا ضيعها اشتغالا بسببه ، استوجب المقت من ربه ، ورفع البركة من كسبه

التاسع — ترك الحلف والاطراء لسلعته ، فقد قال عليه السلام : التجار هم الفجار إلا من بر وصدق

العاشر — كف لسانه عن الغيبة والنميمة ، وليعلم أن السامع للغيبة أحد المغتابين ، فان اغتيب أحد بحضرته فلينكر عليه ، فان لم يسمع منه فليقم ، ولا يمنعه الحياء من الخلق من القيام بحق الملك الحق (٢)

ثم قال ابن عطاء الله : وعليك أيها المؤمن بغض طرفك من حين خروجك إلى سببك إلى حين ترجع ، ولتذكر قول الله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم) وليعلم أن بصره نعمة من الله عليه ، فلا يكن لنعم الله كفورا ، وأمانة من الله عنده فلا يكن لها خائناً (٣)

٦ — وابن عطاءالله لا يرى التسبب مما ينافى التوكل ، ويقول فى ذلك : انظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم (لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق

---

(١) فى الأصل « الغازين » وهو تحريف   (٢) راجع التنوير ص ٣٤ — ٣٦
(٣) انظر التنوير ص ٣٧

الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً) تراه يدل على الأمر بالتوكل على الله تعالى لا على نفى الأسباب ، بل يدل على إثباتها لقوله عليه السلام « تغدو خماصاً وتروح بطانا » فقد أثبت لها غدوها ورواحها ، وهو سببها ، ونفى عنها الادخار (١)

٧ — وابن عطاء الله لا ينكر الادخار فى جميع الأحوال ، وإنما ينكر ما يقع منه بخلا واستكثاراً ، ومباهاة وافتخاراً ، وهو يقبل ادخار المقتصدين وهم الذين لم يدخروا استكثارا ولا مباهاة ولا افتخاراً ، وانما علموا من نفوسهم الاضطراب عند الفقر فعلموا أنهم إن لم يدخروا تشوش عليهم إيمانهم ، وتزلزل إيقانهم ، فادخروا لضعفهم عن حال المتوكلين ، وعلماً منهم بعجزهم عن مقام اليقين . وهناك طبقة ثالثة ، هم السابقون ، وادخارهم ليس لأنفسهم ، ولكنه ادخار أمانة ، فان أمسكوا الدنيا أمسكوها بحق ، وإن بذلوها بذلوها بحق ، وليس الممسك لها بحق بدون الباذل لها بحق (١)

٨ — والغزالى يرى المال كالحية : يأخذها الراقى ويستخرج منها الترياق ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدرى ، ولا ينجو أحد من سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف :

الأولى — أن يعرف المقصود من المال : فلا يحفظ منه إلا قدر الحاجة ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه .

الثانية — أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض وما يغلب

(١) التنوير ص ٦٤

عليه الحرام كأموال الحكام الظالمين ، ويجتنب الجهات المكروهة التى تقدح فى المروءة : كالهدايا التى فيها شوائب الرشوة ، وكالسؤال الذى فيه الذلة وهتك المروءة .

الثالثة — أن يراعى فى كسبه مقدار حاجته فى الملبس والمسكن والمطعم

الرابعة — أن يقتصد فى الانفاق غير مقتر ولا مبذر

الخامسة — أن يصلح نيته فى الأخذ والترك ، والانفاق والامساك ، لأن حسن النية هو الأساس (١)

٩ — إلى هنا رآنا القارىء نحتال فى صياغة هذا الفصل ، وانما كان الأمر كذلك لأننا أردنا أن نُنطِق الصوفية بالدعوة إلى المال والادخار . والحق أنهم غرباء فى هذا الميدان ، فالتصوف الاسلامى هو فى حقيقته ظل من ظلال المسيحية ، هو هربٌ مطلق من الدنيا ومن الجاه ومن المال ، ولا يدعو إلى الغنى إلا طبقة ضئيلة من الصوفية ، ومن أجل هذا كان خطرهم شديداً على الأخلاق ... الصوفية جنوا على المسلمين أبشع جناية حين حببوا اليهم الزهد وبغَّضوا اليهم المال ، الصوفية هم الذين جعلوا المسلمين آخر الشعوب ، وهم الذين قضوا عليهم بالاستعباد ، وهم الذين أوردوهم موارد الذل والضيم والهوان .

إن أول صوفى تعمق فى البحث عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات هو الحارث المحاسبى (٢) وهذا الرجل — الذى كان قدوة

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ٢٦٤

(٢) أنظر الأحياء ج ٣ ص ٢٦٥

لجميع الصوفية — كان من أعداء المال ، ولم تكن عداوته للمال عداوة هينة لأنه ضرب على الوتر الحساس حين ذكّر المسلمين بفقر الرسول ، وهو يتخذ من فقر النبي حجة على شر الغنى وإضراره بخير الدنيا والدين .

وكان الحارث المحاسبي رجلا قويّ المنطق زلق اللسان ، وكان من أهل البصر بمكامن الضعف فى النفوس ، وقد مكّنت له مواهبه الأدبية والذوقية من نواصى الناس ، فاندفع يذم المال ذماً بليغاً لم يصل إلى سمع ولا قلب إلا حوّل صاحبه إلى زاهد أوّاب

رأى المحاسبي أن جماعة من العلماء احتجوا للغنى بما كان من أمر عبد الرحمن ابن عوف ، وعبد الرحمن هذا كان من صحابة الرسول ، وكانت أمواله ومتاجره مضرب الأمثال ، وقد شهد له النبي بالخير ورجا له حسن المآب وكان غِنى ابن عوف خليقا بأن يحبب المسلمين فى الغنى ويبين لهم أن كثرة المال لا تنافى الدين ، فاندفع المحاسبي يبدد هذه الشبهة ويبين أن ابن عوف لن يدخل الجنة بالرفق الذى يدخل به الصعاليك ، وإنما يدخل فى هيبة وحذر كما يدخل المريب .

ونظرية المحاسبي تقوم على أساس خطر ، فهو يرى الدنيا غير الدنيا والناس غير الناس ، فان تشبهتم بالصحابة فأنتم مخطئون « فقد كانوا فيما أُحل لهم أزهد منكم فيما حُرِّم عليكم ، والذى لا بأس به عندكم كان من الموبقات عندهم (١) » وليس لكم أن تطمعوا فى الحلال ، لأنكم لن تجدوه فى دهركم

(١) الأحياء ج ٣ ص ٢٢٩

كما وجدوه فى دهرهم ، ولن تحتاطوا فى طلب الحلال كما احتاطوا ، ولنفرض أنكم ظفرتم بالحلال فهل تأمنون تغير القلوب ؟ إن كان ذلك فأنتم تحسنون الظن بالنفس وهى أمارة بالسوء [١] وهل غاب عنكم أن الرسول قال : يدخل صعاليك المهاجرين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام ؟ [٢] وهل نسيتم أنه قال : سادات المؤمنين فى الجنة من اذا تغدى لم يجد عشاء ، واذا استقرض لم يجد قرضا . وليس له فضل كسوة الا مايواريه . ولم يقدر على أن يكتسب ما يغنيه [٣]

وكان المحاسبى رجلا مسيحىّ النزعة يرى العلماء كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة ، ويرى الحكمة تخرج من أفواههم ويبقى الغل فى صدورهم ، ويراهم أفسدوا آخرتهم بصلاح دنياهم ، وقد روى كلمة المسيح فى هذا المعنى ، وهى كلمة لانحب أن نرويها فى كتابنا هذا ، ويكفى أن نشير إلى مكانها فى كتاب الأحياء [٤]

١٠ — والحق أن الصوفية اختلط عليهم الأمر حين أحبوا التشبه بالأنبياء فالمسيح تصوف لأنه رأى حب الدنيا يعصف باليهود ، والنبى محمد لم يفكر فى إصلاح دنياه لأنه شغل بتبليغ الرسالة : فكان مثله مثل الداعية الذى يريد أن يقطع جميع الألسنة ويسلم من تلوّم السفهاء .

ومن المعقول أن يلوذ الأنبياء والمصلحون بالفقر ليفرغوا لدعوة الخير

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ٢٦٩ (٢) ص ٢٧٠ (٣) الاحياء ج ٣ ص ٢٧٢
(٤) ج ٣ ص ٢٦٥

ولـكن كيف يصبح الفقر شريعة ؟ وكيف يصير من واجب الناس جميعاً أن يعيشوا فقراء ؟

إن جانب الضعف فى الأخلاق الصوفية أنها تجعل الفقر مما يجب أن يرغب فيه جميع الناس، ولو عقل الصوفية لعرفوا أن للفقر خلقة بشعة لا يطمع فى التعرف اليها رجل كريم . الفقر هو البلية العظمى ، والنكبة الـكبرى ، والبلاء الماحق ، والشر الملعون . الفقر هو العورة التى يفتضح بها الرجال ، الفقر هو المقتل الذى يُصرَعُ به الأبطال ، الفقر هو أقبح الصفات التى تنزه عنها الله ذو الجلال ، الفقر فضيلة سخيفة لا يدعو إليها إلا رجل سخيف !

١١ — للصوفية عذر واحد ، وهو عذر جميـــل ، هم يرون حب المال يذهب بالناس إلى البغى فى أكثر الأحيان ، ولـكنى مع هذا أجزم بأن بغى الغنىّ أجمل صورة من عدالة الفقير ، وهل للفقير عدالة ؟ إنه شخص مضيَّع وهو فى المجتمع لا يحسب له حساب، والخلُق الحق هو الذى يرفع الشخصية الانسانية ويقيم لها الموازين .

ولو أن الصوفية درسوا الطبيعة الانسانية حق الدرس لتغير موقفهم فى فهم الفقر ، لو أنهم عرفوا أن الفقير لا يصلح لقيادة النهضات الاجتماعية والسياسية والخلقية لأيقنوا أن الغنى سلاح ماض فى أيدى المصلحين ، ولـكن الواقع أن الصوفية كانت هممهم فى الأغلب همماً ترابية ، أليسوا هم الذين وضعوا القواعد للسؤال ؟ وهل يسأل الناسَ إلا الصغارُ والضعفاء ؟ وأى قيمة للخُلق إذا انتهى بصاحبه إلى الضعف والصَّغار ، ونأى به عن مواطن الرجال ؟

إن الجنة وما فيها من خير ونعيم لا تساوى ذلة السؤال ، والله لم يخلقنا لنسأل الناس ، وهو لم يمنحنا العقل والعافية إلا لنستعبد خيرات الأرض ونستغنى عن المخلوقين . ولولا الأدب لقلت إن الله دعانا إلى الاستغناء عنه منذ فطر الأرض والبحر والهواء على خدمتنا خدمةً أبدية لا يُحرَم منها إلا أهل الخمود .

إن الله دعانا إلى الكرامة ومهد لنا سُبُلها وأعاننا عليها ، ولم يشأ أن يذل الكفار بحرمانهم من استخراج ثمرات الأرض ، لأنه سبحانه لا يحب لأبنائه أن يعيشوا عيش العبيد ، والمؤمن والكافر أمام عدله ورحمته سواء

الدعوة إلى الفقر تنافى الخلق ، وتنافى الأدب ، وتنافى الايمان .

الدعوة إلى الفقر هى السوس الذى قضى على عظام المسلمين ، وجعلهم من أذل الشعوب بعد أن كانوا من أقوى الأعزاء

الدعوة إلى القناعة رذيلة إنسانية لا يحترمها إلا رجل غافل أو مخبول . وكيف نقنع وقد هدانا الله إلى أسرار الوجود فعرفنا أن الخير لا نهاية له ، وأن النعيم أعظم وأكبر من أن تقام له حدود .

لو عاش أهل الأرض بعقول الصوفية وأوهامهم وأغلاطهم لما استطاع الانسان أن يسخّر البرق والماء ، لو عاش أهل الأرض بأذهان الصوفية لما كانت هذه النعم التى يمرح فيها أهل الشرق والغرب ، لو عاش أهل الأرض بأذهان الصوفية لما كانت هذه الوثبات التى يموج بها العالم السياسى فيقيم قناطر من الخير على بحار من الدماء

الصوفية قوم كسالى وادعون ذهب بهم الجوع إلى أودية الموت .

١٢ — قد يقول القارىء : وما شأنك أنت ؟ أنت تؤرخ التصوف ، فكيف تستطيل على الصوفية ؟

وأجيب بأنى أيضاً متصوف، ولكن أى تصوف؟ إنه تصوف استقيته من مورد الحياة ، هو تصوف حق يقوم على أساس الحق ، فان كان التصوف القديم هو الزهد فالتصوف الجديد هو الاخلاص المطلق فى حب الحياة والفوز والمجد ؛ التصوف الذى أدعو إليه هو الشره الشريف على فهم ما فى الدنيا من خير وشر ، وجمال وقبح ، وحق وزيغ ، هو أن تكون قوة كاشفة قاهرة تستوعب أسرار الوجود ثم تسخّره لخدمة الانسان والحيوان ، هو أن تجعل الدنيا فردوساً يذكّر بما وُعدتَ به من نعيم الفراديس ، هو أن تكون غنياً بعقلك وجهدك وخلقك فلا يكون لمخلوق فضل عليك ، هو أن تكون شبيهاً بربك فى كرمه وغناه

أنا لا أريد أن يتصوف الرجل تصوف العبيد ، وإنما أريد أن يتصوف تصوف الملوك .

١٣ — ولكن هناك وجه آخر نفهم به جمال الدعوة إلى الفقر. وتفصيل ذلك أن الغنى لا ينتظرنا فى كل وقت ، ولا نقتنصه حين نشاء ، فقد يحتاج الغنى أحياناً إلى مسالك ينفر منهـــا الكريم ، وفى هذه الحال يكون الفقر أجمل وأشرف .

فى أحيان كثيرة يكون من النبل أن نحرر رقابنا من رق الطمع ، وأن نتغنى بقول الذى يقول :

حرام على من وحد الله ربه وأفرده أن يجتدى أحداً رفدا
ويا صاحبي قف بى مع الحق وقفة أموت بها وجدا وأحيا بها وجدا
وقل لملوك الأرض تجهد جهدها فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

وأنت لو نظرت حولك لرأيت طوائف من الأغنياء لم يصلوا إلى غناهم إلا بوسائل يفزع من تصورها كرام الرجال : فهذا الذى يسكن قصراً فخما ويعيش عيش الأمراء لم يصل إلى الغنى إلا منذ اليوم الذى باع فيه نفسه وقلبه وضميره لأحد الوزراء أو لأحد الأحزاب ، وذاك الذى يأمر وينهى ويطغى ويستطيل هو فى حقيقة أمره أذل من القراد بمناسم الجمال الجرب لأنه لا يصبح ولا يمسى إلا وهو تابع ذليل ، وذلك الذى لا يمد يده لمصافحتك إلا وهو متكلف ، ولا يواسيك إن حزنت ، ولا يعودك إن مرضت ، ولا تراه إلا أشم الأنف منتفخ الأوداج ، ذلك المتكبر المتجبر الذى يحاول أن يخرق الأرض ويطاول الجبال ، هو فى قرارة نفسه مستعبد لجبهة قوية يرى سوطها مسلطاً عليه فى كل حين ، وهو على كبريائه ترتعد فرائصه كلما تمثل له شبح من يملك أمره فى يقظة أو فى منام

إن أكثر من ترى من أصحاب الحول والطول كان مثلهم مثل المرأة التى لا تفرّط فى عرضها بسبب القوت ، وانما تفرط فى عرضها لتقضى لبانتها من الترف ، وبعض النساء لا يؤذيها أن تجوع ، ولكن يؤذيها أن تخرج وهى عاطل من الأساور والدمالج والخلاخيل .

وهل تظن أن الذى يبيع ضميره يبيعه ليقتات ؟ وكيف يكون الأمر كذلك وأكبر البطون يملأه رغيف جاف ، ويرويه كوب من الماء القراح ؟

انما يبيع الناس ضمائرهم ليتحلوا بالحُلى الكواذب من صور الأمر والنهى والطغيان .

انظر هذه النظرة إلى حقائق الجاه والمال ، ثم ارجع الى الصوفية تجدهم أعقل الناس وأشرف الناس

١٤ — أتراك نظرت وفكرت ؟ إن كنت فعلت فاعلم أن الصوفية حين دعوا إلى الفقر والورع والزهد لم يكونوا عابثين ، وانما كانوا يدافعون عن الكرامة الانسانية التى لا تضيع ولا تمتهن إلا فى أسواق المنافع . وحفظُ الكرامة هو الحجر الأول فى صرح الأخلاق

انظر هذه النظرة لترى ما فى مسالك الصوفية من المعانى الشعرية ، وهل من القليل أن تخلص من ربقة الأغراض فلا يكون لأحد سلطان عليك ؟ هل من القليل أن تشعرَ بأن مائدتك الجافية هى من كسب يدك ، وأن ثوبك الحقير لم ينسج خيوطه أحد سواك ؟ هل من القليل أن تعرف زوجتك وأن يعرف أبناؤك أن ليس لهم سيد بعد الله غيرك ؟ هل من القليل أن يكون كل ما فى بيتك من أثاث ورياش انما وصل إليك بفضل كدحك ، وإن كان غطاؤك من الخيش ، وسريرك من الجريد ؟

إن الصوفية لا يحرمون عليك أن تثرى من الحلال ، فقدكان الصوفية بالفعل من أهل الكسب ، ولكن أى كسب؟ انظر إلى أسمائهم وألقابهم تجد فيهم الخوّاص والخراز والوقاد والصباغ والحداد والسماك والقصاب والدقاق .

انظر إلى ألقابهم تجدهم كانوا من أهل العمارة والصناعة والزراعة ، انظر

الى القابهم تجدهم كانوا من أقطاب السعى فى سبيل الرزق الحلال .

١٤ — كن كيف شئت فى فهم الدنيا والمعاش ، ولكن تذكر أن المتصوف رجل دقيق الاحساس ، وأنه لا يهون عليه فى سبيل الدنيا ما يهون عليك ، ومن أجل هذا تراه فى أدبه صادقاً كل الصدق ، وتكاد تلمس فى كل سطر بل كل حرف أنه يخفى بلية موجعة رماه بها التصون والعفاف .

وما نريد أن نسلك جميع المتصوفين فى سلك واحد ، هيهات ، فنحن نحتقر التبلد الذى يوسم بالتعفف . ولكنا لا نملك الغض من الأدب الحق ، أدب النفوس التى ترحب بالفقر حين لا ينال الغنى إلا بالذل ، ولا يدرَك إلا بالضيم .

وفى ظلال هذه المعانى نقرأ أدب الصوفية فى ذم الغنى ومدح الفقر فنراه صوراً طريفة من أحوال النفوس والقلوب، ونرى أنفسنا أمام صروح عالية من مكارم الأخلاق .

إن الصوفية الصادقين لا يؤثرون الفقر إلا فراراً من المال المشوب بالشبهات . والخوفُ على النفس والقلب والضمير من أدناس الحرام هو خوف نبيل لا يستشعره غير صحاح القلوب .

وما أسعد من ينفرون من الحرام ، ولا يأنسون بغير الحلال !

آداب الطعام

متابعة الصوفية للرسول فى خشونة الطعام — نفرتهم من البطنة وإيثارهم للحرمان — قبول فريق منهم لأطعمة السلاطين — فضل الجوع فى كبح الشهوات — أثر الجوع فى قتل الحيوية — فضل الطعام فى إعداد الرجال لجلائل الأعمال — السر فى اسراف الصوفية حين يتحدثون عن الطعام — الشبه بينهم وبين شعراء البادية — شغلهم بترتيب أوقات التبلغ — رأيهم فى دعوة الاخوان — أدب المائدة — رأى ابن أدهم فى الطعام والأثاث واللباس — نفرة بعضهم من إجابة الدعوات

---

١ — الصوفية يتابعون الرسول فى خشونة الطعام ، والرضا منه بالقليل ، وكان عليه السلام يأكل خبز الشعير غير منخول ، وما ذمّ طعاما قط ، لكن إن أعجبه أكله ، وإن كرهه تركه ، وإن عافه لم يُبغضه الى غيره ، وكان يَلعقُ بأصابعه الصَّحفَة . وكان يَلعقُ أصابعه من الطعام حتى تحمرّ . وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدةً واحدة ، وكان لا يسأل أهله طعاما ولا يتشهاه عليهم ، ما أطعموه أكل ، وما أعطوه قَبِل ، وما سَقَوْهُ شرب ، وكان ربما قام فأخذ بنفسه ما يأكل أو يشرب (١)

وكان يقول « إياكم والبِطْنة فأنها مُفسِدةٌ للبدن ، مُورِثةٌ للسَّقَم ، مكسلة عن العبادة » ويقول « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، حَسْبُ

---

(١) تلك هى الجوانب الخشنة من حياة الرسول فى طعامه ، وهذه فقرات أخرجناها من كلام كثير كتبه الغزالى فى الاحياء ج ٢ ص ٣٦٨و٣٦٩ وللرسول طرق غير هذه فى طعامه ولكن الخشونة كانت أغلب

ابن آدمَ لقَيْمات يُقِمْنَ صُلْبَه ، فان كان لابدَّ فثُلُثٌ للطعام ، وثُلثٌ للشراب ، وثُلثٌ للنفَس (١) »

٢ — وقد أُثِرَتْ عن الصوفية أقوالٌ فى النهى عن كثرة الطعام ، قال مالك بن دينار «وددت أن رزقى حصاة أمُصّها فقد ضَجِرت من كثرة ترددادى الى الخلاء » وباع جارية فزارته يوما فقال : كيف ترين مواليك ؟ فقالت ما أكثر خير بيوتهم ! فقال : أخبرتنى عن عمرانِ حشوشهم(٢) »

وهو بهذا لا يتمثل طيبات الطعام إلاَّ مقرونة بما ستصير اليه !

٢ — ويمكن الجزم بأن سياسة الصوفية فيما يختص بالطعام كانت قائمة على أساس الحرمان(٣) وكان فيهم من يصوم الدهر « ولا يفطر غير أيام العيدين وأيام التشريق (٤) » وسُمع شعيب بن حرب يقول :

« أكلت فى عشرة أيام أكلة ، وشربت شربة (٥) » وتحدث التسترى عن نفسه فقال : « رجعت الى تستر فجعلت قوتى اقتصاراً على أن يشترى لى بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لى فأفطر عند السحر كل ليلة على أوقية واحدة بحتا بغير ملح ولا إدام ، فكان يكفينى ذلك الدرهم سنة . ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ، ثم أفطر ليلة ، ثم خمسا ثم سبعا . ثم خمسا وعشرين ليلة ، وكنت عليه عشرين سنة(٦) »

ومن الصوفية من حدث عن نفسه أنه تقوت فى بضعة عشر يوما — أو

---

(١) محاضرات الاصفهانى ج ١ ص ٣٠٢

(٢) المصدر السابق — والحشوش فى الأصل البساتين وكانوا يقضون فيها الحاجة

(٣) الكشكول ص ٢٥٨ (٤) معجم البلدان ج ٥ ص ٣٩٨

(٥) تاريخ بغداد ج ٩ ص ٢٤١ (٦) القشيرية ص ١١٥

قال سبعة عشر يوما — خمس حبات ، أو قال ثلاث حبات . فقيل له : وكيف عملت ؟ فقال : لم يكن عندى غيرها ، فاشتريت بها لفتا ، وكنت آكل كل يوم واحدة . ولا عبرة بأن يقال إن هذا الرجل اكتفى بهذا القدر للضرورة فقد أثر عنه أنه كان لا يسأل أحدا شيئاً[١]

٣ — ومع إيثار الصوفية للاقلال من الطعـــام ، والرضا من العيش بالدون ، كان فيهم من يأكل طعام السلاطين ويقبل جوائزهم ، وقد بلغ ابن عبد البر ، وهو بشاطبة ، أن قوما عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه ، فقال :

قل لمن ينكر أكلى   لطعـام الأمراء
أنت من جهلك هذا   فى محـل السفهاء

لأن الاقتداء بالصالحين ، من الصحابة والتابعين ، وأئمـة الفتوى من المسلمين ، من السلف الماضين ، هو ملاك الدين[٢] فقد كان زيد بن ثابت وهو من الراسخين فى العـلم يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد ، وكان ابن عمر مع ورعه وفضله يقبل هدايا صهره المختار بن أبى عبيد ويأكل طعامه ويقبل جوائزه . وقال عبد الله ابن مسعود — وكان قد ملىء علما — لرجل سأله فقال : إن لى جارا يعمل بالربا ولا يجتنب فى مكسبه الحرام يدعونى الى طعامه فأجيبه ؟ قال : نعم ، لك المهنأ ، وعليه المـأثم ، ما لم تعلم الشىء بعينه حراما . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه حين سئل عن جوائز السلاطين : لحم

---

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٦٦

(٢) العبارة للمقرى — نفح الطيب ج ٢ ص ١٥٨

ظبي ذكى . وكان الشعبي — وهو من كبار التابعين وعلمائهم — يؤدب بنى عبد الملك بن مروان ويقبل جوائزه ويأكل طعامه . وكان ابراهيم النخعى وسائر علماء الكوفة والحسن البصرى مع زهده وورعه وسائر علماء البصرة وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان والفقهاء السبعه بالمدينة حاشا سعيد بن المسيب يقبلون جوائز السلطان .

وكان مالك وأبو يوسف والشافعى وغيرهم من فقهاء الحجاز والعراق يقبلون جوائز السلاطين والأمراء ، وكان سفيان الثورى مع ورعه وفضله يقول : جوائز السلطان أحب الىّ من صلة الأخوان ، لأن الاخوان يمنّون والسلطان لا يمنّ ، ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير قد جمع الناس فيه أبوابا (١) .

٤ — ويظهر من هذا أن الصوفية كانوا فريقين : فريقا يبالغ فى الاقلال من الطعام ويروض نفسه على الجوع ، وفريقا يتسامح بعض التسامح فيوسع على نفسه بأكل ما يصل اليه من أطعمة السلاطين والأمراء .

ولكن الحال الغالب عليهم هو الحرمان ، وكان فيهم من يحرص على خبز الشعير (٢) ويتجنب ترف الاستحمام (٣) ، وإيثار الشعير له معناه ، فهو فى خشونته من حيث المطعم يناسب الصوف فى خشونته من حيث الملبس ، واذا التقت خشونة الطعام وخشونة اللباس مع هجر الحمام نشأت عن ذلك

---

(١) العبارة للمقرى — نفح الطيب ج ٢ ص ١٨٥ (٢) القشيرية ص ١٥

(٣) فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٦ « أن الحسين بن أحمد كان زاهداً عابداً لاينام إلا عن غلبة ، وكان لايدخل الحمام ، ويأكل خبز الشعير » ورفض الحمام ليس معناه الانصراف المطلق عن الاستحمام

صورة شعثاء لا يتمثلها الرجل المترف الا بعنف شديد .

ولا جدال فى أن لذلك تأثيراً على الأخلاق ، لأن المرء يتأثر فى أخلاقه بما يأكل وما يلبس ، فما قيمة ذلك من الوجهة الأخلاقية ؟

نستطيع أن نجزم بأن سياستهم فى الطعام لها أثر بالغ فى حرب الشهوات ، فالرجل لا تصبو نفسه ، ولا يطمح بصره ، الى الحسن الممنوع ، الا حين ينشط الجسم وتهيج الحواس ، وهيهات أن تستيقظ جوارح رجل يكتفى بخبز الشعير ، ثم لا يأكل منه الا القليل .

والذين يتخلقون بأخلاق الصوفية فى الطعام يستطيعون بسهولة أن يستهينوا بما تعرض الحياة من صنوف الشهوات . وقد كنت وأنا طالب فى الأزهر أكتفى بالخبز الجاف مصحوباً بادام تافه هو الفول المدمس فى الصباح ، والفول النابت فى المساء ، وكنت يومئذ فى ميعة الشباب ، ومع ذلك لا أذكر أنى تعرضت لشهوة جامحة أو هوى غلاَّب .

هذا جانب من الفضل فى تلك السياسة الصوفية[1]

أما الجانب الآخر فهو الخطر الذى يهدد من يكتفون بالطعام الخشن القليل .

إن الجوع يقتل الحيوية ، ويروض الجائع على صغر النفس ، وموت العزيمة ، وانحلال الشخصية . ولا يمكن لرجل يكتفى بأكلة واحدة فى الأسبوع أن يكون من رجال الأعمال . وما الذى يحمل المرء على التفكير فى

(١) فى قوت القلوب ص ٤٢ — ٦١ ج ٤ كلام مطول عن نظام الأقوات عند المريدين . وهو يفصل رأى الصوفية فى الطعام تفصيلا مبينا .

عظائم الأمور وهو يعيش فى العام بدراهم معدودات ؟

إن الطعام يقوى شهوة النهم ، كما يقول البوصيرى ، والنهم يتطلب وقوداً من طيبات الأرزاق ، والرزق الطيب لا ينتهب ولا يختلس ، ولكنه يأتى بفضل العزيمة المتوثبة والساعد المتين .

فلا حرج علينا بعد هذا البيان ، من التصريح بأن الصوفية فتنوا العالم الاسلامى ، وأضروا به ، حين حببوا اليه الظمأ والجوع .

ونظرة فى مدينة كالقاهرة ترينا شاهد ذلك : فطبقات العوام يحمدون الله على الخبز والملح والماء ، ومن أجل هذا يسيرون فى الحياة بخطوات بطيئة متثاقلة ، ويكتفون بالمساكن القذرة ، والمآكل الخسيسة ، والملابس الرخيصة ، على حين يقتحم الأجانب حصون المنافع الاقتصادية ، ويأكلون الطيبات ، ويقيمون فى أحياء جميلة هم منشئوها ، ويعرفون أدب الزينة وأدب الاستقبال

ولو سألت الرجل الذاوى الجسم بفضل الجوع أن يتأهب للحرب لتردد وجزع ، وكيف يرحب بالحرب وليس له فيها مغنم مرموق ؟ أما الرجل الذى عرف أطايب العيش ففيه من قوة المراس ، وحب النضال ، والشوق إلى العراك ، ما يدفعه إلى المخاطرة بنفسه فى سبيل ما تنتج الحرب من مغانم وأسلاب .

والموت نفسه قد يتمثل للرجل السليم متعة رياضية ، أما الجسم العليل فقد شبع من الموت ! !

٥ — ولكن ما رأى القارىء فى أن الحرمان الذى كاد يلتزمه الصوفية عاد بشىء من النفع على قواعد الأخلاق ؟

لقد حرم الصوفية أنفسهم من الطعام ، فكان ذلك الحرمان سبباً لاكثارهم من التحدث عن الطعام ، وأدب الطعام ، ومثلهم فى ذلك مثل شعراء البادية ، فان قصائد المديح فى الجاهلية وصدر الاسلام يكثر فيها الكلام عن اللحوم والألبان ، ويكثر فيها مدح الكرماء بكثرة الرماد وهزال الفصلان ، ويرجع ذلك إلى أن الشعراء كان أكثرهم من أهل الفقر والجوع فكان نحر الجزور يتمثل لهم شيئاً هائلا جداً ، وكان الشعر ترقص عرائسه فى أحلامهم كلما تصوروا المصعب وقد جدّله السيف ، وكان خير الرجال عندهم من صح فيه قول النابغة الذبيانى :

له بفناء البيت سوداء فخمة
تلقّم أوصال الجزور العراعر (١)

وخير الناس من صح فيهم قول مسكين الدرامى :

كأن قدور قومى كل يوم
قباب الترك ملبسة الجلال (٢)
كأن الموقدين بها جمال
طلاها الزفت والقطران طالى
بأيديهم مغارف من حديد
أشبهها مقيرة الدوالى (٣)

---

(١) السوداء هنا هى القدر ، والجزور الناقة ، والعراعر العظيمة الخلق

(٢) الجلال : الأغطية السود

(٣) المقيرة : المطلية بالقار وهو الزفت ، والدوالى جمع دالية وهى الدلو — وهذا الشعر منقول من باب الأضياف والمديح فى الحماسة وله نظائر كثيرة جداً

فحرمان الصوفيـة من الطعام شغلهم به ، وحملهم على وصف أصنافه ، والتهيؤ للصبر عنه ، وبسط القول فيما ينبغى له من آداب (١)

٦ — ومصداق ذلك أنا نراهم يتحدثون عن رياضة النفس على الجوع باهتمام شديد ، هو آية الحرص على الطعام لو يعلمون ، كأن يقول صاحب قوت القلوب :

« ومن كان ذا معلوم فالمستحب له أن لا يزيد على رغيفين فى يوم وليلة ، وليجعل بينهما وقتاً طويلاً مرة ، وقصيراً أخرى ، على حسب الحاجة وتوقان النفس إلى الغـــداء ، لا على طرد العادة والشهوة . والرغيف ستة وثلاثون لقمة ، يكون قوام النفس فى كل ساعة ثلاث لقمات ، فاذا أراد أن يأكل الرغيف على هذا التقسيم فليجرع بعد كل ثلاث لقم جرعة ماء ، فذلك اثنا عشر جرعة فى تضاعيف ستة وثلاثين لقمة ، ففى ذلك قوام الجسم وصلاحه فى كل يوم وليلة على هذا الترتيب (٢) »

وهذه الرياضة اليومية ، أو الساعية إن شئت ، هى الشـغل كل الشغل بالطعام !

٧ — وقد تحدثوا عن أدب المائدة ، ودعوة الاخوان ، وعن الاكثار والاقلال ، فقالوا ، مثلا ، إن من إكرام الضيف تعجيل الطعام لهم ، وأفضل ما قدم اليهم اللحم ، وخير اللحم السمين النضيج ، فان كان بعد اللحم حلاوة فقد جمع لهم الطيبات (٢)

وهذا التحديد له دلالة نفسية

---

(١) الصوفية فى ذلك كالعشاق أكثرهم حديثا عن اللقاء والوصال والشهوات هم المحرومون

(٢) قوت القلوب ج ٤ ص ٤٦

واستحبوا أن يأكل الرجل فى منزل أخيه على نحو ما يأكل فى منزله بغير تكلف ولا تزين ، لأنه قد يدخل من الرياء والتزين فى الطعام مثل ما يدخل فى سائر الأعمال (١)

وتلك دقة فى فهم أحوال النفس

وحدثوا أن سفيان الثورى دعا ابراهيم بن أدهم وأصحابه الى طعام فقصروا فى الأكل، فلما رفعوا الطعام قال له الثورى : إنك قصرت فى الأكل، فقال ابراهيم : قصرت أحدهم فى الطعام فقصرنا فى الأكل(١)

ودعا ابراهيم الثورى أصحابه الى طعام فأكثر منه فقال له : يا أبا اسحق، أما تخاف أن يكون هذا إسرافا ؟ فقال ابراهيم : ليس فى الطعام إسراف(١)

وهم يوصون بلعق الأصابع ، وأكل ما سقط من فتات الطعام لأنه فيما يقال من مهور الحور العين(١)

وقال أبو سليمان الدارانى: أكل الطيبات يورث الرضا عن الله عز وجل

وهذه الجملة كررها المكى فذكرها فى فصلين متجاورين ، ولهذا التكرار معنى

ومن الأخبار التى اهتموا بروايتها أن المائدة التى أنزلت على بنى اسرائيل من السماء كان فيها من كل البقول الا الكراث ، وكان فيها سمكة عند رأسها خل ، وعند ذنبها ملح ، وكان عليها سبعة أرغفة ، على كل رغيف زيتونتان ، وحب رمان ، وهذا عندهم من أحسن الطعام اذا اتفق(٢)

---

(١) قوت القلوب ج ٤ ص ٦٥ (٢) القوت ج ٤ ص ٦٤

وحدثوا أن الحسن البصرى قال : كل نفقـة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم يحاسب عليها ، الا نفقة الرجل اذا دعا إخوانه الى طعام فان الله سبحانه وتعالى يستحيي أن يسأله عن ذلك[١]

وحضر الثورى — وكان صوفيا — على مائدة أحد أبناء الدنيا ، وكان فيه بخل ، فقدم حملا[٢] فجعلوا يأكلون ، فلما رآهم يمزقون كل ممزق ضاق صدره فقال : يا غلام ارفع الى الصبيان ، فرفع الحمل الى داخل الدار فقام الثورى يعدو خلف الحمل ، فقال صاحب المنزل : الى أين ، يا أبا عبد الله ؟ فقال : آكل مع الصبيان ! فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل حتى استوفوا منه[٣]

وحدث أحدهم قال : كنا فى جماعة عند رجل فجعل يقدم الينا ألوان الرؤوس ، منها طبيخا وقديدا ، فجعلنا نقصر فى الأكل نتوقع بعد الألوان حملا أوجديا . قال : فجاءنا بالطست ولم يقدم الينا غيرها ، فقال لى بعض الشيوخ من أهل التصوف وكان مزّاحا : هو تعالى يقدر أن يخلق رؤوسا بلا أبدان ! قال : فبتنا تلك الليلة جياعا ، فطلب بعضنا فى آخر الليل خبزا أو فتيتا لسحوره[٤]

ودفع ابراهيم بن أدهم الى بعض إخوانه دراهم فقال : خذ لنا بهذه زبداً وعسلاً وخبزاً حورانياً ، فقال : يا أبا اسحق ، بهذا كله ؟ ! فقال ابن أدهم : ويحك ! اذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، واذا عدمنا صبرنا صبر الرجال . وأصلح ذات يوم طعاما فأكثر ، ودعا نفرا يسيرا منهم الثورى والأوزاعى ،

---

(١) القوت ج ٤ ص ٦٨

(٢) فى الأصل « جملا » بالجيم ، والأصوب أن تكون « حملا » بالحاء المهملة

(٣) القوت ج ٤ ص ٧١

(٤) القوت ج ٤ ص ٧٢

فقيل له : أما تخاف أن يكون هذا إسرافا ؟ فقال : ليس فى الطعام إسراف ، إنما الاسراف فى الأثاث واللباس[١]

وحدثوا عن سهل أنه سئل كيف كان فى بدايته فأخبر بضروب من الرياضات منها أنه كان يقتات ورق النبت مدة ، ومنها أنه أكل دقاق التبن ثلاث سنين ، ثم ذكر أنه اقتات ثلاثة دراهم ثلاث سنين ، قيل وما هو ؟ قال : كنت أشترى فى كل سنة بدانقين تمرا ، وأربعة دوانق كُسبا ، ثم أعجنها عجنة ، ثم أجزئها ثلثمائة وستين كبة أفطر فى كل ليلة على كبة ، فقيل له : فكيف أنت فى وقتك هذا ؟ قال : آكل بلا حدّ ولا توقيت[١]

وكان معروف الكرخى يهدى اليه طيبات الطعام فيأكل فيقال له : إن أخاك بشرا لا يأكل من هذا فيقول : أخى بشر قبضه الورع ، وأنا بسطتنى المعرفة ، ثم قال : انما أنا ضيف فى دار مولاى ، اذا أطعمنى أكلت ، واذا جوّعنى صبرت ، مالى والاعتراض والتخير ![١]

٨ — فهذا كله دليل على شغفهم بالطعام ، ومع هذا كان فيهم متكبرون ، وهم عند بعضهم من أنفة النفوس ، قال قائلهم : أنا لا أجيب دعوة . قيل : ولم؟ قال : انتظار المرقة ذل . وقال آخر : إذا وضعت يدى فى قصعة غيرى ذلت له رقبتى . وكان بعضهم يقول : لا تجب دعوة إلا من يرى لك أنك أكلت رزقك . وأنه سلم إليك وديعة كانت لك عنده ، ويرى لك الفضل فى قبولها منه[١] .

---

(١) القوت ج ٤ ص ٦١

٩ — هذا ، ولا مفر من الاعتراف بأن ما وضع الصوفية فى كتبهم من أدب الطعام أكثره مقبول ، يشهد بحسن الفهم وسلامة الذوق ، ويدل على بصر بأوضاع الحياة الاجتماعية . ولا يمنع من صحته ما نراه من تغير آداب الأطعمة والموائد ، فانا لا نحكم لهم أو عليهم إلا بعد أن نتمثل ما كانوا عليه من الحياة الفطرية ،

ولكل زمن آداب .

آداب الصيام

١ — ينظر الصوفية الى الصيام نظرة خلقية وروحية، وهم يقسمونه الى ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص .

أما صوم العموم فهو كفّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية ، كما عبر الغزالى فى الجزء الأول من الأحياء .

وليس الطعام وحده ، ولا الشراب وحده ، ولا اللمس وحده ، مما يفطر به الصائم عند الصوفية . فهناك أشياء يفطر بها الصائمون ويفسد بها الصيام وليست مع ذلك من اللمس أو الطعام أو الشراب ، فالصائم يبطل صومه فى نظر الصوفية بالفكر فيما سوى الله عزّ شانه واليوم الآخر ، وبالفكر فى الدنيا إلا دنيا تُراد للدين لعدّ ذلك من زاد الآخرة .

ويرى بعض الصوفية أن من تحركت همته بالتصرف فى نهاره لتدبير ما يفطر عليه كتبت عليه خطيئة ، لأن ذلك لا يقع إلا من قلة الوثوق بفضل الله وقلة اليقين بالرزق الموجود .

٢ — وصوم خصوص الخصوص لا يتم الا بستة أمور :

الأول — غض البصر وكفه عن النظر الى كل ما يُذمّ وكل ما يكره ، والى ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله .

الثانى — حفظ اللسان عن الفضول — وهم يعبرون عنه بالهذيان — وحفظه عن الكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله وتلاوة القرآن .

ومن الصوفية من يرى أن الغيبة تفسد الصوم ، وهم يستندون الى أحاديث مروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

الثالث — كف السمع عن الاصغاء الى كل مكروه ، لأن كل ما حَرُم قوله حرُم الاصغاء اليه . ولذلك سوَّى الله سبحانه بين السمع وأكل السحت فقال « سماعون للكذب ، أكّالون للسحت» وقال « لولا ينهام الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم واكلهم السحت »

الرابع — كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل ، وكفها عن المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الافطار لأنه لا معنى للصوم عن الحلال ثم الافطار على الحرام .

الخامس — أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الافطار بحيث يمتلىء ، فما من وعاءٍ أبغض الى الله من بطن ملئ من حلال ، فالصوم يراد به قهر أهواء النفس أو كما يقولون قهر عدو الله الشيطان . وقهر أهواء النفس أو كما يقولون كسر الشهوة لا يتم لمن يتدارك عند فطره ما فاته فى نهاره من ألوان الطعام والشراب .

ولم يفت الصوفية أن ينصوا على الخطر الذى يهدد من يسرف فى الأكل بعد أن تخوى معدته ، وهم يرون ذلك يضاعف قوة النفس ويساعد على انبعاث الشهوات .

ومن رأى الصوفية أنه لايليق بالصائم أن يأكل عند الافطار أكثر مما كان يأكل لو لم يصم ، لأن الغرض من الصيام هو حرمان النفس من مألوفها قبل الصيام ، والذى يملأ معدته عند الافطار على نية التعويض تعويض المعدة ما فاتها بالصيام لم يرد لنفسه من الخير إلا قليلا .

السادس — أن يكون قلبه بعد الافطار مضطرباً بين الخوف والرجاء ، إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقربين ؟ أم يردُّ عليه فهو من الممقوتين ؟

٣ — ومفسدات الصوم عند الصوفية هى اقتراف المكاره . أما المفطر بالطعام والشراب فهو أخف من ذلك . وعندهم أن من كف عن الأكل والجماع وأفطر بالآثام مثله مثل من مسح على أعضائه فى الوضوء ثلاث مرات ، ومن فعل ذلك فصلاته مردودة عليه لأنه ترك المهم وهو الغسل . أما الذى يصوم بجوارحه عن المكاره ويفطر بالأكل فمثله مثل من غسل أعضاءه مرة مرة فصلاته متقبّلة لإحكامه الأصل وإن ترك الفضل .

ومعنى ذلك بصريح العبارة أن المهم فى الصوم هو كف الجوارح عن الآثام ، والافطار بالطعام ليس بشىء عند الصوفية وانما هو شبيه بمن تفوته السنة فى آداب الوضوء ، أما الافطار بالمآثم فهو أخطر مايعرض له الصائمون وليس لآثم عندهم صيام وإن قتله الظمأ والجوع .

وعند تامل هذه الأحكام نرى الصوفية يقفون عند المعانى وهم بذلك يخالفون رجال الشرع الذين يجعلون غاية الصوم أو شرائط الصوم موقوفة على الكف عن شهوات الحواس

وليس معنى هذا أن الصوفية لاتهمهم ظواهر الصيام ، لا ، وانما يرون وقوف الصيام عند الجوع والعطش غاية سوقية لا يتسامى اليها أرباب القلوب .

هم لا ينكرون أثر الظمأ والجوع فى كسر الشهوات ، ولكنهم يرون كف النفس عن الآثام غاية الغايات ، وكلّ طاعة هى عندهم باب لاصلاح النفوس .

٤ — والصوفية هم الذين عطروا أيام الصوم بالأنفاس الروحية ، واليهم يرجع الفضل فى نظم ما ساد على ألسنة الناس من الأناشيد ، وقد سلكوا مسالك مختلفة من التنغيم والتطريب ، وكثرت منظوماتهم فى الفن الغنائى الذى يعرف باسم « كان وكان » واليكم هذا الشاهد الطريف :

أيا من عمره طال إلى كم أنت بطال
جميع الدهر نقّال على دهرك أثقال
تبارز بالمعاصى وعنا أنت قاصى
وتدعو بالخلاص وما عندك إقبال
إلى الغيبة ترتاح وما عندك إصلاح
وما يرضيك يا صاح سوى قد قيل أو قال
تمدّ الطرف فى الصوم ولا تخشى من اللوم

ليكتب منك فى اليوم وفى الليلة أفعال
فتب ذا الشهر كى يُمضى وكمّل صومه فرضا
لعل الله أن يرضى ويصلح منك أحوال

واليكم هذا الشاهد :

إن كنت تطلب توبه إنهض فهذا وقتها
فبعد خمس ليال يقال فرغ رمضان
يرحل وما أودعته إلا زخاريف العمل
واحسرتك حين يشهد عليك بالخسران
تصوم نهارِك ولما تفطر تحصل فايتك
تشبع وتنسى الجائع هذا هو الخذلان
تقطع صيامك غيبه والصوم قبوله من عجب
تاكل لحوم العالم وترتجى الاحسان
من ليس يحفظ لسانه ولا الجوارح من زلل
ما له من الصوم إلا يقضى النهار جوعان
بالله عليك قم ودّع شهر الصيام قبل السفر
ولا تخليه يرحل وهو عليك غضبان
بيّض سواد الصحيفه فالموت أدنى من نفس
وخف إلهك تحظى منه غداً بأمان

وفى رحاب الصوفية ظهرت القصيدة المشهورة التى يتغنى بها المنشدون فى توديع رمضان :

شهر الصيام لقد كرُمتَ نزيلا ... ونويت من بعد المقام رحيلا
وأقمت فينا ناصحاً ومؤدباً ... وشفيت منا بالفؤاد غليلا
نبكيك يا شهر الصيام بأدمع ... تجرى فتحكى فى الخدود سيولا
أسفاً على الأنس الذى عودتنا ... وصنيع فعل لا يزال جميلا
شهر الأمانة والصيانة والتقى ... والفوز فيه لمن أراد قبولا
تبكى المساجد حسرة وتأسفاً ... إذ عطلت من أنسه تعطيلا
فيه الجنان تفتحت لقدومه ... وتزينت ولدانها تجميلا
وتفيأت أشجارها بظلالها ... وقطوفها قد ذللت تذليلا

وهى قصيدة طويلة يجدها القارىء فى كتاب الروض الفائق

وللصوفية توسلات خاصة بشهر رمضان :

« إلهى ، وقف السائلون ببابك ، ولاذ الفقراء بجنابك ، ووقفت سفينة المساكين على ساحل كرمك ، يرجون الجواز إلىساحة رحمتك ونعمتك .

«إلهى ، إن كنت لا تكرم فى هذا الشهر الشريف إلا من أخلص لك فى صيامه ، فمن للمذنب المقرّ إذا غرق فى بحر ذنوبه وآثامه .

«إلهى ، إن كنت لا ترحم إلا الطائعين ، فمن للعاصين ؟ وإن كنت لا تقبل إلا العاملين ، فمن للمقصرين ؟

« إلهى ، ربح الصائمون ، ونحن عبيدك المذنبون ، فارحمنا برحمتك ، وجد علينا بفضلك ومنتك ، واغفر لنا أجمعين برحمتك ، يا أرحم الراحمين » .

ولهم فيه تأوهات وحسرات كلوعة الذى يقول :

« إخوانى ، ما أحسن من خلع عليه مولاه خِلع القبول ! وما أنعم بال من بلغه غاية المقصود والسؤل ! وما أشقى من رُدّ عليه صيامُه ، وأحصِيَ عليه قبحه وآثامُه ، ومضت فى البطالة شهوره وأعوامُه ، وآثر شهوة نفسه على خدمة ربه إلى أن ذهبت ساعاته وأيامه ! !

وجملة القول أن الصوفية يرون الصيام فرصةً من فرص القلب والروح ، وتركُ الطعام والشراب هو أهون ما يفكر فيه الصائمون ، والأصل عندهم أن يسلم القلب من الزيغ وأن تسلم الجوارح من آفات البغى والعدوان . وكذلك كانت أقوالهم فى الصوم وآدابه مغمورة بمعانى الرفق والصفاء .

ولا يمكن القارىء أن يتصور مبلغ ما صنع الصوفية فى تحبيب الصوم إلا إن زار المساجد فى رمضان : فهناك يجد الترتيل والتسبيح والتهليل ، وهى تقاليد طريفة يرجع الفضل فى إقامتها وتثبيتها إلى الصوفية ، وهم قوم لم يشغلهم الحرام والحلال وانما انغمست أرواحهم فى لطف الغناء فكانت أحاديثهم وأناشيدهم ترتيلات قدسية لا يدرك أسرارها غير أرباب القلوب .

إن رجال الشريعة يختلفون فيما ينعقد به الصوم من النية ، أما الصوفية فيوجبون النية فى كل لحظة ، ويرون رمضان كله موسماً سنوياً تطهر فيه السرائر والنفوس .

ورجال الشريعة يختلفون فيما يفسد الصوم ، ولهم فى ذلك مزالق ، لأنهم يقفون عند المحسوس من الطعام والشراب . أما الصوفية فيُشغلون بحساب النفس ، ويرون الصوم أصلا من الأصول فى تطهير النفوس والقلوب ، والصائم عندهم لا يشغل نفسه بحديث الظمأ والجوع ، كما يفعل

العوامّ من أشباه الصالحين ، وانما يشغل نفسه بالحقائق الجدية ، ويتسامى إلى الاتصال برب العزة والجبروت .

ينظر العامىّ إلى الهلال فيراه فاتحة للمعجزات الحسية وينظر الصوفى إلى الهلال فيراه فاتحة لطوائف من المعانى الروحية ، وإذا كان الصائم من العامة يفرح عند الغروب لأنه سيرجع إلى الحريه الطبيعية فان الصوفى لا يفرح عند الغروب إلا حين يوقن أنه قضى يوماً سعيداً لم يدنس فيه لسانه بغيبة أو نميمة ، ولم يأثم قلبه بالتفكير فيما سوى الحضرة الربانية .

الصوم هو صوم الصوفية ، والصوفية هم الناس ، ومَن عداهم أشباحٌ بلا أرواح .

وما فضل الجوع فى تهذيب النفوس ؟ إن لحظةً واحدةً من كبح جماح النفس وصدّها عن شهوات البغى والعقوق أفضلُ وأشرفُ من ألف يوم يقضيها العامىّ فى الظمأ والجوع .

إن الصوم عن الطعام ليس بشىء فى جانب الصوم عن الآثام . وهل يتشهى الناس الطعام بقدر ما يتشهون الوقوع فى الأعراض !!

ما هو الكف عن أكلة يتشهاها البطن ؟ إن العزيمة الصادقة لا تُعرَف إلا فى إقامة العدل ، لأن ابن آدم يتشهى الظلم أكثر مما يتشهى أطايب الطعام والشراب .

الصوم صوم النفوس لا صوم البطون ، الصوم الأعظم هو الكف عن إيذاء الناس ، ومن هنا صح لبعض الصوفية أن يقول :

إذا ما المرء صام عن الدنايا　　　فكل شهوره شهر الصيام

آداب الزواج

١ — الأغلب على الصوفية أن ينفروا من الزواج ، وقد استشار رجل الشعبي فى التزوج فقال :

« إن صبرت عن الباه فاتق الله ولا تتزوج ، فان لم تصبر فاتق الله وتزوج (١) »

وقيل لمالك بن دينار : لو تزوجت ! فقال : إنى طلقت الدنيا ثلاثا فلا رجعة لى فيها (١)

وقيل لبعض الصالحين : إلام تبقى عَزَباً ولا تتزوج ؟ فقال : مشقة العزوبة أسهل من مشقة الكدّ فى مصالح العيال (٢)

٢ — وهذا الجواب الأخير فيه سياسة الصوفية ، فهم ينفرون من الزواج هرباً من تكاليف العيش ، وقد حمل ذلك بعضهم على ابتكار المعاذير ، ولكن السبب الأصيل هو الرغبة فى راحة البال

٣ — والظاهر أن الصوفية قبل الاسلام كانوا يميلون إلى العزوبة تأسّياً بالنصرانية ، ولهذا رأينا الرسول يحاربهم أشد الحرب ، فقد قال لعكاف بن وداعة : يا عكاف . ألك امرأة ؟ قال : لا . قال النبي : فأنت إذن من إخوان

---

(١) محاضرات الأصفهانى ج ٢ ص ٨٧ (٢) الكشكول ص ٧٧

الشياطين ، إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم ، وإن كنت منا فمن سنتنا النكاح [١] »

وهذا السؤال من جانب الرسول لا يمكن أن يقع بمثل هذه الحدة إلا إن سُبِق بشواهد من حياة عكاف ، ونرجح أنه كان لعكاف هذا آراء تشبه الدعوة إلى التبتل والرهبانية

وقد بقى شيء من هذا المعنى فى أنفس الصوفية ، فانهم حدثوا أن سبب تزويج أبى احمد القلانسى أن شابا من أصحابه خطب ابنة لصديق لأبى أحمد فلما حضر وقت عقد النكاح امتنع الشاب ، واستحيا من ذلك الرجل الذى كان يزوجه بابنته ، فلما رأى ذلك أبو أحمد قال : ياسبحان الله ! يزوج رجل بكريمته فتمتنع عليه ! وعقد النكاح على أبى احمد ، فقبّل أبو البنت رأسه وقال: ما علمت أن لى عند الله تعالى من المقدار أن يكون لى مثلك خَتَن ، وماعلمت أن لابنتى عند الله تعالى من المقدار أن يكون لها مثلك زوج [٢]

وهذه الحكاية فيها معنى لطيف هو أدب القلانسى فى إنقاذ الموقف — كما نعبر فى هذه الأيام — ولكن النتيجة كانت غريبة فقد بقيت تلك الفتاة ثلاثين سنة عند أبى أحمد وهى بكر [٢]

٤ — فمن أين جاء هذا التبتل ؟ جاء من النصرانية أولاً ، ومن الصابئية ثانياً

أما التبتل فى النصرانية فمعروف ، وأما الصابئون فان العابد منهم ربما

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ١٨

(٢) اللمع ص ١٩٩

خصى نفسه[١] وفى الجزء الرابع من عيون الأخبار[٢] أن ابن المبارك خصى نفسه وعاش مجبوباً ، وتلك نزعة صابئية ، ولكنا رأينا بعد البحث أن ما فى عيون الأخبار خطأ ، وأن الذى خصى نفسه هو أبو المبارك الصابى ، وليس ابن المبارك الصوفى ، وقد هدانا إلى تصحيح هذا الخطأ ما كتبه الجاحظ عن الصابئين فى الجزء الأول من الحيوان[٣]

٥ — وكلام الصوفية عن الزواج يشعر بأنه كان فى أنفسهم من التكاليف الثقال ، وعندهم أن الفقير إذا تزوج فمثله مَثَل رجل قد ركب السفينة فاذا وُلِد له فقد غرق[٤] ، ويؤيد هذا المعنى أنهم نصوا على آداب الزواج « وليس من آدابهم أن يتزوجوا ذوات اليسار ويدخلوا فى رفق نسائهم ، ومن أدب الفقير أن يتزوج بفقيرة مُقِلَّة وأن ينصفها ، وإن رغبت فيه امرأة غنية أن لا يرتفق منها[٥] »

وهذه آداب ترتكز على حفظ الكرامة ، واستقلال النفس ، والبعد من المغانم الدنيوية ، وهم يتمثلون أنفسهم فقراء ، ولا يتسامون إلى المرأة الغنية ، وانما يقبلونها إن رغبت فيهم ، وكانت الفتيات تميل إليهم فى بعض الأحيان

٦ — ويظهر أنه كان معروفاً عنهم التقصير فى رعاية الأطفال ، فان السراج الطوسى يقول :

« وليس من آداب من تزوج أو كان له ولد أن يكل أمر عياله إلى الله

---

(١) الحيوان ج ١ ص ٥٧ (٢) ص ٩٩ (٣) ص ٥٧

(٤) نسب هذا القول الى ابراهيم بن أدهم وسفيان الثورى . أنظر اللمع ص ١٩٩

(٥) اللمع ص ٢٠٠

تعالى ، ويجب عليه أن يقوم بفرضهم إلا أن يكونوا مثله فى الحال (١) .

والنص على هذا الأدب لا يقع بغير سبب ، وانما هو موجّه إلى ناس كانوا يرون من التوكل أن يكلوا أمر عيالهم الى الله

وهذا من الصوفية ضعف رأى ، إن وقع منهم . وهم صالحون لقبول مثل هذا الرأى الضعيف (٢)

٧ — وجملة القول أن الصوفية ينظرون الى الزواج كأنه غُل من الأغلال التى تشل حركة الروح ، وقليل منهم من يفطن إلى ما فى الزواج والذرية من المعانى الروحية ، فالرجل المتأهل الذى يعانى مشاقّ العيش تتفتح أمامه أبواب من الجهاد لا تخلو من شرف ونبل ، وفى رعاية الأهل ميدان لخبرة الخلق والروح ، وأخشى أن يكون الميل الى العزوبة جبناً وهلعاً من تكاليف الحياة ، ولعله لا يكون الا كذلك ، ولا عبرة بدعوى الانقطاع الى الله ، فالسعى فى بر الأهل والذرية هو أيضاً انقطاع الى الله

وفى أعمال المرء كثير من الوجوه المادية ، ولكنها عند النية تصبح وجوهاً روحية . وقصير النظر هو الذى يتوهم أن العبادة لا تكون الا فى العزلة والتسبيح

على أن فى السعى للأهل تعرضاً لضروب من المعاملات تتبين فيها جواهر الأخلاق ، وفى الاتصال بالناس عن طريق المعاش أبواب من المحن الخلقية يُعرف عندها فضل الرجل الكريم الخلال

---

(١) اللمع ص ٢٠٠

(٢) فى قوت القلوب ج ٤ ص ١٤٨ — ١٧٧ كلام مطول عن آراء الصوفية فى الزواج، ولم نشأ تلخيص تلك الآراء لأنها لا تخرج عما أثبتناه فى هذه الفقرات ، فمن كان فى حاجه الى زيادة فليرجع اليها هناك .

للصوفية أن يفروا من الزواج ، ولكن عليهم أن يتذكروا أنهم يفرون من الجهاد ، وأى جهاد أقسى من السعى للأهل والأطفال ؟ إن التصوف كل التصوف أن تواجه مكاره العيش اعتماداً على رعاية الله ، أما إيثار العزوبة حباً فى السلامة ، أو رغبة فى الانقطاع الى الله ، فهو من أعمال الجبناء والغافلين

٨ — ومن الخير أن نشير الى أن من الصوفيه من لم يفته الترغيب فى الزواج ، وإن كان نفّر منه المريدين ، فقد حدث المكى أن بشر بن الحارث كان يقول فى احمد بن حنبل : فضّل علىّ بثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلب الحلال لنفسى ، واتساعه للنكاح وضيقى عنه ، وقد جُعل إماما للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى . ونقل أن بشر بن الحارث رؤى فى المنام بعد وفاته فسئل عن حاله فقال : رُفعت سبعين درجة فى علّيين ، وأُشرف بى على مقامات الأنبياء ، ولم أبلغ منازل المتأهلين[١] ، وأنه قال : وعاتبنى ربى عز وجل فقال : يا بشر ، ما كنت أحب أن تلقانى عَزَبا ، وأن صاحب الرؤيا قال له : ما فعل أبو نصر التمار ؟ فقال : رُفع فوق سبعين درجة ، فقال الحالم : بماذا ؟ فقال : بصبره على بناته والعيال[٢]

ومضى يحدث أن ابن مسعود كان يقول : لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام أموت فى آخرها لأحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عز وجل وأنا عزب ، وأن رسول الله قال : تناكحوا تناسلوا فانى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة ، حتى بالسقط والرضيع [٢]

---

(١) قوت القلوب ج ٤ ص ١٥٣ (٢) القوت ج ٤ ص ١٥٤

وحدث أيضاً أن بعض الصالحين كان يعرض عليه التزويج فيأباه برهة من دهره ، فانتبه من نومه ذات يوم فقال : زوجونى ! فسئل عن سبب ذلك فقال : رأيت فى نومى كأن القيامة قد قامت وكنت فى جملة الخلائق فى الموقف وبى من العطش ما يكاد يقطع عنقى ، وكذلك الخلائق فى شدة العطش من الحر والشمس والكرب . قال : فبينا نحن كذلك إذ الولدان يتخللون الجمع عليهم مناديل من نور ، وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب ، وهم يسقون الواحد بعد الواحد ، ويتخللون الجمع ويجاوزون أكثر الناس . قال : فمددت يدى الى أحدهم فقلت : اسقنى شربة فقد أجهدنى العطش . فقال: ليس لك فينا ولد ، انما نسقى آباءنا. فقالت : ومن أنتم ؟ فقالوا: نحن من مات من أطفال المسلمين (١)

ورواية أمثال هذه الأخبار هى دعوة إلى الزواج ، وهذه الأحلام نفسها تدل على أن من الصوفية من كان يشعر بأهمية الزواج من الوجهة الدينية

ولنقيد ما تنبه اليه أحدهم من فضيلة الصبر على البنات والعيال ، فهى لمحة تدل على بصر بعزائم الأمور فى عالم الأخلاق

٩ — على أن الصوفية فى زواجهم وعزوبتهم ينتهون إلى غاية واحدة هى الفناء ، والرجل الجائع الخامد يعسر عليه أن يأتى بنسل متين ، وما نظن الرسول يكاثر بالأبناء الضعفاء ، انما يكاثر بالذرية القوية التى تحفظ الثغور وتقيم الحصون ، وهؤلاء لا ينجبهم إلا من يعرفون قوة الجسم قبل أن يعرفوا صفاء الروح ، وذخيرة الأمم فى العوام لا فى الخواص

(١) القوت ج ٤ ص ١٥٥

أدب الأخوة

اهتمام الصوفية بالأخوة — الأخوة عمل ينفع — من هو الصديق فى عرف الصوفية؟ — الأخ والصديق — الحب فى الله — كيف نعامل الصديق المذنب — فضل الصفح والاغضاء — أدب الصديق — ترك المماراة — ترك الخلاف — الوفاء فى الحياة وبعد الممات — الصوفية لايبذلون المودة لجميع الناس — القصد فى الحب والبغض — المحبة عمل يحتاج الى حسن خاتمة — كيف تفرد الصوفية باطالة القول فى أدب الأخوة .

---

١ — اهتم الصوفية بالأخوّة أبلغ اهتمام ، ولم يفرط منهم فى بيان آدابها إلا القليل ، وهم يرون أنفسهم مسئولين عن رعاية ما سنّه الحكماء فى مختلف الملل من أدب الصداقة والوداد ، فيروون ما أثر عن النصارى واليهود ، والفرس والروم ، ويتمثلون بكلام الشعراء ، وإن لم يكن أولئك الشعراء من المعروفين بالزهد والصلاح

وقد يستطيع الناقد أن يجد مغمزاً فى أكثر ما سنّ الصوفية من شرائع الأخلاق ، ولكن ما كتبوه عن أدب الأخوة أمنع من أن يمتدّ اليه فكر بغمز أو تجريح ، فهؤلاء الناس فهموا الصداقة كما ينبغى أن تفهم ، وكلامهم فيها كلام من يعرف قيمة الصديق ، ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر من كتبوا فى آداب المودة عيال عليهم ، لأن الصوفية يتكلمون عن الألفة كلام من يعتقد أنه سيحاسب يوم القيامة عما قدّم فى عالم الأخوة والوداد . فلا تسأل أين الجديد فى كلامهم عن الصداقة ، ولكن انظر إلى الحماسة التى صوروا

بها أواصر المودّة لترى فضلهم فى تعريف الناس بحقائق الاخاء ، وليس المهم أن تدعو إلى فكرة ، ولكن المهم أن تصل بالفكرة إلى أعماق القلوب

ولسنا فى حاجة إلى تأكيد أهمية الصداقة فى الحياة الروحية والاجتماعية، فمشاكل الأفراد والجماعات يرجع أكثرها إلى انفصام عرى المودة بين الناس، ولو عرفت الجماهير كيف تتعامل وكيف تتوادّ لانعدمت أصول كثيرة من جرائيم الشقاق

وباب الأخوة والصحبة فى مؤلفات الصوفية باب نفيس نودّ لو أخذت منه صورة للمطالعة فى المدارس الثانوية ، ففيه من الحكم والأمثال والأقاصيص نكت بديعة تمتع العقل والروح . وفيما كتب الصوفية عن أدب الأخوة ما يكفى لتوجيه النفوس إلى الاقتناع بأن الأخوة مشكلة أخلاقية ، وأنها جديرة بأن تكون مما يوضع فى الموازين عند تقويم ملكات الرجال

٢ — وأعجب ما تنبهت له من كلام الصوفية ما قيل : إن الأخوين فى الله عز وجل إذا كان أحدهما أعلا مقاماً من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه ، وأنه يلحق به كما تلحق الذرية بالأبوين والأهل بعضهم ببعض : لأن الأخوة عمل كالولادة (١)

الأخوة عمل كالولادة ؟ هذا والله عجيب ، وهو يدلنا على فهمهم للمشقات التى يعانيها من ينشئون الأخوّات ، فالموّدة فى تصورهم تحتاج إلى ضروب

---

(١) قوت القلوب ج ٤ ص ١١٦

من السياسة العملية لا يصبر عليها إلا الراشدون، والذى يرعى صديقه لا يقلّ جهداً عن الذى يرعى ولده، وله من رعاية الصداقة أجر فى الآخرة يساوى أجره فى رعاية الأهل والأطفال

٣ — ولكن من هو الصديق فى عرف الصوفية ؟

هو الأمين، ولا أمين إلا من خشى الله عز وجل، فلا تصحب الفاجر فتعلَّم فجوره، ولا تطلعه على سرك. وليكن صاحبك من إذا خدمته صانك، وإن قعدت بك مؤونة مانك، وإن مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن رأى منك سيئة سدّها، وإن سألته أعطاك، وإن سكتّ ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، وإن قلت صدَّق قولك، وإن تنازعتما آثرك، إن صديقك هو من يسدّ خللك، ويستر زللك، ويقبل عللك. ومن حق الصديق عليك أن تتجاوز له عن ثلاث: عن ظلم الغضب وظلم الهفوة، وظلم الدالّة (١)

ذلك هو الصديق فى عرف الصوفية، فهو أولاً رجلٌ يخاف الله، وهو ثانيا رجلٌ مواسٍ ألوف، كثير الصفح، وافر الحياء

٤ — وهذا الصديق أخ لك لم تلده أمك، والقرابة تحتاج إلى مودّة، أما المودة فلا تحتاج إلى قرابة، وقد قيل لحكيم بن مرة: أيما أحب اليك، أخوك أم صديقك ؟ فقال: إنما أحب أخى إذا كان صديقا (٢)، وقال أكثم ابن صيفى: يا بنىّ، تقاربوا فى المودة، ولا تتكلوا على القرابة (٣)، وكان

---

(١) انظر قوت القلوب ج ٤ ص ١١٨ (٢) القوت ج ٤ ص ١٢٢
(٣) القوت ج ٤ ص ١٢٣

عبد الله بن الحسن البصرى يعرف إخوان الحسن إذا جاءوه لطول لبثهم عنده ، ولشدة شغله بهم ، فيقول لهم : لا تملّوا الشيخ ! فكان الحسن إذا علم ذلك يقول: دعهم يا لكع ، فإنهم أحبّ إلىّ منكم ، هؤلاء يحبونى لله عز وجل ، وأنتم تريدونى للدنيا (١) وكان الحسن وأبو قلابة يقولان : إخواننا أحب الينا من أهلينا وأولادنا ، لأن أهلينا يذكّرونا الدنيا وإخواننا يذكّرونا الآخرة (٢)

فأساس العلاقة هو العمل الصالح لا المنافع الدنيوية ، وأخوة القرابة عديمة القيمة إذا عريت من أخوة المودة ، وهذه نظرة سليمة تصلح لجميع الناس فى كل زمان ومكان

٥ — وأصل الحب أن يكون فى الله ، وقد روى عن النبى أنه قال : ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة ، ووجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفزع الناس وهم لا يفزعون ، ويخاف الناس ولا يخافون ، وهم أولياء الله عز وجل الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقيل من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقال : هم المتحابون فى الله عز وجل . ورواه أبو هريرة فقال فيه: إن حول العرش منابر من نور ، عليها قوم لباسهم نور ، ووجوههم نور ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء ، فقالوا : يا رسول الله ، صفهم لنا ، فقال : هم المتحابون فى الله عز وجل ، والمتجالسون فى الله تعالى ، والمتزاورون فى الله تعالى (٣) وهؤلاء المتحابون فى الله إذا التقوا فهشّ بعضهم

---

(١) القوت ج ٤ ص ١٢٤ (٢) القوت ج ٤ ص ١٢٣ ، وليلاحظ القارىء أن نون الرفع حذفت تخفيفا فى بعض الأفعال من هذه الشواهد

(٣) القوت ج ٤ ص ١٢٠

إلى بعض تتحاتُّ عنهم الخطايا كما يتحاتُّ ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس[١] والمتآخيان فى الله يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظلَّ إلا ظله[١]

ومن شرط المحبة فى الله « أن لا تكون لرحم يصلها ، أو لنعمة يربها[٢] » فقد جاء فى الأثر أن رجلا زار أخا فى الله فى قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا فقال: أين تريد ؟ قال : أردت أخا لى فى هذه القرية قال هل بينك وبينه رحم تصلها أو له عليك نعمة تربها ؟ قال : لا ، إلا أنى أحببته فى الله تعالى ، قال الملك : فانى رسول الله اليك ، إن الله تبارك وتعالى قد أحبك كما أحببته فيه[٢]

والحب فى الله يوجب التزاور والتباذل والتصافى . ولقاء الاخوان له لذة تعدل الصلاة فى جماعة والتهجد من الليل[٣]

وهذا النوع من المودة هو أفضل وأشرف ما يقع بين الناس من العلاقات الوجدانية

٦ — ومن واجب المؤمن أن يرعى حرمة الصداقة ، وأن يتأسى بالدعاء المأثور « يا من أظهر الجميل ، وستر القبيح ، ولم يؤاخذ بالجريرة ، ولم يهتك الستر[٣] » فيظهر حسنات إخوانه ، ويستر مساويهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم ويسدل الستر على مايقعون فيه من خطايا وهفوات

وقد اختلف مذهب الصحابة فى الأخ يحب أخاه فى الله ، ثم ينقلب الآخر عما كان عليه ، هل يبغضه بعد ذلك ؟ فكان أبو ذرٍّ يقول : إذا انقلب عما كان عليه وتغير فأبغضه من حيث أحببته، وكان أبو الدرداء يقول بخلاف

---

(٤) القوت ٤ ص ١٢٠ (٢) القوت ج ٤ ص ١٢١ (٣) القوت ج ٤ ص ١٢٢

ذلك ، وقد حدثوا أن شاباً غلب على مجلسه حتى أحبه أبو الدرداء ، فكان يقدمه على الأشياخ ويقرّبه فحسدوه ، وأن الشاب وقع فى كبيرة من الكبائر فجاءوا إلى أبى الدرداء وحدثوه وقالوا : لو أبعدته ! فقال : سبحان الله ! لانترك صاحبنا لشيء . وقال بعض التابعين فى مثله : انما أبغض عمله وإلا فهو أخى . وكذلك قال الله عز وجل لنبيه فى عشيرته (فان عصوك فقل إنى برىء مما تعملون) ولم يقل : قل إنى برىء منكم للحمة النسب ، وقد قيل للصداقة لحمة كلحمة النسب . وكان أبو الدرداء يقول : إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك ، فان أخاك يعوّج مرة ويستقيم أخرى ، وكان يقول : داو أخاك ، ولا تطع فيه حاسداً فتكون مثله . وقال ابراهيم النخعى : لا تقطع أخاك ، ولاتهجره عند الذنب فانه يركبه اليوم ويتركه غداً . وقال أيضاً : لا تحدثوا الناس بزلة العالم ، فان العالم يزل الزلة ثم يتركها ، وروى عن الرسول أنه قال : شرار عباد الله المشّاءون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العيب (١)

فالرأى الأول يقول بقطيعة المذنب ، وله وجه . أما الرأى الثانى فهو غاية فى التسامح ، وهو رأى حكيم ، لأن مقاطعة المذنبين تغريهم بالاثم ، وتزين لهم الفسوق ، وتملأ صدورهم بالحقد على الصالحين ، وتلك جرائيم لفساد الأخلاق .

والرجل الصالح حقاً هو الذى يعرف ضعف النفس الانسانية ، ويعرف كيف يسوس المذنبين فينقلهم من الغىّ إلى الرشد ، ويغنمهم لحزب الهدى

---

(١) أنظر قوت القلوب ج ٤ ص ١٢١ ، ١٢٢

بعد أن غنمهم الشيطان مرة لحزب الضلال

ولكن هذه النظرة الحكيمة ليست من حظ جميع الصوفية ، وانما هى من حظ أشرافهم الذين أغنتهم نفوسهم عن كسب الشرف المزيف الذى يُجْتَلَبُ باسم الغيرة على الخلق والدين

والرجل النافع هو الذى يفكر عند أول وهلة فى إنقاذ من زلّت قدمه ، ولا يشغل نفسه عن الواجب بترديد الصياح والصراخ

وعند هذه النقطة الدقيقة تَزِلُّ أقدام كثير ممن يتحدثون عن الأخلاق فأكثر أهل الغيرة لا يغارون إلا على منافعهم الذاتية ، ومن منافعهم أنْ تُسْمَعَ أصواتهم باستنكار الاثم والفسوق !

وللشيطان فى هذه المزالق حيل شيطانية ! فهو يُخَيِّل للناس أن من واجبهم أن يصيحوا ويصرخوا ، وأن من التهاون أن يسكتوا عن منكر رأوه بأعينهم ، أو ترامتْ أخباره اليهم ، وكذلك ينطلقون فيضيفون إثماً إلى إثم ، وعدواناً إلى عدوان

ولا سبيل الى قهر الشيطان إلا بالموازنة بين الحالين : حال الغضب وحال الستر. فالذى يعلن غضبه حين يذنب أخوه يستطيع أن يضمن رضا العامة ، ولكنه قد يبعد من رضا الله ، لأن إعلان الغضب قد يجرّ على أخيه المذنب مصائب أدبية واجتماعية ، ويعرّض رزقه ورزق أهله للضياع ، إذا كان ممن يعيشون بمعاملة الناس ، وإعلان الغضب قد ينتهى الى التشهير ، ولذلك عواقب وخيمة لا يستهين بها إلا الغافلون . وحين ينتهى الغضب المطبوع

أو المصنوع إلى مثل هذه الحال فهو بلا ريب من الكبائر عند من يفهمون دقائق الأخلاق

أما الستر فهو من أخلاق الكرام بين الرجال ، وهو عنوان النبل والدين وله مزايا كثيرة :

فهو أولا دليل على الرفق ، ومن واجب المؤمن أن يستر عورة أخيه ، وأن ينصحه فى السر لا فى العلانية ، وهو ثانيا شاهد على نزاهة النفس ، لأن إظهار السخط على المذنبين يرجع فى أكثر الأحوال إلى شهوة خفية هى حب التسلط والاستعلاء

فان لم يكن بدّ من الغضب على المذنبين فليكن ذلك فى حدود العقل ، فان كانت الذنوب متصلة بالمصالح الاجتماعية والمعاشية بذل الناصح جهده ليجمع بين الفضيلتين : إنقاذ المذنب بالنصح ، والسعى الرزين لسلامة مايتصل بأعماله من شؤون المعاش ، وإن كانت الذنوب واقعة فى حدود التكاليف الذاتية التى يوجبها الشرع فمن الأدب أن نترك حساب ذلك لعلّام الغيوب

وليس معنى هذا أنا نقول بترك النـــاس يذنبون كيف يشاءون ، لا ، ولكنا نقول بكفّ عادية الناصحين ، فأكثر النصح ظلم وعدوان ، ومن أدعياء الأخلاق من يختلق لخصومه طوائف من المساوىء والعيوب ، ثم يمضى فيلبس ثياب الأتقياء ، وينقلب إلى واعظ يبكى على الفضيلة بدموع التماسيح . وأمثـــال هؤلاء تروج دعواتهم ، ويُمسون ولهم سوقٌ فى عالم الأراجيف ، وقد يَفْسُد الزمن فيكون لمُفتَرَياتِهِمْ صوتٌ مسموع ، وفى الدنيا شهداء راحوا ضحية هذه الدعاوى الباطلة ، دعاوى الحرص على الفضيلة

والأخلاق ، وبدعوى الفضيلة والخلق تُنْـتَهَبُ حقوق ، وتَضيعُ على أهلها حقوق

وهذا الذى نقول به تنبه له كبار الصوفية ، فقد كان الرجل إذا كره من أخيه خُـلُقاً عاتبه فيما بينه وبينه ، أو كاتبه فى صحيفة . قال المـكى : وهذا لعمرى فرق بين النصيحة والفضيحة ، فما كان فى السر فهو نصيحة ، وما كان فى العلانية فهو فضيحة ، وقلما تصح فيه النية لله تعالى لأن فيه شناعة (١)

وقد أفصح الغزالى عن ذلك حين قال :

« وروى فى الاسرائيليات أن أخوين عابدين كانا فى جبل ، ونزل أحدهما ليشترى من المصر لحماً بدرهم ، فرأى بَغِيَّةً عند اللحام فرمقهـا وعشقها واجتذبها إلى خلوة فواقعها ، ثم أقام عندها ثلاثاً ، واستحيا أن يرجع إلى أخيه حياءً من جنايته ، فافتقده أخوه واهتم بشأنه ، فنزل الى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دُلَّ عليه ، فدخل اليه وهو جالس معها فاعتنقه وجعل يقبله ويلتزمه ، وأنـكر الآخر أنه يعرفه لفرط استحيائه منه ، فقال : قم يا أخى . فقد علمت شأنك وقصتك ، وما كنتَ قطُّ أحبَّ إلىَّ ولا أعزَّ من ساعتك هذه . فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه قام فانصرف معه »

قال الغزالى : فهذه طريقة قوم ، وهى ألطف وأفقه من طريقة أبى ذَرٍّ رضى الله عنه ، وطريقته أحسن وأسلم . فان قلت : ولم قلت هذا ألطف وأفقه ومُقَارِفُ هذه المعصية لاتجوز مؤاخاته ابتداءاً ، فتجب مقاطعته انتهاءاً ، لأن الحكم إذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلة عقد الأخوة

(١) قوت القلوب ج ٤ ص ١٢٦

التعاون فى الدين ، ولا يستمر ذلك مع مُقَارَفَةِ المعصية ؟ فأقول : أما كونه ألطف فلما فيه من الرفق والاستمالة والتعطف المفضى إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة ، ومهما قوطع وانقطع طمعه فى الصحبة أصر واستمر ، وأما كونه أفقه فمن حيث أن الأخوة عَقْدٌ يَنَزَّل منزلة القرابة ، فاذا انعقدت تأكد الحق ، ووجب الوفاء بموجب العقد ، ومن الوفاء به أن لا يُهْمَلَ أيام حاجته وفقره ، وفَقْرُ الدين أشدّ من فقر المال ، وقد أصابته جائحة ، وأَلَمَّتْ به آفة افتقر بسببها فى دينه ، فينبغى أن يراقب ويراعَى ولا يُهمل ، بل لا يزال يُتَلَطَّف به ليُعَان على الخلاص من تلك الواقعة التى ألمت به ، فالأخوَّة عُدَّةٌ للنائبات وحوادث الزمان ، وهذا من أشد النوائب ، والفاجرُ إذا صحب تقيًا وهو ينظر إلى خوفه ومداومته فسيرجع على قرب ، ويستحي من الاصرار ، بل الكسلان يصحب الحريص فى العمل فيحرص حياءً منه [1] »

٧ — وعلى الصديق أن يعاتب صديقه إذا جدَّ ما يوجب ذلك ، فمعاتبة الصديق خير من فقده [2] ومن واجب الرجل أن يصبر لأخيه ، ويشكر له ، ويحلم عنه [3] وليتذكر أن من اقتضى اخوانه ما لا يقتضون منه فقد ظلمهم ، ومن اقتضى منهم ما يقتضون منه فقد أتعبهم ، ومن لم يقتضهم فقد تفضل عليهم [4] . وعليه أن يزور صديقه ، وأن يشيِّعه حين يتفضل بزيارته ، وأن يسأل عنه حين يغيب ، فقد كان عطاء يقول : تفقدوا إخوانكم

---

(١) الاحياء ج ٢ ص ١٨٦ (٢) القوت ج ٤ ص ١٢٦ (٣) القوت ج ٤ ص ١١٩ (٤) القوت ص ١٢١

بعد ثلاث ، فان كانوا مَرْضَى فعودوهم ، وإن كانوا مشاغيل فأعينوهم ، وإن نَسوا فذكِّروهم (١)

٨ — ومن الأدب أن يسكت الرجل عن ذكر عيوب الصديق فى غيبته وحضرته ، وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله ، وإذا رآه فى طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ، ولا يسأله عن وجهته ، فقد يثقل عليه ذلك أو يحتاج إلى أن يكذب فيه ، ومن الأدب أن يسكت عن أسراره التى بثها إليه ، ولا يبثها إلى غيره ألبتة ، ولا إلى أخص أصدقائه ، ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة ، فان ذلك من لؤم الطبع ، وأن يسكت عن القدح فى أحبابه وأهله وولده ، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، ولا ينبغى أن يُخْفِىَ ما يسمع من الثناء عليه ، فان السرور به يَحْصُل أولاً من المبلِّغ ، ثم من القائل ، وإخفاء ذلك من الحسد ، وخلاصة القول أنه يحسن السكوت عن كل كلام يكرهه الصديق جملة وتفصيلا ، إلا إذا وجب عليه النطق فى أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، ولم يَجِدْ رُخصَةً فى السكوت (٢) .

وهذه الآداب تدلّ على بصر الصوفية بأسرار النفوس ، فالمرء يحب بفطرته أن يَحتفِظَ بأشياء كثيرة من شؤونه الشخصية ، ويسوءه أن يتعقب أسرارَهُ أخٌ أو صديق ، ومن الناس من يظن أن الصداقة تعطيه الحق فى أن يعرف تفاصيل ما أنت عليه فى شؤونك الوجدانية والمعاشية ، ويرى من سوء الرعاية أن تَطْوِىَ عنه بعض أخبارك ، ومنهم من يتوهَّم

---

(١) القوت ج ٤ ص ١٢٣ (٢) الاحياء ج ٢ ص ١٧٨

أن الأدب يفرض عليه أن ينقل اليك ما يهمس به أعداؤك وحاسدوك ، وينسى أن لذلك عواقب بعضها خَطِر وبعضها قبيح ، فقد تتأرّثُ بذلك عداوات كانت خمدت ، وقد يَفُلُّ ذلك من عزم الصديق فيقتل حيويته ويصدّه عن الكفاح المشروع ، ومن الأصدقاء من يحسب أن من حقه أن يتعرض بالنقد والملام لأحبابك وأهلك وأبنائك ، وتلك ضروب من الفضول لا يقع فيها رجل حصيف

٩ — وقد اهتم الصوفية اهتماماً خاصاً بتقبيح المماراة والمدافعة فى كل ما يتكلم به الصديق ، وحدّثوا أن الرسول قال : مَن ترك المِراءَ وهو مُبطِلٌ بُنِيَ له بيت فى رَبَضِ الجنة ، ومن ترك المراء وهو مُحِقٌّ بنِيَ له بيت فى أعلا الجنة . هذا مع أن تَرْكَه مبطلاً واجبٌ ، وقد جعل ثواب الفضل أعظم لأن السكوت عن الحق أشدّ على النفس من السكوت عن الباطل . وعلى الجملة فلا باعث على المماراة إلا إظهار التميز بمزيد العقل والفضل . واحتقار المردود عليه باظهار جهله ، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والايذاء والشتم بالحمق والجهل ، ولا معنى للمعاداة إلا هذا (١)

وأشهد أن هذا الأدب من خير ما دعا إليه الصوفية ، وقد غَفَلْتُ عنه فى حياتى الأدبية فأضعت جميع أصدقائى ، وأكاد أحكم بأن حَمَلةَ الأقلام فى عصرنا هذا قَلَّ أن يبقى لهم صديق ، فباسم حرية الرأى وحرية النقد ، وحرية النشر ، وحرية القول ، تقع كلمات وعبارات تأتى على المودة من الأساس .

---

(١) الاحياء ج ٢ ص ١٨١

ولا أنكر أن فى الجدل والمماراة فوائد تعليمية ، وباسم هذه الفوائد نرتكب من الشطط ما لا يُباح ، ولكن لا يمكن نكران ما فى انهدام صروح المودّات من الخسران المبين .

وأذكر أنى قمت وأنا طالب فى الجامعة المصرية فماريت طالباً ألقى درساً من دروس التمرين ، وكانت مماراة عنيفة غضب لها الأستاذ الدكتور منصور فهمى وأقبل يعاتبنى فى قسوة ، فقلت : إنى لا أضمر سوءاً لهذا الطالب فهو صديقى ، فقال الأستاذ : ما هكذا يُعامِل الصديقُ الصديق !

ولو تأدبنا بأدب الصوفية فى ترك المماراة لما شاهدنا كل يوم مَصرَعاً فى الحياة السياسية والاجتماعية ، ففى أكثر الأحزاب يَشِبُّ الخلاف وتَتقِدُ نيران المماراة ، ثم تصل إلى الصحف فيضيف لها اللغط وقوداً إلى وقود ، وما هى إلا أيام حتى تستفحل العداوات بين أصدقاء كان تآلفهم مضرب الأمثال .

وقد يقال إن ناساً تصاولوا فى ميادين الأدب والسياسة ثم ظلوا أصدقاء وهذا صحيح ، ولكن من يضمن سلامة القلوب من الندوب التى يورِثها الجدل العنيف ؟ هؤلاء لم يظلوا أصدقاء على نحو ما كانوا فى سالف العهد ، ولكنهم يتجملون فيخفون العَتْب ويُظهِرون الوداد .

١٠ — ولا يكتفى الصوفية بتقبيح المماراة ، بل يوصون بترك الخلاف ، وكل صاحب تقول له : قم بنا ، ويقول إلى أين ؟ فليس بصاحب [١] والخلاف أصل كل فُرْقَة وهى لطيفةُ الشيطان فى افتراق المتحابين فى الله[١]

(١) اللمع ص ١٧٧

وقال أبو سعيد الخراز : صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بيني وبينهم خلاف ، فقيل له : وكيف ذاك ؟ فأجاب : لأني كنت معهم على نفسي [١]

١١ — والوفاء من شروط الاخاء ، وهو أن يكون الرجل لصديقه في غيبته ومن حيث لا يعلم ولا يبلغه مثل ما كان له في شهوده ومعاشرته ، ويكون له بعد موته ولأهله من بعده كما كان له في حياته ، وكان من الصالحين من يَخْلُفُ أخاه في عياله بعد موته أربعين سنة لا يفقدون إلا وجهه ، ويقال إن مسروقاً ادَّان دَيْناً ثقيــلا وكان على أخيه خَيْثمةَ دَيْنٌ ، فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم ، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق سِراً وهو لا يعلم . فمن حقيقة المؤاخاة في الله عز وجل إخلاص المودة بالغيب والشهادة ، واستواء القلب مع اللسان ، واعتدال السِّرِّ مع العلانية في الجماعة والخلوة ، فاذا لم يختلف ذلك فهو إخلاص الأخوة ، وإن اختلف ففيه مداهنةٌ في الأخوة ، ومماذَقَةٌ في المودة ، وذلك دخلٌ في الدين ، ولا يكون مع حقيقة الايمان [٢]

والصوفية لا يبذلون المودة لجميع الناس : فلا تصح مؤاخاة مبتدع في الله تعالى ، ولا محبة فاسق على فسوقه ، ولا محبة فقير أحب غنياً لأجل دنياه ، وقد تصح الأخوة بين العالم والجاهل ، وبين الصالح والطالح ، إذا صحت النية ، وكان للعالم رجاء في تعليم الجاهل ، وللصالح أمل في تقويم الطالح [٣]

وقال سهل بن عبد الله : اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس: الجبابرة

---

(١) اللمع ص ١٧٧ (٢) قوت القلوب ج ٤ ص ١٢١

(٣) القوت ج ٤ ص ١٢٥

الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين (١)

ومع هذا التحرز يوصون عند المحبة بالقصد فى الحب كما يوصون عند العداوة بالقصد فى البغض ، عملا بما روى عن على : أحبب حبيبك هوناً مّا عسى أن يكون بغيضَك يوماً مّا ، وأبغِض بغيضك هَوناً مّا عسى أن يكون حبيبك يوماً ما ، وتأدباً بقول عمر بن الخطاب : لا يكن حبك كلفاً ، وبُغضُك تَلفاً ، وقول أسلم فى تفسيره : إذا أحببت فلا تَكلف كما يَكلفُ الصَّبِىُّ بالشىء يحبه ، وإذا أبغضت فلا تُبْغِض بُغْضاً تحب أن يَتلفَ به صاحبُك ويَهلك (٢)

١٣ — والمحبة عند الصوفية عمل ، وكل عمل يحتاج إلى حسن خاتمة ، فمن لم يحسن عاقبة الصحبة أدركه سوء الخاتمة ، وبطل عنه ما كان عليه قبل ذلك (٣) .

١٤ — فان سأل القارىء : كيف تفرد الصوفية باطالة القول فى أدب الأخوة ؟ فانا نجيب بأن فراغ حياتهم من الشواغل المادية مال بهم إلى الاكثار من الكلام عن الشواغل المعنوية ، والرجل الخلىّ البال من هموم المعاش يجد متَّسعاً من الوقت لتأمل آداب الصحبة والألفة ومعاملة الرجال أما الذين تكثر شواغلهم الدنيوية فينصرفون عن النوازع الوجدانية ، ولا يلتفتون إلى دقائق الخواطر والاشارات فيما يتصل بأدب التودد إلى الناس .

يضاف إلى هذا أن الصوفية يقفون عند المودة المنزَّهة عن الأغراض

---

(١) اللمع ص ١٧٩ (٢) القوت ج ٤ ص ١١٨ (٣) القوت ج ٤ ص ١١٧

وهى مودة لا تخلو لها قلوب المشغولين من أهل المنافع ، الذين لا يبذلون التحية إلا لغرض مكنون

وليتذكر القارىء أنا نكتب هذا وخواطرُنا مُوَزَّعَةٌ بين أشتات من شواغل الحياة ، فلسنا ندرِكُ أغراض الصوفية على نحو ماكانوا يدركون ، ومن المؤكد أن علائقهم فيما بينهم كانت تجلب اليهم ضروبا من المتَع والمسَرّات لا تتيسَّر لمن يقفون فى ألفتِهم عند الحدود الرسمية والمعاشية .

ولست أدرى كيف يَعسُرُ على من يعيشون عَيشَ الصَّخَب والضجيج أن تكون لهم جوانبُ روحية يَخلون اليها مِنْ وَقت الى وقت ليتنسَّموا رَوحَ الأنس والصفاء فى ظلال المودة الخالصة والاخاء الأمين !

الحبُّ الحبُّ الحبُّ !

بداية الصوفية فى الحب — ظرف الصوفية — بين النوازع الحسية والعواطف الروحية — تأييد الحب الحسى بالمعانى الدينية — فتنة الصوفية بالأحداث — هجوم ابن الجوزى عليهم — رأى ابن القيم فى صبابة ابن داود — خوف الصوفية من أخطار الجمال — عزائم الصوفية وأدبهم فى رياضة النفس — الدفاع عن الصوفية — رأى ابن القيم فى الجمال — صور مبتكرة فى التنفير من الحب الأثيم — دعوة النفس الى حرب الهوى — بين العقل والدين .

---

١ — يجب أن يكون عنوان هذا الفصل على هذه الصورة ، فما أعرف كلمة من أسماء المعانى شغلت الصوفية كما شغلتهم كلمة الحب ، ويكفى أن تتذكر أن أناشيد الصوفية تدور كلها حول الحب ، وأن التصوف لا يصلح إلا بفضل الحب ، ولا يفسد إلا بسبب الحب ، فالحب هو الأول والآخر فى حياة أولئك الناس

وأغلب الظن عندى أن الصوفية ابتدأوا حياتهم بالحب الحسى ، ثم ترقوا إلى الحب الروحى . والانتقال من حب الجمال إلى التصوف معقول ، ولاسيما فى حالة الحرمان من المحبوب . والحرمان قد يكون من آثار التصون والتجمل والعفاف ، ثم يصير بأصحابه إلى الضعف فلا ترى منهم غير الأنين والحنين . وكذلك كان العذريون ، فهم فى الأغلب ضعفاء ، والضعف الحسىّ هو بداية الإقبال على المعانى الروحية فى أكثر الأحوال (١)

---

(١) من الصوفية من صرح بأن عشق الغلمان وصور الحسان هو قنطرة الى عشق الإلـه. وذلك الصوفى هو صدر الدين الشيرازى ، وهذا الرأى الصريح كان من أسباب ثورة رجال=

وتمرّس الصوفية بالحب فى مطلع الشباب هو السرّ فيما يظهر عليهم من معانى الظرف . وقد حدثوا أن أحد تلامذة ابن جابر الاشبيلى قال لغلام جميل الصورة : بالله أعطنى قبلة تمسك رمقى ، فشكاه الغلام إلى الشيخ وقال له يا سيدى ، قال لى هذا كذا ، فقال له الشيخ : وأعطيته ما طلب ؟ فقال : لا . فقال الشيخ : فما هذه الثقالة ؟ ما كفاك أن حرمته حتى تشتكى به أيضاً ؟ ! (١)

وكان ابن جابر هذا من المعروفين بالزهد والصلاح

وخرج أبو حازم الصوفى يرمى الجمار ومعه قوم متعبدون وهو يكلمهم ويحدثهم ويقص عليهم فاذا هو بامرأة حاسر قد فتنت الناس بحسن وجهها ، وألهتهم بجمالها ، فقال لها : يا هذه ، إنك بمشعر حرام ، وقد فتنت الناس وشغلتهم عن مناسكهم ، فاتقى الله واستترى ، فان الله عز وجل يقول فى كتابه العزيز (وليضربن بخُمُرهن على جيوبهن) فقالت : يا أبا حازم ، إنى من اللاتى قال فيهن الشاعر :

= الدين عليه (انظر أطروحة أبى عبد الله الزنجانى ص ٢٥) .

والواقع أن الذين ثاروا عليه لم يفهموا ما يرمى اليه ، فقد كان الرجل من القائلين بوحدة الوجود ، والصور الجميلة من أنفس العناصر فى الوحدة الوجودية ، وربما كان التأمل فيها هو الذى ألهم الصوفية فتنة القول بالحلول أو القول بوحدة الوجود .

وما نقول به يختلف عما يقول به الشيرازى بعض الاختلاف ، فالميل الى الجمال هو فى رأينا تربية للذوق تنتهى بالانتقال من المحسوس الى المعقول ، وهو عند الشيرازى خطوة أساسية فى سبيل الوصول ، إذ كان الجمال المحسوس جزءاً من الجمال المطلق الذى يتكون من المحسوس والمعقول .

والظاهر أن الشيرازى أجرأ منا وأصرح

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٣٢٢

أماطت كساء الخزّ عن حر وجهها وأرخت على المتنين برداً مهلهلا
من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

فقال أبو حازم لأصحابه : تعالوا ندع الله لهذه الصورة الحسنة أن لا يعذبها الله بالنـار . فجعل أبو حازم يدعو وأصحابه يؤمّنون . فبلغ ذلك الشعبى فقال : ما أرقكم يا أهل الحجاز وأظرفكم ! أما والله لو كان من قرى العراق لقال : اعزبى عليك لعنة الله ! (١)

ونحن نرى ذلك ظرفا صوفيا قبل أن يكون ظرفا حجازيا

والصوفية أنفسهم يعرفون محنتهم بالعلاقات الغرامية وفيهم من يعتذر بأن الهوى لم يغز قلوبهم إلا لحكمة إلهية فيقول :

« إن الله جلَّ ثناؤه انما امتحن الناس بالهوى ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهوونه ، وليشق عليهم سخطه ، ويسرَّهم رضاؤه ، فيستدلوا بذلك على قدر طاعة الله عزَّ وجلَّ ، إذ كان لا مثل له ولا نظير ، وهو خالقهم غير محتاج اليهم ، ورازقهم مبتدئا غير ممتنّ عليهم ، فان أوجبوا على أنفسهم طاعة من سواه ، كان هو تعالى أحرى بأن يتَّبع رضاه (٢)

٣ — وهم يقيسون الحب الروحى بالحب الحسى ، ويقولون : إذا استولى الحب أدهش عن إدراك الألم ، والتجربة أعدل شاهد على ذلك ، ويذكرون أن سمنون المحب قال : كان فى جوارنا رجل له جارية يحبّها غاية الحب ، فاعتلت ، فجلس الرجل يصنع لها حيسا ، فبينا هو يحرك ما فى القدر إذ قالت

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٢ والكشكول ص ١٢٩ وروضة المحبين ص ٢٤١
(٢) كتاب الزهرة ص ١٨

الجارية : آه ، فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده ، وجعل يحرك ما فى القدر بيده حتى تساقط لحم أصابعه وهو لا يحس بذلك

قال العاملى — وهو من أنصار الصوفية — فهذا وأمثاله قد يصدّق به فى حب المخلوق ، والتصديق به فى حب الخالق أولى ، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ، وجمال الحضرة الربوبية أوفى من كل جمال ، فانه الجمال الخالص البحت ، وكل جمال فى العالم فهو مختلط ناقص [١]

٤ — وشعراء الصبوات هم ألسنة أرباب العوارف الروحية ، وقد سمع أبو الفتح الأعور الصوفى هذا البيت

وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

فتواجد وصاح ودق صدره إلى أن أغمى عليه وسقط ، فلما انقضى المجلس حركوه فوجدوه ميتاً ، فغسلوه ودفنوه

وهذا البيت الذى قتل رجلا صوفيا هو من قطعة لرجل فاجر هو عبد الصمد بن المعذل الذى يقول :

يا بديع الدّل والغَنَج لك سلطان على المهجِ
إن بيتاً أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

قال ابن أبى حجلة : « والصوفية إذا قالوا : وجهك المأمول حجتنا ، نقلوه إلى ما لهم فى ذلك من المعانى [٢] »

---

(١) الكشكول ص ٢٦٣

(٢) ديوان الصبابة ج ٢ ص ٧٠ على هامش تزيين الأسواق طبع سنة ١٢٩١ هـ

ونقل الانطاكى قول البها زهير فى هجر الدلال :

عتب الحبيب فلم أجدْ سبباً لذاك العتب حادث
ما كنت أعلم أنه ممن تغيره الحوادث

ثم قال : وفى هذا الأصل كلام للعارفين ، وكلّ يأخذ ما يناسبه من الإشارات ، والبهاء زهير لا يكثر عليه مثل هذا ، فلقد سمعت مولانا عارف الوقت الشيخ شمس الدين البكرى أدام الله مدده يقول : إنه كان إماما عارفاً ، أو ذا لسان عارف (١) »

فالبها زهير على هذا عارف القلب ، أو عارف اللسان ، أى أنه يتكلم فيعبر عن المعانى الروحية بألفاظ حسّية ، وكلّ الشعراء ذلك الرجل إن شاء الصوفية

وقد يروق لهم أن يتعقبوا أخيلة الحسيين بالنقد والتجريح ، كالذى وقع لهم فى لوم من ينام فى غيبة حبيبه ليرى طيف الخيال ، إذ قالوا : إن تخصيص النوم بأنه يريهم أحبتهم ، نقصٌ بيّن فى مودّتهم ، فان الحال إذا تمكنت لم تفترق الروحان ، وإن افترق الشخصان ، فالمحب المشاهد لصاحبه على كل حال مستغن عن الاستعانة على إحضاره برؤية الخيال (٢)

وكيف تحتاج هذه اللمحة إلى تقييد ، ونحن نرى جمهور المؤلفين فى الحب والمحبين لا يخلون من نزعة صوفية ، فابن داود صاحب الزهرة ، وابن حزم صاحب طوق الحمامة ، وابن القيم صاحب الروضة ، والأنطاكى صاحب تزيين الأسواق ، كل أولئك فيهم نفحات صوفية ، والجمع بين النزعة الحسية

(١) تزيين الأسواق ج ٢ ص ٦٦ (٢) الزهرة ص ٢٥٩

والروحية يظهر لهم من الأمور التى لا تحتاج إلى جدل ولا تأويل

ولابن القيم فى هذا مذهب طريف : فهو يذكر الأدب فى الصبوة الحسية ثم يؤيده بالأدب فى العلاقة الروحية كأن يقول : ومن علامات الحب إغضاؤه عند نظر محبوبه اليه ، ورميه بطرفه نحو الأرض ، وذلك من مهابته له ، وحيائه منه ، وعظمته فى صدره ، ولهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم وهو يحدّ النظر اليهم ، بل يكون خافض الطرف إلى الأرض ، قال تعالى مخبراً عن كمال أدب رسوله فى ليلة الاسراء (ما زاغ البصر وما طغى) وهذا غاية الأدب ، فان البصر لم يزغ يمينا ولا شمالا ، ولا طمح متجاوزاً إلى ما هو رائيه ومقبل عليه كالمتشارف إلى ما وراء ذلك ، ولهذا اشتد نهى النبى صلى الله عليه وسلم للمصلى أن يزيغ بصره إلى السماء ... الخ [1] . وكأن يقول : ومن علامات المحبة كثرة ذكر المحبوب واللهج بذكره وحديثه ، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره بقلبه ولسانه ، ولذلك أمر الله سبحانه عباده بذكره على جميع الأحوال ، وأمرهم بذكره أخوف ما يكونون فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) والمحبون يفتخرون بذكر أحبابهم وقت المخاوف وملاقاة الأعداء ، كما قال

ذكرتك والخطىّ يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمرُ

وفى بعض الآثار الالهية : إن عبدى كلّ عبدى يذكرنى وهو ملاق قرنه . فعلامة المحبة الصادقة ذكر المحبوب فى الرغب والرهب ، كما قال بعض المحبين فى محبوبته :

يذكرنيك الخير والشر والذى أخاف وأرجو والذى أتوقع [2]

---

(١) روضة المحبين ص ٢٥٢

(٢) روضة المحبين ص ٢٨٣

٥ — قلت إن أكثر الصوفية عرفوا الحب الحسى فى مطلع الشباب ، فلأذكر أن هذا هو السر فى التباس الأمر على فريق منهم عند التفرقة بين الشهوات الحسية والمعنوية ، فظلوا يحنون الى الجمال المحسوس ، بحجة أنه يقربهم الى الجمال المعقول « وإنما تسترت هذه الطائفة لهواها وشهواتها ، وأوهمت أنها تنظر عِبرة واستدلالا ، حتى آل ببعضهم الأمر الى أن ظنوا أن نظرتهم عبادة لأنهم ينظرون الى الجمال الالٓهى ، ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى عن قول النصارى يظهر فى تلك الصورة الجميلة ، ويجعلون هذا طريقاً الى الله ، كما وقع فيه طوائف كثيرة ممن يدعى المعرفة والسلوك[1] » .

ومن رأى ابن الجوزى أن أكثر المتصوفة قد سدُّوا على أنفسهم باب النظر الى النساء الأجانب لبعدهم عن مصاحبتهن ، وامتناعهم عن مخالطتهن ، واشتغلوا بالتعبّد عن النكاح ، واتفقت صحبة الأحداث لهم على وجه الارادة ، وقصد الزهادة ، فأمالهم ابليس اليهم ، وهم فى ذلك على أقسام : القسم الأول أخبث القوم وهم ناس تشبهوا بالصوفية ويقولون بالحلول ، ويزعمون أن الحق تعالى اصطفى أجساماً حلّ فيها بمعنى الربوبية ، والقسم الثانى قوم يتشبهون بالصوفية فى ملبسهم ويقصدون الفسق ، والقسم الثالث قوم يستبيحون النظر الى المستحسن ، استئناساً بما روى عن الرسول : اطلبوا الخير عند حسان الوجوه ، وقوله : ثلاثة تجلو البصر : النظر الى الخضرة

---

(١) روضة المحبين ص ١٣٤ ومن هذا يظهر أن صدر الدين الشيرازى مسبوق الى القول بأن عشق الجمال قنطرة الى عشق واجب الوجود .

والنظر الى الماء ، والنظر الى الوجه الحسن . وهما حديثان لا أصل لهما عن رسول الله . والقسم الرابع قوم يقولون : نحن لا ننظر نظر شهوة وانما ننظر نظر اعتبار ، فلا يضرنا النظر ، وذلك فى رأى ابن الجوزى محال (١)

٦ — وقد شغل ابن الجوزى نفسه بتعقب الصوفية ، فنقل عنهم حكايات غريبة ، وعلّق عليها تعليقات تدلّ على بصر بدقائق علم النفس والأخلاق ، ولا بد لنا من عرض نماذج من ملاحظاته لأنها ثمرة من ثمرات التصوف ، وكل ما كتب للتصوف أو عليه فهو مظهر من آثاره فى الحيـاة العقلية والذوقية .

نقل بسنده أن عبد الله بن الزبير الحنفى قال : كنت جالساً مع أبى النصر الغنوى وكان من المبرزين العابدين فنظر إلى غلام جميل فلم تزل عيناه واقعتين عليه حتى دنا منه فقال : سألتك بالله السميع ، وعزه الرفيع ، وسلطانه المنيع ، إلا وقفت على أروى من النظر اليك . فوقف قليلا ثم ذهب ليمضى فقال له : سألتك بالله الحكيم المجيد ، الكريم المبدىء المعيد ، إلا ماوقفت ! فوقف ساعة ، فأقبل يصعّـد النظر اليه ويصوّبه ، ثم ذهب ليمضى . فقـال : سألتك بالواحد الأحد ، الجبار الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، إلا وقفت ! فوقف ساعة فنظر اليه طويلا ، ثم ذهب ليمضى ، فقال : سألتك باللطيف الخبير ، السميع البصير ، وبمن ليس له نظير ، إلا وقفت ! فوقف فأقبل ينظر اليه ثم أطرق رأسه إلى الأرض ، ومضى الغلام ، فرفع رأسه بعد طويل وهو يبكى فقال : قد ذكرنى هذا بنظرى وجها جل عن التشبيه ، وتقدس عن

---

(١) تلبيس ابليس ص ٢٦٤ — ٢٦٦

التمثيل ، و تعاظم عن التحديد ، والله لأجهدن نفسى فى بلوغ رضاه بمجاهدتى جميع أعدائه ، وموالاتى لأوليائه ، حتى أصير إلى ما أردته من نظرى إلى وجهه الكريم ، وبهائه العظيم ، ولوددت أنه قد أرانى وجهه وحبسنى فى النار ما دامت السموات والأرض . ثم غشى عليه

ونقل بسنده أن أحدهم قال : كنت مع محارب بن حسان الصوفى فى مسجد الخيف ونحن محرمون ، فجلس الينا غلام من أهل المغرب فرأيت محارباً ينظر اليه نظراً أنكرته ، فقلت له بعد أن قام : إنك محرم فى شهر حرام فى بلد حرام فى مشعر حرام ، وقد رأيتك تنظر إلى هذا الغلام نظراً لا ينظره إلا المفتونون ! فقال لى : تقول هذا ، يا شهوانىّ القلب والطرف ! ألم تعلم أنه قد منعنى من الوقوع فى شرك إبليس ثلاث ؟ فقلت : وماهى ؟ فقال : سرّ الايمان ، وعفة الاسلام . وأعظمها الحياء من الله تعالى أن يطلع علىّ وأنا جاثم على منكر نهانى عنه ، ثم صعق حتى اجتمع الناس علينا .

وهنا يقول ابن الجوزى فى التعليق على هاتين الحادثتين :

« انظروا إلى جهل الأحمق الأول ورمزه إلى التشبيه ، وإن تلفظ بالتنزيه ، وإلى حماقة هذا الثانى الذى ظنّ أن المعصية هى الفاحشة فقط ، وما علم أن نفس النظر بشهوة يحرم ، ومحا عن نفسه أثر الطبع بدعواه التى تكذبها شهوة النظر (١) »

وروى بسنده أن بعضهم قال : قلت لأبى الكميت الأندلسى وكان جوّالا

(١) تلبيس ابليس ص ٢٦٦ ، ٢٦٧

فى أرض الله : حدثنى بأعجب ما رأيت من الصوفية فقال : صحبت رجلا منهم يقال له مهرجان ، وكان مجوسياً فأسلم وتصوف ، فرأيت معه غلاماً جميلا لا يفارقه ، وكان إذا جاء الليل قام فصلى ثم ينام إلى جانبه ، ثم يقوم فزعا فيصلى ما قدر له ، ثم يعود فينام إلى جانبه ، حتى فعل ذلك مراراً ، فاذا أسفر الصبح أو كاد يسفر أوتر ، ثم رفع يديه وقال : اللهم إنك تعلم أن الليل مضى علىَّ سليما لم أقترف فيه فاحشة ، ولا كتبت علىَّ فيه الحفظة معصية ، وأن الذى أضمره بقلبى لو حملته الجبـــال لتصدعت ، أو كان بالأرض لتدكدكت ، ثم يقول : يا ليل اشهد بما كان منى فيك ، فقد منعنى خوف الله عن طلب الحرام ، والتعرض للآثام ، ثم يقول : سيدى ! أنت تجمع بيننا على تقى ، فلا تفرق بيننا فى يوم تجمع فيه الأحباب ! فأقمت معه مدة طويلة أراه يفعل ذلك فى كل ليلة ، وأسمع هذا القول منه . فلما هممت بالانصراف من عنده قلت له : سمعتك تقول إذا انقضى الليل كذا وكذا فقال : وسمعتنى؟ قلت : نعم ! قال : فوالله يا أخى إنى لأدارى من قلبى ما لو داراه سلطان من رعيته لكان الله حقيقاً بالمغفرة له ، فقلت : وما الذى يدعوك إلى صحبة من تخاف على نفسك العنت من قبله ؟

ونقل بسنده أن أبا حمزة الصوفى قال :

رأيت ببيت المقدس فتى من الصوفية يصحب غلاما مدة طويلة ، فمات الفتى وعال حزن الغلام عليه حتى صار جلدا وعظما من الضنى والكمد ، فقلت له يوما : لقد طال حزنك على صديقك ، حتى أظن أنك لا تسلو بعده أبداً فقال : كيف أسلو عن رجل أجل الله عز وجل أن يصيبه معى طرفة عين

أبداً، وصانى عن نجاسة الفسوق فى خلال صحبتى له وخلواتى معه فى الليل والنهار .

ويقول ابن الجوزى فى التعقيب على هاتين القصتين :

هولاء قوم رآهم ابليس لا ينجذبون معه إلى الفواحش فحسن لهم بداياتها فتعجلوا لذة النظر والصحبة والمحادثة وعزموا على مقاومة النفس فى صدها عن الفاحشة ، فان صدقوا وتم لهم ذلك فقد اشتغل القلب الذى ينبغى أن يكون شغله بالله تعالى لا بغيره ، وصرف الزمان الذى ينبغى أن يخلو فيه القلب بما ينفع فى الآخرة بمجاهدة الطبع فى كفه عن الفاحشة ، وهذا كله جهل وخروج عن آداب الشرع ، فان الله عز وجل أمر بغض البصر لأنه طريق إلى القلب ، ليسلم القلب لله تعالى من شائب يخاف منه ، ومامثل هؤلاء إلا كمثل من أقبل إلى سباع فى غيضة وهى متشاغلة عنه لا تراه ، فأثارها وحاربها وقاومها ، فيابعد سلامته من جراحه إن لم يهلك (١)

واستطرد ابن الجوزى فذكر أنه كان ببلاد فارس صوفى كبير فابتلى بحدث فلم يملك نفسه أن دعته إلى فاحشة فراقب الله عز وجل ثم ندم على هذه الهمة وكان منزله على مكان عال ووراء منزله بحر من الماء ، فلما أخذته الندامة صعد السطح ورمى بنفسه إلى الماء وتلا قوله تعالى (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم) فغرق فى البحر .

قال ابن الجوزى : انظر إلى إبليس كيف درج هذا المسكين من رؤية هذا الأمرد ، وإدمان النظر إليه ، إلى أن مكّن المحبة من قلبه ، وإلى أن

---

(١) تلبيس ابليس ص ٢٧٠

حرّضه على الفاحشة ، فلما رأى استعصامه حسَّن له بالجهل قتل نفسه فقتل نفسه ، ولعله همّ بالفاحشة ولم يعزم ، والهمة معفوّ عنها لقوله عليه السلام : عفى لأمتى عما حدثت به نفوسها ، ثم إنه ندم على همته والندم توبة . فأراه إبليس أن من تمام الندم قتل نفسه كما فعل بنو اسرائيل ، فأولئك أمروا بقوله تعالى (فاقتلوا أنفسكم) ونحن نهينا عنه بقوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) فلقد أتى بكبيرة عظيمة ، وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من تردَّى من جبل فقتل نفسه فهو يتردَّى فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا (١)

ونقل أن يوسف بن الحسين كان يقول : كل ما رأيتمونى أفعله فافعلوه إلا صحبة الأحداث فانها فتنة الفتن ، ولقد عاهدت ربى أكثر من مائة مرة أن لا أصحب حدثا ففسخها علىّ حسن الخدود ، وقوام القدود ، وغنج العيون ، وما سألنى الله معهم عن معصية ، وأنشد قول مسلم بن الوليد فى معنى ذلك :

إن ورد الخدود والحدق النجـ ... ـل وما فى الثغور من أقحوان
واعوجاج الأصداغ فى ظاهر الخد ... وما فى الصدور من رمان
تركتنى بين الغوانى صريعا ... فلهذا أدعى صريع الغوانى

وفى التعقيب على هذا التصريح الفاتك يقول ابن الجوزى :

«هذا الرجل قد فضح نفسه فى شىء ستره الله عليه ، وأخبر أنه كلما رأى فتنة نقض التوبة ، فأين عزائم التصوف فى حمل النفس على المشاقّ ؟ ثم ظن

(١) تلبيس ابليس ص ٢٧٢

بجهله أن المعصية هى الفاحشة فقط ، ولو كان له علم لعلم أن صحبتهم والنظر اليهم معصية ، فانظر إلى الجهل كيف يصنع بأربابه [١] »

وقد أطلنا الاقتباس من ابن الجوزى لأن الصفحات التى كتبها فى هذا الموضوع من خير ما قرأنا فى الدراسات النفسية والخلقية ، ولأنها تصوّر ماكان يعرض للصوفية من الحيرة المطبقة فى تفهم الفروق بين مسالك الرشد والغىّ ، ومعالم الهدى والضلال .

٧ — وقد فصّل ابن القيم أحوال المحبين ، وعرض لمن عرفوا بالتصون والعفاف ، فقال عن محمدبن داود الأصبهانى ، وكان من أهل المروءة والدين ، ومن أصدق الناس فى العشق العفيف :

« وأما قصة محمد بن داود الأصبهانى فغايتها ان تكون من سعيه المعفوّ المغفور ، لا من عمله المشكور ، وسلط الناس بذلك على عرضه ، والله يغفر لنا وله ، فانه تعرض بالنظر إلى السقم الذى صار به صاحب فراش ، وهذا لو كان ممن يباح له لكان نقصاً وعيباً ، فكيف من صبي أجنبي ؟ وأرضاه الشيطان بحبه والنظر اليه عن مواصلته ، إذ لم يطمع فى ذلك منه ، فنال منه ما عرف أن كيده لا يتجاوزه ، وجعله قدوة لمن يأثم به بعده كأبى محمد بن حزم الظاهرى وغيره ، وكيد الشيطان أدق من هذا » [٢]

وهذا نظر قريب من نظر ابن الجوزى ، ويمتاز مع ذلك بالتلطف والرفق فهو يعترف بعفاف ابن داود ولكنه لا يجعله قدوة لمن سواه ، وحسب ابن

---

(١) التلبيس ص ٢٧٣

(٢) روضة المحبين ص ١٤٣

داود من السلامة أن لا يحشر فى زمرة الآثمين .

٨ — ونستطيع الجزم بأن صحبة الأحداث كانت من الفتن الظاهرة فى حياة الصوفية ، وكانت لهم فى هذا الباب كنايات ، من ذلك قولهم للغلام الصبيح (شاهد) ومعناهم فيه أنه لحسن صورته شهيد بقدرة الله عز اسمه على ما يشاء ، ويحكى أن أصحاب أبى على الثقفى تحاموا لفظة (الشاهد) بين يديه هيبة له ، فتواصو فيما بينهم أن يقولوا للغلام الصبيح (حجة) فاتفق أنهم صحبوه فى بعض الطريق فتراءى لهم من بعيد غلام فقال أحدهم (حجة) وهو يظن أن أبا على لا يفطن لمغزاه ، فلما قرب الغلام منهم كان غير مليح فالتفت أبو على اليهم وقال : داحضة [1]

ويؤيد هذا أن أكثر من ألفوا فى التصوف عرضوا لهـذه المسألة وأطالوا فى الزجر والترهيب ، وقد عقد لها القشيرى فصلا قال فيه:

« ومن أصعب الآفات فى هذه الطريقة صحبة الأحداث ، ومن ابتلاه الله بشىء من ذلك فباجماع الشيوخ ذلك عبد أهانه الله عز وجل وخذله ، بل عن نفسه شغله ، ولو بألف كرامة أهـّله ، وهب أنه بلغ رتبة الشهداء . . . أليس قد شغـل ذلك القلب بمخلوق ؟ وأصعب من ذلك تهوين ذلك على القلب ، حتى يعدّ ذلك يسيرا ، وقد قال الله تعالى : وتحسبونه هيّنا وهو عند الله عظيم . وهذا الواسطى رحمه الله يقول : اذا اراد الله هوان عبد ألقاه الى هؤلاء الأنتان والجيف . سمعت أبا عبد الله الصوفى يقول سمعت محمد بن أحمد النجار يقول سمعت أبا عبد الله الحصرى يقول سمعت فتحا الموصلى

---

(٢) كنايات الثعالبي ص ٢٠ وانظر يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٠٩

يقول : صحبت ثلاثين شيخا كانوا يعدّون من الأبدال ، كلهم أوصونى عند فراقى إياهم وقالوا : اتق معاشرة الأحداث ومخالطتهم . . . فليحذر المريد من صحبة الأحداث ومخالطتهم ، فان اليسير منه فتح باب الخذلان ، وبدء حال الهجران . ونعوذ بالله من قضاء السوء[1] » .

ونظر محمد بن أسباط الصوفى الى أبى المثنى الشيبانى وقد نظر فى وجه غلام مليح فقال : إدمان النظر ، يكشف الخبر ، ويفضح البشر ، ويطول به المكث فى سقر[2] .

وقال المعلى الصوفى : شكوت إلى بعض الزهاد فساداً أجده فى قلبى ، فقال : هل نظرت الى شىء فتاقت اليـــه نفسك ؟ قلت : نعم ! قال : احفظ عينيك ، فانك إن أطلقتهما أوقعتاك فى مكروه ، وإن ملكتهما ملكت سائر جوارحك .[2]

وقال مسلم الخواص لمحمد بن على الصوفى : أوصنى ، فقال : أوصيك بتقوى الله فى أمرك كله ، وإيثار ما يحب على محبتك ، وإياك والنظر الى كل ما دعاك اليه طرفك ، وشوّقك اليه قلبك ، فانهما إن ملكاك لم تملك شيئا من جوارحك ، حتى تبلغ بهما ما يطالبانك به ، وإن ملكتهما كنت الداعى لهما الى ما أردت ، فلا يعصيان لك أمراً ، ولا يردّان لك قولا [2]

وقال الأسود بن طالوت : نظر الىّ أبو عمر الصوفى وقد أطلت النظر الى غلام جميل ، فقال : ويحك ، إن طرفك لعظيم ما اجتنى من البلاء ، قد عرضك للمكروه وطول العناء . لقد نظرت الى حتف قاتل للقلوب ، وبلاء

(١) القشيرية ص ١٨٤ (٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٢٧

مظهر للعيوب ، وعار فاضح للنفوس ، ومكروه مذهل للعقول ، أكلّ هذا لاغترار بالله جرأك عليه حتى أمنت مكره ، ولم تخف كيده ؟ اعلم أنك لم تكن فى وقت من أوقاتك ، ولا حالة من حالاتك ، أقرب الى عقوبة الله منك فى حالتك هذه ، ولو أخذك لم يخلصك الثقلان ، ولم يقبل فيك شفاعة إنس ولا جان (١)

ورأى بعض الزهاد صوفيا يضحك الى غلام جميل فقال له : يا خرب القلب ويا خرب الطرف ، أما تستحى من كرام كاتبين ، وملائكة حافظين ، يحفظون الأفعال ، ويكتبون الأعمال ، وينظرون اليك ، ويشهدون عليك ، بالبلاء الظاهر ، والغل الدخيل المخامر ، الذى أقمت نفسك فيه مقام من لا يبالى من وقف عليه ، ونظر من الخلق اليه (١)

٩ — ولكن ما دلالة هذه الشواغل ؟ هى بلا جدال باب من الأخلاق والمخلصون من الصوفية عرفوا خطر هذه المزالق الوجدانية ، وتنبهوا الى خطرها فى عالم الأخلاق .

ولابن الجوزى أن يقول فيهم ما شاء ، فلن ينكر أحد أن هؤلاء القوم وقفوا موقف التحرز والخوف من فتن جائحة كانت تقتل الكرامات والعزائم والنفوس فى كثير من الأندية الأدبية والسياسية . وكانوا وحدهم أصحاب الضمائر فى عهود كان فيها استهداء الغلمان شريعة من شرائع الاجتماع .

وهل من القليل أن يتواصى الصوفية بالحذر من صحبة الأحداث فى أزمنة كان يشترى فيها الغلمـــان المتخيرون ليمسوا زينة القصور فى قرطبة

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٢٨

والقاهرة ودمشق وبغداد ؟

إن من سوء الرعاية أن نغفل أثر هذا التحرز فى عالم الأخلاق ، لقد كان الصوفية يؤاخذون على النظرة فى أيام كانت تكتب فيها أخبار الفسق والمجون بعبارات مكشوفة ينكرها الأدب ويأباها الحياء .

ومن الذى يضمن أن يكون ابن الجوزى صادقا فى كل ما كتب عن مغامز الصوفية ؟

أولئك قوم كانت لهم فى شبابهم صبوات ، فلما منّ الله عليهم بالتوبة والهداية ظلّ خصومهم يتذكرون ماضيهم ، ويضيفون إليه ما شاء الإفك والبهتان ، ليغضّوا من أقدارهم وليصرفوا عنهم الناس

ونحن مع ذلك لا ننكر أن من الصوفية من زلت أقدامهم فى صحبة الأحداث ، فالعصمة لله وحده ، وادعاء العصمة هو فى ذاته وقاحة خلقية ، ولا يدعى التصون المطلق إلا خادع أو مخدوع ، ولكن من المكابرة أن نجحد ما أثر عن الصوفية من الفضل فى هذا الباب ، وهل فى الأدب كله كلمة أبلغ وأفصح وأنصع وأصدق من قول الواسطى طيّب الله ثراه :

« إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف ! »

أترون كيف تضطرم نار الغيرة على الكرامة فى أحشاء هذه الحروف ؟ وهل رأيتم صدقاً أكرم وجهاً من صدق هذا المعنى ؟ هل رأيتم احتقاراً للشهوات الحسية أعنف من هذا الاحتقار ؟ أرأيتم كيف تكون بلاغة من من خبر الدنيا ، وعرف مكارهها ، وتبين عناصر الشر فيها ، واهتدى إلى معالم النجاة والهلاك ؟

الحق أن هذه المسألة فى غاية الدقة : فالصوفية على خطر، وناقدوهم على خطر

الصوفية على خطر : لأن الاعتبار بالجمال قد يكون وسوسة خفية من مكر الشيطان

وناقدوهم على خطر: لأن الاحساس بروعة الجمال قد يكون باباً إلى صقل النفس والوجدان

وقد يكون الماضى كله ضلالة من الضلالات يوم تنكشف الحقائق ، ويتبين أن الوجود كله معقود الأواصر بقوة كهربائية لا نملك منها الفرار ، قد يظهر يومًا أننا لا نملك الرغبة ، ولا نملك الزهد ، وإنما نحن مسخرون فى وجود عجيب يربطنا بقوة قاهرة حول تيارات من الحسن والقبح . إنه ليوم عصيب ، ذلك اليوم الذى نعرف فيه أننا لا نملك غير الثرثرة ، وأن قانون الوجود يسخرنا كما يشاء ، وأن تاريخ المذاهب الأخلاقية لم يكن إلا مظهراً من مظاهر ذلك القانون

أترون الرجل يخرج على مألوف العرف وهو طائع ؟ أترونه يثور على التقاليد الدينية والاجتماعية وهو مطلق الاختيار والحرية ؟ ولماذا لا يكون هذا النزاع بين الغواية والهداية نزاعا فرضته تلك القوة الكهربائية التى لم نعرف من أسرارها إلا شيئا يشبه السراب حين يتمثل فى الأحلام ؟

ثم ما رأيكم فى هذه الفلسفة ؟ أترونها نوعا من الشطح ؟ ليكن ذلك ، فنحن من تلاميذ الصوفية ، وهم أقدر الناس على الشطح والهيام فى أودية الخيال !

ولكن حذار أن تنكروا أن الفتن التى اصطدم بها الصوفية كانت مما لا يمكن تحاشيه فى هذا العالم الغريب . إن الدنيا خلقت كما شاء البارىء أن تخلق ، ففيها الخير والشر . والرشد والغى ، والهدى والضلال ، وفيها ما شاء البارىء من السم والترياق ، فانظروا كيف شئتم ، ولكن تأدبوا ، و تذكروا أن النار إن سلّطت عليكم فستحولكم إلى رماد مهين ، مهما اعتصمتم بالفروض والظنون

قولوا ، إن شئتم ، إن هناك قوانين أخلاقية عاش بفضلها العالم إلى اليوم ثم تذكروا أن هناك شيئا اسمه الوقاحة ، وشيئا اسمه الحياء ، فان وصلتم إلى هذه الغاية فاعترفوا ، إن كنتم منصفين ، أن الصوفية تفردوا بين الناس بالحرص على فضيلة الحياء

إن الوسوسة الخلقية هى فى ذاتها أدب عظيم ، والصوفية هم الذين ملأوا الدنيا بالتنفير من فتنة الجمال ، والجمال فى ذاته نفحة إلهية ، ولكن الفسق يحوله إلى عصارة قذرة لا يسكن إليها رجل فى شمائله ذوق ، وفى روحه صفاء

وكيف كان الفسق قذراً مع أنه من النتائج الطبيعية لنظام الأرواح والأبدان ؟

عند هذه المشكلة نتبين رغبة الانسانية فى الكمال المطلق ، فالفسق لا يقع إلا بسبب نزعتين : الاستعلاء الآثم من جانب ، والاستخذاء الساقط من جانب ، ولا كذلك العفاف فانه لا يكون إلا بفضل عاطفتين شريفتين: الابقاء الكريم من جانب ، والإباء النبيل من جانب

فان قلتم : وكيف اعترفت بهذه المصطلحات ؟ فانى أجيب بأن بقاءها على هذه الأزمنة الطوال يدل على أن تلك القوة الكهربائية لها فى بقائها سرٌّ

خاص . وحين يصح أن هناك فروقا جوهرية بين التحليق والاسفاف فى عالم الأخلاق فسنعرف أن الصوفية كانوا أشرف الناس

على أن التحرز فيه معنى المقاومة ، والمقاومة من أصول التغلب فى هذا الوجود ، ولو قد نظر ابن الجوزى هذه النظرة لعرف فضل هذا المعنى فى قصة ذلك الصوفى الذى ابتلى بحب الجمال المحسوس ثم قاوم وغالب حتى فارق الحياة وهو نقىُّ الثياب

وإنا لنرجو القارىء أن يرحمنا من تهمة التعصب للصوفية ، فنحن — يشهد الله — لا نحب إلا الوقوف فى صف المظلومين ، والصوفية قاسوا من الظلم ألوانا كثيرة ، منها اتهامهم بالفسق والمجون ، وممَّن ؟ من ناس يتركون قصور الوزراء والأمراء والملوك تعجّ بالدنس والرفث والقذارة والرجس ، ثم يوجهون جهودهم الى حرب طائفة من الفقراء الذين لا يجدون الكفاف إلا بشق الأنفس فى هذا العالم السخيف

يرحمكم الله ، أيها المؤلفون فى الاخلاق ، فأكثركم من أهل الجبن والتلفيق وأى مظهر للجبن أقبح وأبشع من أن تصنف الكتب الطوال العراض فى مثالب الصوفية ، على حين يترك الملوك الظالمون فى العصور الماضية بلا رقيب ولا حسيب ؟

أين ما وضع ابن الجوزى وأمثاله فى نقد الاستبداد . وكان يعيش فى عصر لا تحترم فيه ملكية ولا تحفظ حقوق ؟ أين ما كتب هؤلاء المتفيهقون فى الفساد الخلقى والاجتماعى الذى كان يندلع لهيبه من قصور الامراء والوزراء ؟ أين ما دونوا من أصول الاخلاق القومية والدولية فى أزمان طغى فيها تيار

المطامع الاجنبية ، وتعرضت ديار العرب والاسلام للخراب والإقواء ؟

إن الفقير كان ولا يزال مكشوف العورات ، والغنى منذ الزمن القديم يستر العيوب . ألم نجد ناسا ينكرون أن يكون الرشيد عرف مجالس الشراب !

ولكن ما هذا ؟ لعلنا نسرف فى اتهام الانسانية بايثار الملق والمداهنة والرياء ؟

إن الصوفية كانوا دعاة الاخلاق ، فمن واجب النـاس أن ينبهوهم إلى ما ينزلقون فيه ، ومن حق الناس أن يحسدوهم على دعوى التفرد بالشرف والاستقامة والتدين ، فالصوفية هم الذين خلقوا أسباب الحسد ، وهم الذين دعوا الناس إلى محاسبتهم على ما يقولون وما يعملون

أما الملوك والأمراء والوزراء فلم يكن فيهم من يدَّعى أنه نموذج فى الأخلاق ، ولهذا سكت عنهم أكثر المؤلفين فى الأخلاق ، وأريد المؤلفين المخلصين ، أما المنافقون فلم يكن لهم بد من مداراة أصحاب الملك ، وأرباب الجاه والثراء

لكل إنسان أن يعيش كيف يشاء ، وعلى الله حساب الناس فيما يسرون وما يعلنون ، ولكن ليحذر من ينصب نفسه داعية للخلق الجميل ، فان الناس سيحاسبونه على كل صغيرة وكبيرة ، وسيقولون فيه كل شيء ، بالحق وبالباطل ، فلينظر أين يضع قدمه ، وأين يوجه خطراته النفسية والروحية ، وكيف تكون صلته بالله وصلته بخلق الله . إن الدعوة إلى الخلق الجميل كالدعوة إلى الدين الحق ، وقد رأينا كيف عانى الانبياء ، من ظلم الجاهلين والسفهاء . فمن تسامت

نفسه إلى الدعوة إلى البر والشرف فليوطن نفسه على احتمال الضيم والاذى والعقوق

١٠ — ولنقيد أن هذه الازمات لا تقع إلا حين تكون الريب والشبهات ، فاذا صفت النفس ، وأمن المريد من عنف الشهوة ، فان الصوفية يطلقون لأخيلتهم العنان فى تصوير الجمال ، وقد تحفظ ابن القيم ماشاء أن يتحفظ ولكنه عقد فصلا مهما فى كتاب (روضة المحبين) وهو الفصل التاسع عشر الذى تكلم فيه عن « فضيلة الجمال ، وميل النفوس اليه على كل حال »

وقد قسم الجمال إلى قسمين ، ظاهر وباطن ، وبين أن الجمال الباطن هو المحبوب لذاته ، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة ، وهذا الجمال الباطن هو محل نظر الله من عبده وموضع محبته ، وهو يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال . وأما الجمال الظاهر فزينة خص الله بها بعض الصور عن بعض ، وهى من زيادة الخلق التى قال الله تعالى فيها (يزيد فى الخلق ما يشاء)

قال ابن القيم : وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضاً على عبده ، فان شكره بتقواه وصيانته ازداد جمالا على جماله ، وإن استعمل جماله فى معاصيه سبحانه قلبه له شيناً ظاهراً فى الدنيا قبل الآخرة ، فتعود تلك المحاسن وحشة وقبحاً وشيناً ، وينفر عنه من رآه ، فكل من لم يتق الله عز وجل فى حسنه وجماله انقلب قبحاً وشيناً يشينه بين الناس ، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره ، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره (١)

---

(١) روضة المحبين ص ٢٣٨

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر كما قال جرير بن عبدالله — وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسميه يوسف هذه الأمة — قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت امرؤ قد حسَّن الله خلقك فأحسن خلقك (١)

وقال بعض الحكماء : ينبغى للعبد أن ينظر كل يوم فى المرآة ، فان رأى صورته حسنة لم يشنها بقبيح فعله ، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة وقبح الفعل (١)

١١ — ومن الواجب أن نتأمل ما فى هذا الكلام من التربية الخلقية ، فابن القيم يجعل الحسن الظاهر من طيبات الأرزاق ، ولكنه يشترط لذلك أن يحسن الخلق ويكمل الدين ، وهو يلح فى هذا المعنى بصيغ مختلفة من التأكيد ، ويستشهد بكلام الرسول وكلام الحكماء

وهذا التأكيد يدل على قوة الحاسة الخلقية ، فالحسن الفاجر هو فى الواقع حسن وضيع ، وفى الخلق السليم جمال أبرع من الجمال المحسوس ، والمعنويات فى جوهرها أشرف من المحسوسات ، والعقل الصحيح يتمثل المحسوس من صور التقريب للمعقول ، والجمال الحسى لايمكن أن يكون غاية إلا عند أهل الضعة والاسفاف من طلاب الدون فى عالم الشهوات

والجمع بين المعقول والمحسوس هو غاية الغايات ، ولا يتفق ذلك إلا حين يشاء الله أن يسبغ نعمه على بعض العباد ، كالذى وقع فى حياة محمد بن عبد الله ويوسف بن يعقوب

---

(١) روضة المحبين ص ٢٣٨

١٢ — ويمضى ابن القيم فيقول : ولما كان الجمال من حيث هو محبوبا للنفوس ، معظما فى القلوب ، لم يبعث الله نبياً إلا جميل الصورة ، حسن الوجه ، كريم الحسب ، حسن الصوت ، كذا قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم أجمل خلق الله وأحسنهم وجها ، كماقال البراء بن عازب رضى الله عنه وقد سئل : أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف ؟ قال : لا ، بل مثل القمر . وفى صفته صلى الله عليه وسلم : كأن الشمس تجرى فى وجهه . يقول واصفه : لم أر قبله ولا بعده مثله . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب أن يكون الرسول الذى يرسل اليه حسن الوجه ، حسن الاسم ، وكان يقول : اذا أبردتم الىّ بريداً فليكن حسن الوجه ، حسن الاسم . وقد روى الخرائطى من حديث ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه : من آتاه الله وجها حسنا ، واسما حسنا ، وخلقا حسنا ، وجعله فى موضع غير شائن له ، فهو من صفوة الله من خلقه . وقال وهب قال داود : يا رب ، أىّ عبادك أحبّ اليك ؟ قال : مؤمن حسن الصورة . قال : فأى عبادك أبغض اليك ؟ قال : كافر قبيح الصورة . ويذكر عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينتظره نفر من أصحابه على الباب فجعل ينظر فى الماء ويسوّى شعره ولحيته ، ثم خرج اليهم ، فقلت : يا رسول الله ، وأنت تفعل هذا ؟ قال : نعم ! اذا خرج الرجل الى إخوانه فليهيىء من نفسه ، فان الله جميل يحب الجمال ... ودخلت امرأة جميلة على الحسن البصرى فقالت : يا أبا سعيد ،

أيحلّ للرجال أن يتزوجوا على النساء ؟ قال : نعم . فقالت : وعلى مثلى ؟ ثم دلت ، فقال الحسن : ما على رجل كانت هذه فى زاوية بيته ما فاته من الدنيا (١)

وكذلك يدور ابن القيم حول الجمال يمدحه ويطريه ويصف به أشرف الناس ، وما كان لنا أن نهتم بهذا لولا دلالته على نزعة أصيلة من نزعات الصوفية : فالنبي جميل ، والله جميل ، وصفوة الله من خلقه هم المؤمنون من أهل الجمال .

وأظرف موقف فى هذه الأحاديث هو موقف الحسن البصرى وقد رأى تلك الحسناء ، والحسن البصرى هو إمام الصوفيـة ، وهو مع ذلك يعرف كيف يقول :

« ما على رجل كانت هذه فى زاوية بيته ما فاته من الدنيا »

وهى عبارة بصرية تمثل اللهفة والشوق الى أفنان الجمال

١٣ — أولئك هم الصوفية ، وتلك نظراتهم الى صباحة الوجوه ، أفلا يكون لذلك أثر فى فهمهم للأدب وتصورهم للأخلاق ؟

وكيف يمكن أن لا تؤثر هذه النزعات فى اتجاهاتهم الخلقية والأدبية ؟ إن الخلق يصدر عن النفس ، والأدب ينبع من القلب ، وأمثال هذه النفوس والقلوب لا تفيض الا بالرحيق السلسبيل فى الأدب والأخلاق . ولا يمكن أن يمترى منصف فى قوة الخاق عند أولئك القوم ، وإن جهد ناس فى رميهم بالحصيات ، أما الأدب فحسبهم من التفوق فيه أن تفردوا بالاخلاص ،

(١) تخيرنا هذه الشواهد من الصحفات ٢٣٨ — ٢٤٢ من روضة المحبين

والاخلاص هو أساس العظمة فى جميع الميادين .

١٤ — واهتمام الصوفية بالجمال ساقهم الى فن من الأدب الرفيع : هو الكلام عن فضل العفاف ، وكلامهم فيهم مزاج من الأدب والأخلاق ، ومن الصحف الباقية ما كتبه ابن القيم عن عفاف يوسف ، إذ بيّن « أن الداعى الذى اجتمع فى حقه لم يجتمع فى حق غيره ، فانه صلى الله عليه وسلم كان شابا ، والشباب مركب الشهوة ، وكان عَزَبا ليس عنده ما يعوّضه ، وكان غريبا عن أهله ووطنه ، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحيي منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم ، فاذا تغرب زال هذا المانع ، وكان فى صورة المملوك والعبد لا يأنف مما يأنف منـــه الحر ، وكانت المرأة ذات منصب وجمال ، والداعى مع ذلك أقوى من داعى من ليس كذلك ، وكانت هى المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الاجابة ، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التى يزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره ، وكانت فى محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الامكان ومكانه الذى لا تناله العيون ، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بغتة ، وأتته بالرغبة والرهبة ، ومع هذا كله عفّ لله ولم يطعها ، وقدّم حق الله وحق سيده على ذلك كله ، وهذا أمر لو ابتلى به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله[1] »

إن حوادث الصوفية فى الحب العفيف كانت تروى ، وهى آيات من الأدب الممتع ، وأى جمال فات هذه القصة ، وقد رواها المبرد بسنده عن

---

(١) روضة المحبين ص ٣٤٢

رجاء بن عمرو النخعى قال :

كان بالكوفة فتى جميل الوجه ، شديد التعبد والاجتهاد ، فنزل فى جوار قوم من النخع فنظر الى جارية جميلة فهويها وهام بهـا عقله ، ونزل بالجارية ما نزل به ، فأرسل يخطبها من أبيها ، فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عم لها ، فلما اشتد عليهما ما يقاسيانه من ألم الهوى أرسلت اليه الجارية : قد بلغنى شدة محبتك لى ، وقد اشتد بلائى بك ، فان شئت زرتك ، وإن شئت سهلت لك أن تأتينى الى منزلى ، فقال للرسول : ولا واحدة من هاتين الخلتين ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، أخاف ناراً لا يخبو سعيرها ، ولا يخمد لهيبها ، فلما أبلغها الرسول قوله قالت : وأراه مع هذا يخاف الله ؟ والله ما أحد أحق بهذا من أحد ، وإن العباد فيه لمشتركون . ثم انخلعت من الدنيا وألقت علائقها خلف ظهرها وجعلت تتعبد ، وهى مع ذلك تذوب وتنحل حبا للفتى وشوقا اليه حتى ماتت من ذلك ، فكان الفتى يأتى قبرها فيبكى عنده ، ويدعو لها ، فغلبته عينه ذات يوم على قبرها فرآها فى منامه فى أحسن منظر ، فقال : كيف أنت ، وما لقيت بعدى ؟ فقالت :

نعم المحبة يا سؤلى محبتكم حبّ يقود الى خير وإحسان

فقال : على ذلك ، إلام صرتِ ؟ فقالت :

الى نعيم وعيش لازوال له فى جنة الخلد ملك ليس بالفانى

فقال لها : اذكرينى هنـاك ، فانى لست أنساك . فقالت : ولا أنا والله أنساك ، ولقـد سألت مولاى ومولاك أن يجمع بيننا فأعنّى على ذلك بالاجتهاد . فقال لهـا : متى أراك ؟ فقالت : ستأتينا عن قريب فترانا ، فلم

يعش الفتى بعد الرؤيا الا سبع ليال حتى مات رحمة الله(١)

فهذه القصة من وضع الصوفية، وهى من القصص التعليمية التى ألفت لرياضة النفس على إيثار العفاف، وهى — على جمال مغزاها من الوجهة الخلقية — متخيرة الألفاظ، بارعة الخيال

وأجمل من هذه القصة وأمتع ما حدّثوا أن امرأة جميلة كانت بمكة، وكان لها زوج، فنظرت يوماً الى وجهها فى المرآة فقالت لزوجها: أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يفتتن؟ قال: نعم. قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير. قالت: فائذن لى فيه فلأفتننّه! قال: قد أذنت لك. فأتته كالمستفتية، فخلا معها فى ناحية من المسجد الحرام، فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة الله، استترى! فقالت: إنى قد فتنت بك! فقال: إنى سائلك عن شىء، فان أنت صدقتنى نظرت فى أمرك. قالت: لا تسألنى عن شىء إلا صدقتك. قال: أخبرينى لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك، أكان يسرك أن أقضى لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت، فلو دخلت قبرك وأجلست للمساءلة، أكان يسرك أنى قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت، فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك، أكان يسرك أنى قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت، فلو أردت الممرّ على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين، أكان يسرك أنى قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت، فلو جىء بالميزان وجىء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل، أكان يسرك أنى

---

(١) روضة المحبين ص ٣٤٨

قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت ، فلو وقفت بين يدى الله للمساءلة أكان يسرك أنى قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت . ثم قال : اتقى الله فقد أنعم عليك ، وأحسن اليك

فرجعت الى زوجها فقال : ما صنعت ؟ فقالت : أنت بطال ونحن بطالون !

وأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة ، فكان زوجها يقول : ما لى ولعبيد بن عمير ، أفسد علىّ امرأتى ، كانت فى ليلة عروساً فصيرها راهبة (١)

أرأيتم ما فى هذه القصة من وجوه التربية الخلقية ؟

إن هذا الفن من الأقاصيص هو من وضع الصوفية ومن نحا نحوهم من أهل الزهد والعفاف ، وهو بما فيه من عناصر الصدق والاخلاص خليق بمطاردة ما وضع المفسدون من أخبار الفسق والمجون ، فان لم يكن الصوفية خلقوا هذا الفن فهم الذين أحيوه وأذاعوه ، فاليهم الفضل فى حياته على كل حال ، وهو فضل ليس بالقليل .

١٥ — ويتصل بهذا روايتهم للأخبار القصيرة التى تردع الهوى ، وتردّ شارد العقل ، من أمثال هذه الكلمات :

قال ابراهيم بن أبى بكر بن عياش : شهدت أبى عند الموت فبكيت ، فقال : ما يبكيك ؟ فما أتى أبوك فاحشة قط . وقال عمر بن حفص بن غياث: لما حضرت أبى الوفاة أغمى عليه فبكيت عند رأسه ، فقال لى حين أفاق : ما يبكيك ؟ قلت : أبكى لفراقك ، ولما دخلت فيه من هذا الأمر — يعنى القضاء — فقال : لا تبك ، فانى ما حللت سراويلى على حرام قط ، ولا جلس

(١) روضة المحبين ص ٣٦٤ وتأمل كلمة (راهبة)

بين يدىّ خصمان فباليت على من توجه الحكم عليـه منهما . وقال سفيان ابن أحمد : شهدت الهيثم بن جميل وهو يموت ، وقد سجّى نحو القبلة ، فقامت جارية تغمز رجليه ، فقال اغمزيهما ، فان الله يعلم أنهما ما مشتا إلى حرام قط (١)

ولهذه الـكلمات نظائر كثيرة جدا ، وهى تؤيد ما ذهبنا اليه من أن اهتمام الصوفية بالجمال ساقهم إلى فنون ممتعة من صور الأدب والأخلاق .

ولـكن هل وقف الصوفية فى حرب الهوى عند ابتداع هذه الأقاصيص ؟ هيهات ! فقد وضعوا طرائق للرياضة النفسية تعدّ من أبدع الدساتير فى عالم الأخلاق ، وهم يوصون مدمنى الشهوات بملاحظة الأمور الآتية ، وهى كفيلة بتخليص أسير الهوى من براثن الشيطان :

الأول — عزيمة حرّ يغار لنفسه وعليها .

الثانى — جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة

الثالث — قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة ، والشجاعة كلها صبر ساعة ، وخير العيش ما أدركه العبد بصبره .

الرابع — ملاحظته حسن موقع العاقبة ، والشفاء بتلك الجرعة .

الخامس — ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه

السادس — إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفى قلوب عباده ، وهو خير وأنفع له من لذة مرافقة الهوى .

السابع — إيثار لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية

(١) روضة المحبين ص ٣٦٣

الثامن — فرحه بغلبة عدوه، وقهره له. ورده خائبا بغيظه وغمه وهمه، حيث لم ينل منه أمنيته[1]

التاسع — التفكير فى أنه لم يخلق للهوى، وإنما هيء لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصية الهوى.

العاشر — أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالا منه، فان الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه، فيؤثر النافع على الضار، والانسان أعطى العقل لهذا المعنى[2]

الحادى عشر — أن يسير بفكره فى عواقب الهوى: فيتأمل كم أفاتت معصيته من فضيلة، وكم أوقعت فى رذيلة، وكم أكلة منعت أكلات، وكم من لذة فوّتت لذات، وكم من شهوة كسرت جاها، ونكست رأسا، وقبحت ذكرا، وأورثت ذما، وألزمت عارًا لا يغسله الماء، غير أن عين الهوى عمياء

الثانى عشر — أن يتصور العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه، ثم يتصور حاله بعد قضاء الوطر، وما فاته وما حصل له

الثالث عشر — أن يتصور ذلك فى حق غيره حق التصور، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة، فحكمُ الشيء حُكمُ نظيره.

الرابع عشر — أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك، ويسأل عنه عقله ودينه يخبرانه بأنه ليس بشيء

الخامس عشر — أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى، فانه ما أطاع

---

(١) العدو فى هذا المقام هو الشيطان

(٢) أى أن ما يدركه البهيم يجب أن يدركه الرجل بالعقل

أحد هواه إلاّ وجد فى نفسه ذلا ، ولا يغترّ بصولة أتباع الهوى وكبرهم، فهم أذل الناس بواطن ، قد جمعوا بين الكبر والذل .

السادس عشر — أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه، وبين نيل اللذة المطلوبة ، فإنه لا يجد بينهما نسبة ألبتة ، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا .

السابع عشر — أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه ، فان الشيطان اذا رأى من العبد ضعف عزيمة وسقوط همة وميلا إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد ، ومتى أحس منه بقوة عزم وشرف نفس وعلو همة لم يطمع فيه الا اختلاساً وسرقة .

الثامن عشر — أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئا الا أفسده ، فان وقع فى العلم أخرجه الى البدعة والضلالة ، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع فى الزهد أخرج صاحبه الى الرياء ومخالفة السنة ، وإن وقع فى الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصده عن الحق ، وإن وقع فى القسمة خرجت عن قسمة العدل الى قسمة الجور ،وإن وقع فى الولاية والعزل أخرج صاحبه الى خيانة الله والمسلمين حيث يولى بهواه ، ويعزل بهواه ،وإن وقع فى العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة ، فما قارن الهوى شيئا إلا أفسده .

التاسع عشر — أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه ، فانه يطيف به ليعرف أين يدخل عليه حتى يفسد قلبه وأعماله فلا يجد مدخلا إلا من باب الهوى فيسرى منه سريان السم فى الأعضاء .

العشرون — أن يتذكر أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة فى بدنه وقوة

فى لسانه ، وأن أغزر الناس مروءة أشدهم مخالفة لهواه ، وأنه ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان ، فأيهما قوى على صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم له ، وأن الله سبحانه جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين ، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين

الحادى والعشرون — أن يعرف أن الهوى تخليط ومخالفته حِمْيَة ، وأنه يخاف على من أفرط فى التخليط وجانب الحميـــة أن يصرعه داؤه . وأن الهوى رق فى القلب ، وغل فى العنق ، وقيد فى الرجل ، ومتابعه أسير ، فمن خالفه عتق من رقه وصار حرا ، وخلع الغل من عنقه ، والقيد من رجله ، واستطاع مسايرة الصالحين[1]

١٦ — وهذه الأمور لخصناها من كلام مطول أثبته ابن القيم فى نهاية كتابه الممتع (روضة المحبين) وقد وصل به اجتهاده الى نحو خمسين وسيلة لدعوة النفس الى حرب الهوى . وفى هذه الشواهد مقنع لمن يمترى فى مزج الصوفية بين العقـل والدين ، فهم لا يعتمدون على الشرع وحده ، وانما يجعلون الكرامة الانسانية مما تنصب له الموازين ، وهل كان الشرع فى جوهره إلاّ مبعث يقظة للعقل والوجدان ؟

(١) انظر روضة المحبين ص ٥٠٣ — ٥١٧

الموسيقا والغناء

فضل الموسيقا فى التذكير بعالم الأرواح — اختلاف الناس فى فهم الصور المعنوية للموسيقا والغناء — الالحان فى الاغانى الدينيـة وفى القرآن — رأى الصوفية فى السماع — حسن النية وشرف القصد هما الاساس فى إباحة الغناء — بين الفقهاء والصوفية — طرائق الانشاد فى مجالس الذكر — مجالس الصوفية تنقلب أحيانا الى مجالس فنية — أثر الغناء فى الأدب — بين الرمز والافصاح .

---

١ — ليس من المبالغة أن نحكم بأن الصوفية تفردوا بين أهل الأدب والأخلاق بالتجويد فى الموسيقا والغنـاء ، فهم الذين نظروا فى ذلك نظراً فلسفياً وهم الذين جعلوا الموسيقا والغنـاء من المشاكل الخلقية وهم الذين صيروا إنشاد الشعر فى المحافل العلنية بابا من الأدب الرفيع .

٢ — ولنبدأ هذا الفصل بتحليل الحوار الممتع الذى وضعه إخوان الصفا فى فضل الأنغام الموسيقية ، فهو يمثل فهم الصوفية لأثر الموسيقا فى تثقيف الأرواح والقلوب .

حدثوا أن جماعة من الحكماء والفـلاسفة اجتمعوا فى دعوة ملك من الملوك فأمر أن يكتب كل ما يتكلمون به من الحكمة ، فلما غنَّى الموسيقار لحناً مطرباً قال أحد الحكماء : إن للغناء فضيلة يتعذر على المنطق إظهارُها ولم يقدر على إخراجها بالعبارة فأخرجها النفَس لحناً موزوناً فلما سمعتْها الطبيعة استلذتها وفرحت وسرَّت بها فاسمعوا من النفس حديثها ومناجاتها .

وقال آخر : احذروا عند استماع الموسيقا أن تثور بكم شهوات النفس البهيمية نحو زينة الطبيعة فتميل بكم عن سنن الهوى وتصدّكم عن مناجاة النفس العليا .

وقال آخر للموسيقار : حرّك النفس نحو قواها الشريفة من الحلم والجود والشجاعة والعدل والكرم والرأفة ، ودع الطبيعة لا تحرك شهواتها البهيمية .

وقال آخر : الموسيقار إذا كان حاذقا بصنعته حرك النفوس نحو الفضائل ونفى عنها الرذائل .

وقال آخر : سمع فليسوف نغمة القينات فقال لتلميذه : امض بنا نحو هذا الموسيقار لعله يفيدنا صورة شريفة ، فلما قرب منه سمع لحناً غير موزون ونغمة غير طيبة فقال لتلميذه : زعم أهل الكهانة أن صوت البوم يدل على موت إنسان ، فان كان ما قالوا صدقا فصوت هذا الموسيقار يدل على موت البوم !

وقال آخر : الموسيقار وإن كان ليس بحيوان فهو ناطق فصيح يخبر عن أسرار النفوس وضمائر القلوب (١)

وقال آخر: لا يفهم معانى الموسيقار ولطيف عبارته عن أسرار الغيوب إلا النفوس الشريفة الصافية من الشوائب الطبيعية ، والبريئة من الشهوات البهيمية .

---

(١) الموسيقار فى هذه العبارة هو الآلة الموسيقية

وقال آخر : إن النفوس الناطقة إذا صفت عن الشهوات الجسمانية ، وزهدت فى الملاذّ الطبيعية ، وانجلت عنهـا الأصدية الهيولانية ، ترنمت بالألحان الحزينة ، وتذكرت عالمها الروحانى الشريف العالى وتشوفت نحوه فاذا سمعت الطبيعة ذلك اللحن تعرضت للنفس بزينة أشكالها ، ورونق أصباغها ، كيما تردّها اليها ، فاحذروا من مكر الطبيعة أن تقعوا فى شبكتها .

وقال آخر : انما تشخص أبصار الناظرين إلى الوجوه الحسان لأنها أثر من عالم النفس ، ولأن عامة المرئيات فى هذا العالم غير حسان لما يعرض لها من الآفات الشائنة المشوهة ، إما فى أصل التركيب أو بعده . وبيان ذلك أن الصغار من المواليد يكونون ألطف بِنْيةً وأظرف شكلاً وصورةً لقرب عهدها من فراغ الصانع منها ، وهكذا حكم ما يُرَى من حسن الثياب ورونقها فى مبدأ كونها قبل الآفات العارضة لها من الهوام والبلى والفساد .

٣ — تلك فقرات قصيرة من الحوار الطويل الذى كتبه إخوان الصفا فى فضل الموسيقا والغناء (١) ولم ننقل الحوار برمته لأن منهج البحث لا يحتّم ذلك . ويكفى أن ندل القارىء على الغرض الذى وُضِع لأجله ذلك الحوار وهذه الفقرات تشير إلى أنهم يتمثلون أصولاً روحانيةً للهياكل الجسمانية ، ويتصورون أن الغناء قد يوجّه النفس إلى الخير حينا ، وإلى الشر أحيانا ، يوجّهها إلى الخير حين ينبه الموسيقار إلى الواجب الأشرف فى تحريك النفوس نحو قواها الشريفة من الحلم والجود والشجاعة والعدل ، ويوجهها إلى الشر حين يتغنى بالشهوات الحسية فيثير فى النفس أسباب الشوق إلى موارد الغىّ والضلال .

(١) انظر المحاورة كاملة فى رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٧٥ — ١٧٩

وإخوان الصفا من الصوفية ، وإن لم يصرحوا بذلك ، وهم يستشهدون بكلام أهل التصوف فى مواطن كثيرة ، وفى هذا الباب نقلوا من نوادرهم ما يؤيد رأيهم فى اختلاف التأثيرات الموسيقية باختلاف النفوس . وهم يرون أن « كل نفس إذا سمعت من الأوصاف ما يشاكل معشوقها ، ومن النغمات ما يلائم محبوبها ، فرحت وسُرَّت والتذت بحسب ما تصورت من رسوم معشوقها ، واعتقدت فى محبوبها ، وتلك المعشوقات تختلف باختلاف الطباع ، فللطبع السليم معشوقات روحانيــــة ، وللطبع العليل معشوقات أرضية ، وقد صرحوا بأن أبصار الناظرين تشخص الى الوجوه الحسان لأنها أثرٌ من عالم النفس . كأن ذلك العالم كله جمال . وعلى هذا الأساس يكون الغناء العذب تذكيراً بالمحاسن المغيّبة فى عالم الروح .

٤ — والحق أن الغناء كان منذ الزمن القديم عنصراً حيّا فى التقاليد الدينية ، وكان من الأنبياء من يعتمد على صوته الجميل فى جذب الناس ، ففى الحديث أن داود عليه السلام قد أُعطِى حسن الصوت حتى كان يستمع لقراءته إذا قرأ الزّبور الجن والانس والوحش والطير (١) وكان بنو إسرائيل يجتمعون فيستمعون ، وكان يحمل من مجلسه أربعمائة جنازة ممن قد مات (١) .

ولا تزال الكنائس المسيحية منذ نشأتها الأولى عامرة بالأناشيد ، وللكنائس الفرنسية تأثير فى الموسيقا والغناء يعرفه من يهتمّ باللوحات الغنائية وقد جمعتْ عدداً وفيراً من أناشيد الرهبان ، ولا سيما الأناشيد المعروفة بالجريجوارية

---

(١) اللمع ص ٢٦٨

والقرآن نفسه لُحِّن وقُرِيء بالألحان منذ عهد الرسول، وصحّ للجاحظ أن يحكم بأن القراءة بالألحان غير الغناء (١).

وكذلك درج الصوفية على مدح الصوت الحسن فكان ذو النون يراه مخاطبات وإشارات إلى الحق أودعها كل طيّب وطيبة (٢) وكان يحي بن مُعاذ يراه رَوْحةً من الله لقلب فيه حبّ الله (٢)

٥ — وأهم ما امتاز به الصوفية هو التحرز فى السماع وهم يكرهونه إذا تطرق إلى الغرض منه الفساد والمخالفة واللهو وترك الحدود (٣) وعندهم ما يسمى السماع بالحال ، والذى يسمع بحاله يتأمل إذا سمع حتى يَرِد عليه معنًى من ذكر عتاب أو خطاب ، أو ذكر وصل أو هجر ، أو قرب أو بعد ، أو تأسّف على فائت ، أو تعطّش إلى ما هو آت ، أو ذكر طمع ، أو يأس أو بأس ، أو بسط أو استئناس ، أو خوف الافتراق ، أو وفاء بالعهد ، أو تصديق بالوعد ، أو نقض للعهد ، أو ذكر قلق أو اشتياق ، أو فرح الاتصال ، أو ترح الانفصال ، أو التحسر على ما لم ينل ، أو القنوط من الذى أمّل ، أو ذكر صفاء المحبة ، أو التمكن من المودة ، أو ذكر اعتراض الصبوة بعد تمكنه من الحظوة ، أو ذكر محافظة الرقيب عند ملاحظة الحبيب ، أو تباريح الشجون ، وفنون الفتون ، فاذا طرق سمعه من ذلك حال مما يوافق حاله فيكون كالقادح يقدح فى سره على قدر قوة إرادته فيعجز عن الضبط (٤)

---

(١) وهناك رأى يقول بأن فواتح السور فى القرآن هى علامات موسيقية . وقد شرحت هذا الرأى فى كتاب النثر الفنى ج ١ ص ٤١

(٢) اللمع ص ٢٦٩ (٣) ص ٢٧٣و٢٧٦ (٤) ص ٢٧٨

وعندهم السماع بالحق ومن الحق ، والذى يسمع بالحق ومن الحق لا يلتفت إلى هذه الأحوال ، لأنها وإن كانت شريفة فهى ممزوجة بحظوظ البشرية ، والذين يكون سماعهم بالله ولله ومن الله وإلى الله هم الذين وصلوا إلى الحقائق وعَبَروا الأحوال ، وفَنُوا عن الأفعال والأقوال ، ووصلوا إلى محض الاخلاص وصفاء التوحيد ، فخمدت بشريتهم ، وفنيت حظوظهم ، وبقيت حقوقهم ، فشهدوا موارد الحق بالحق بلا علّة ولا حظ للبشرية ، وأطلعتهم تلك الموارد على أسرار حكمته ، وأرتهم آثار قدرته ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (١)

٦ — وينبغى أن نتذكر أن الصوفية تفردوا بين رجال الدين بالتشيع للموسيقا والغناء ، فمن الفقهاء من يرى أن الغناء لهو مكروه يراد به الباطل ويقضى بأن من استكثر منه فهو سفيه تردّ شهادته (٢) ، وذلك الفقيه هو الشافعى رحمه الله . أما مالك فقد نهى عن الغناء وقال: إذا إشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردّها ، وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا ابراهيم بن سعد (٣) وأما أبو حنيفة فكان يجعل سماع الغناء من الذنوب (٣)

أما الصوفية فقد أقبلوا على الغناء ، ولم يشترطوا إلا حسن النية ، وشرف القصد ، وتفردت الطريقة المولوية باستجازة العزف على الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها أثناء مجلس الذكر ، وكان لهذه الطريقة أشياع فى الأقطار الفارسية والتركية ، وكان لهم فى مصر تكية فى حىّ السيوفية بالقاهرة وكانت لهم حضرة أسبوعية يتشوف إليها المولعون بالموسيقا والغناء ، وقد

---

(١) انظر اللمع ص ٢٧٩ (٢) الاحياء ج ٢ ص ٢٦٧ (٣) الاحياء ج ٢ ص ٢٦٨

أغلقت الحكومة المصرية تلك التكية ، ورأينا يوم إغلاقها جماعة من أهل الأدب يعترضون فى الجرائد على حرمان الموسيقا من براعة أولئك القوم (١) .

والذى يراجع كتب التصوف يراها تفيض بالكلام عن الوجد والسماع وآداب المستمعين . وفى كتاب الاحياء فصل ممتع لخصته وناقشته فى كتاب الأخلاق عند الغزالى(٢) ولا أرى العود إلى تلخيصه فى هذا الحديث، ويكفى أن يتذكر القارى. أن عناية الصوفية بالكتابة عن الموسيقا والغناء فيها وساوس كثيرة تمثل عنايتهم بالفنون وحرصهم على الأخلاق (٣)

٧ — أما طريقة التغنى فى مجالس الصوفية فقد بيَّنها الأستاذ التفتازانى فى مقال نشره فى مجلة المعرفة — عدد يونيه سنة ١٩٣١ — وهو يقول :

« إن الصوفية درجوا منذ القديم على أن يبدأوا مجالس الذكر بـ (لا إله إلا الله) وتُعرف عندهم بالأرضية ، ويأخذ (الرسّيم) الذى هو رئيس المجلس فى التدرج بالذاكرين أثناءها من الراست « الرصد » إلى الدوكه إلى السيكاه إلى الجهركاه (الجركاه) إلى الحجاز ثم الرهاوى فالكردى

(١) ذهبت مرة لسماع أولئك القوم ولكن الشيخ محمد عبد المطلب رحمه الله صادفنى فى الطريق فصرفنى عن ذلك الغرض وكانت حجته أنهم مبتدعون، فضاعت بذلك فرصة ما أظنها تعود.

(٢) ص ٢٦٨ — ٢٧٤

(٣) كان ابن القيم فى أغلب أحواله من خصوم الصوفية وقد أنكر عليهم حب الغناء ، وهو يسمى الغناء (قرآن الشيطان) ويستشهد بقول ابن مسعود « الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » ويذكر أنه شاهد ثقل القرآن على أهل الغناء والسماع (مدارج السالكين ج ١ ص ٢٧٥) والحق أن رأى ابن القيم فى هذه القضية لا يخلو من اعتساف ، فحلاوة القرآن لاتوجب أن تخف النفوس لسماعه فى كل وقت ، لأن النفوس لاتستعد للجد فى كل حين ، فقد صاغها الله من ألوان مختلفات .

فالبياتى فالصبا . وهنا تبدو مقدرة الرئيس فى نقل الذاكرين من نغمة إلى نغمة كما تبدو مقدرة المنشدين فى متابعتهم للانغام والانشاد . والغالب فى الانشاد على الأرضية أن يكون من كلام الصوفية كقولهم :

إلٓهى توسلنا بجاه محمد نبيك وهو السيد المتواضع
أنلنا مع الأحباب رؤيتك التى إليها قلوب الأولياء تسارع

إلى آخر القصيدة ، ثم ينفرد رئيس المنشدين بعد الوصول إلى نغمة الرصد أو إلى النغمة التى ينتهى عندها إنشاد القصيدة بالاستغاثة (أغثنا أدركنا يا رسول الله) ثم يقول الموّال من نفس النغمة ، فالأبيات التى سينشدها عند قيام المجلس من نفس النغمة أيضاً ينشدها على الأرض مقطّعة وعند قيام الذاكرين يكرر الأبيات بالطريقة المألوفة ، ثم ينفرد بعد ذلك بالمقطعات والقصائد والرقائق وما إليها من كلام الصوفية . وقد يستبيح بعضهم أن ينشد الأدوار الموسيقية بمذاهبها وورودها المعروفة على مجلس الذكر ، ولكن هذه الطريقة قاهرية محضة ، ويكاد لا يتبعها إلا رجال الطريقة الليثية أصحاب الفضل على هذا الفن وأساتذة مبرّزيه وحملة ألويته فى القاهرة منذ مائتى عام »

٨ — وقد لاحظت أن مجالس الصوفية كانت تنقلب أحيانا إلى مجالس فنية ، فهى مجالسٌ تعقد ظاهراً لذكر الله ، ولكن الغرض منها الغناء . فقد كان فى حىّ الحسين منزل تقام فيه حضرة كل ليلة ثلثاء . وكان ذكر الله فى الصورة الشكلية يتولاه طائفة من العجزة عجزة الدراويش ، أما نظام المجلس فيقوم على فن الشيخ حسن الحويحى ، وكان منشداً حلو الصوت ،

عذب الأداء ، خفيف الروح ، وكان ينشد فى الحضرة أبياتاً من شعر ابن الفارض ، مثل :

مابين معترك الأحداق والمهج　　أنا القتيل بلا إثم ولا حرج

ثم يندفع فيغنى « آنست يانور الوجود ، شرفت يا روح المهجة ، بعد البعاد أنا قلبى عليك» أو « الكمال فى الملاح صُدَف » إلى آخر الأغانى الطريفة التى كانت تغنّى فى الليالى الملاح .

وكنت ألاحظ أن أهل ذلك المنزل يجعلون ليلة الحضرة ليلة قصف فيجمعون خلاّنهم حول الموائد ويتندرون بأطايب الأحاديث .

وكان المستمعون يقترحون « الأدوار » على نحو ماكانوا يفعلون فى حفلات الطرب والأنس . وقد اقترح بعضهم دور « حود من هنا وتعال عندنا » فغضب الشيخ الحويحى وقال : نحن لسنا فى الأزبكية . . . أما أنا فكنت أفهم من شواهد الحال أن الأزبكية ليست منهم ببعيد !

وكان الشيخ الحويحى ريحانة عصره ، فلما انتقل إلى جوار ربه تعطلت تلك الحضرة ، فما استطاع منشد آخر أن يجذب القلوب إلى ذلك المكان (١)

---

(١) هو بيت الصواف ، وكان له فناء واسع تقوم فيه عدة نخلات ، وفى ذلك الفناء تقوم الحضرة على الحصير ، وفى الأبهاء يجلس المدعوون الخصوصيون على الأرائك

وبالقرب منه كان بيت الشيخ مصلح ، وكان صوفيا متأنقا يعيش عيش المترفين ، وكانت الحضرة تقام فى بيته ليلة الاثنين ، وما كان فيهـا ذكر ولا أناشيد ، وانما كان يجتمع القراء المشهورون لقراءة القرآن بالألحان . وكان القراء يجدون الفرصة لتكوين سمعتهم بين الجماهير ، قبل أن تخلق الاذاعة اللاسلكية بأعوام طوال . والشيخ مصلح مدفون بقرية الشيخ عبيد بجوار المطرية ، وقد حدثنى الاستاذ محمد لطفى جمعة أن بيته لا يزال معموراً بمريديه القدماء .

٩ — وكانت مجالس الذكر مدرسة لتخريج المغنين ففيها ظهرت تباشير النبوغ للمرحومين عبده الحامولى ومحمد عثمان وسلامة حجازى ويوسف المنيلاوى وسيد درويش . وفى القرى المصرية مئات من قراء الموالد هم فى الأصل من أتباع الصوفية .

١٠ — واهتمام الصوفية بالغناء عاد على الأدب بكثير من النفع : فهناك مجموعات شعرية وضعت لحفظ الأناشيد الصوفية ، منها سفينة النجاة ، وهى مجموعة صنفت منذ عشرين عاما ، صنفها الأديب محمود نسيم ، وقد عاونته على ترتيبها يوم كنت موصول العهد بالسادة الشاذلية .

وقد انتقل فريق من تلك الأناشيد إلى الأغانى الحسية . أغانى المرح والطرب فى عالم الحس الذى يتاخم عالم الروح . ومنذ ليال كان صالح عبد الحى يغنى فى قاعة المذياع :

إن شكوت الهوى فما أنت منا   إحمل الصد والجفا يامعنَّى

وهى قصيدة صوفية يتلقاها أكثر الناس بالقبول ، وهى فى أنفسهم صورة من الوجد الحسىّ المشبوب .

١١ — وأكثر الأغانى الصوفية رمزيات وفيها مايفصح عن أغراضهم كالذى نراه فى هذه الحائية :

أبداً تحنُّ إليكم الأرواحُ   ووصالكم ريحانُها والراحُ
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم   وإلى لذيذ لقائكم ترتاح
وارحمتا للعاشقين تكلَّفوا   ستر المحبة والهوى فضّاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم   وكذا دماء البائحين تباح

يا صاح ليس على المحبّ ملامةٌ ... إن لاح فى أفق الوصال صباح
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها ... لما دَرَوْا أن السماح رَبّاح
ودعاهمُ داعى الحقائق دعوةً ... فغدوا بها مستأنسين وراحوا
ركبوا على سنن الوفا، ودموعهم ... بحر، وحادى شوقهم ملاّح
والله ما طلبوا الوقوف ببابه ... حتى دُعوا وأتاهم المفتاح
لا يطربون لغير ذكر حبيبهم ... أبداً فكل زمانهم أفراح
حضروا فغابوا عن شهود ذواتهم ... وتهتكوا لما رأوه وصاحوا
أفناهمُ عنهم وقد كشفت لهم ... حُجُب البقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح (١)

١٢ — وفى الصوفية من اهتم بتحديد المعانى المنقولة من الحسيات إلى الذوقيات، فقد حدث ابن عربى أن من سماعهم قول ابن حَيُّوس

أسُكّان نعمان الأراك تيقنوا ... بأنكمُ فى ربع قلبىَ سكانُ

---

(١) من الوفاء للبحث أن نذكر مرة ثانية أن ابن القيم يرتاب فى الغناء وينكره على الصوفية، وهو يراه أفظع من شرب الخمر، ويقول « وأى نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه الى سكرة العشق التى لا يستفيق الدهر صاحبها الا فى عسكر الهالكين سليباً حريبا أسيراً قتيلا؟ وهل تقاس سكرة الشراب الى سكرة الأرواح بالسماع، وهل يظن بحكيم أن يحرم سكراً لمفسدة فيه معلومة ويبيح سكراً مفسدته أضعاف أضعاف مفسدة الشراب؟ فان نازعوا فى سكر السماع وتأثيره فى العقول والأرواح خرجوا عن الذوق والحس، وظهرت مكابرة القوم، فكيف يحمى الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته، ويبيح له ما فيه أعظم السقم، والمنصف يعلم أنه لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب، وسقمها بسكر السماع (مدارج السالكين ج ١ ص ٢٧٩) وما يراه ابن القيم عين الفساد يراه الصوفية عين الصلاح، لأنهم يدعون الى كل ما يهيج القلوب ويوقظ النفوس اذ كانت طريقتهم قائمة على تنبيه ما غفا من الأذواق والأحاسيس، وفيهم من لا يفرق بين الحلال والحرام ويرى أن العاصى والمطيع أمام الحق سواء. ويظهر من كل ما سلف أن أهل الشريعة وأهل الحقيقة مختلفون فى الأساس الذى يقوم عليه صرح الأخلاق.

ودُوموا على حفظ الوداد فطالما   بُليت بأقوام إذا استُحفِظوا خانوا
سلُوا الليل عنى مذ تناءت دياركم   هل اكتحلت بالنوم لى فيه أجفان

ثم قال « السماع الروحانى فى ذلك : سكان نعمان الأراك هم العارفون فى نعيم حضرة المشاهدة ومحلها قلوبهم . يقول لطيفته الربانية لهذه الهمم : داوموا فانى دفعت إلى نفوس أخذ عليها العهد الالهى فى الميثاق الأول فخانوا ، ثم أخذ يصف نفسه بالقيومية تخلقاً إلهياً ، أى على قدر التجرد من عالم التركيب الذى هو محل النوم إلى العالم الأنزه الأقدس الذى لا نوم فيه ميراثاً نبوياً من أنه لا ينام قلبه صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ يخاطب الهمم أن لمعان سيوفها إذا برقت من منازلها منازل الأحبة فغمد هاتيك السيوف أجفانى ، أى لا أنام ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار [١] .

وهذه العبارة فيها حيرة ، حيرة ابن عربى بين مقام الله ومقام الرسول ، وسبب ذلك يرجع إلى قوله بالحقيقة المحمدية ، فالنبىّ مألوه من جانب وإله من جانب ، فهو رب ومربوب ، هو رب حين تراه صاحب الفضل على جميع الموجودات ، وهو مربوب حين تتصور تبعيته لواجب الوجود ، وقد فصَّلنا هذه القضية فى الجزء الأول تمام التفصيل

ثم حدثنا أن من سماع الصوفية قول مهيار

من ناظر لى بين سَلْع وقُبَا [٢]   كيف أضاء البرق أم كيف خبا
نبهنى وميضُهُ ولم تَنَمْ   عينى ولكن ردَّ قلباً عزبا
برق له قد صار قلبى خافقاً [٣]   واستبردته أضلعى ملتهبا

---

(١) محاضرة الأبرار ص ٢١٤ ج ١   (٢) سلع وقبا : موضعان

(٣) رواية الديوان : قرت له بنات قلبي خافقاً

يالبعيـد من مِنىً دنا بهِ ـ يوهمنى الصدق ـ بُرَيقٌ كذبا
ولنسيم سَـحَر بحاجرٍ ردّت به عهدَ الصِّبا ريح الصَّبا
ألِيـةً ما فتح العطـار عن أعبق منهـا نفساً وأطيبا
سل مَن يدل الناشدين بالغضا على الطريد ويردُّ السلبـا
أراجعٌ لى ـ والمنى تَعِلةٌ ـ وطالعٌ نجـم زمان غربا
وطَوْفةٌ بين القبـاب بمنىً لا خائفاً عيناً ولا مرتقبـا

ثم قال : « السماع الروحانى للعارف فى ذلك : من ناظر لى بين المقامات المحمدية كيف لمع برق المعرفة ، أم كيف خبا مطويا فى غيم الكون ، أيقظنى لمعانه على أن عينى مانامت عنه ، ولكن كان العقل منصرفاً إلى عالم التدبير فردَّه إلى العالم المدبِّر ، فسكنت له همم القلوب بعد طيرانها خضعاً كسلسلة على صفوان ، واستبردت برد السرور ما كان حامياً بنور التنزلات الالهية ، فلما لاح له المعين من خلق خلقة الرصد مثال النور المنزل ليقبله منه عرفه بالحفظ الالهى فقال : يوهمنى الصدق بريق كذب . ثم رجع ينادى أيضا بالبعد من عالم الأنفاس فى البرزخ المشترك بين النور والظلمة دلَّ عليه وعلى عصر شبابه ريح الصبا وشروق نفس التنفس من نفس الرحمن بما هو أطيب من المسك عرفا ونشراً ، ثم قال : سل من يدل الناشدين قلوبهم بمقام الاشتياق على الطريق عن البناء الأعز ، ويرد قلبا أخذ منه على غرة ، ثم قال : أراجع لى ذلك السلب ، والمنى قد تكون أمانى ، وهل يطلع نجم سعد غرب ؟ أى صار فى الحجاب . وهل أرانى طائفاً متردداً بين القباب الساترة شموساً لا خائفاً

بقول : لِمَ ؟ ولا مترقباً وعد حصول الاتصال وانتظام الشمل بالأحباب [١] »

وهذا الكلام على ركاكته واضح المدلول ، فهو يعنى أن الصوفية قد يتغنون بأشعار حسية ، ولكنهم ينقلونها إلى آفاق روحانية

وما احتاج ابن عربى إلى هذا الشرح إلا لأنه كان مشغوفاً بتقعيد التصوف ، أى إقامته على قواعد وأصول

وكان الأفضل أن يترك هذه المعانى بلا شرح ، فللأرواح آفاق أوسع وأرحب مما يظن ، والصوفى الموصول القلب والروح بعالم المعانى قد يفهم من الغناء أشياء لا يصل اليها شرح ولا تفسير ولا تأويل .

وشعراء الحواس أنفسهم لا تفتنهم « ليلَى » من حيث هى امرأة . وإنما يتمثلون بها معانى كثيرة جداً ، منها الهجر والوصل والعذاب والنعيم

والصوفىّ يعجز حقاً وصدقاً عن شرح أسباب هُيامه حين يسمع الغناء ، ومَثَله مَثَل الموسيقار الحسّاس الذى يطرب من حيث لا يعرف بالضبط كيف طرب .

والصوفىّ الحق لا ينكر المحسوسات ، فهو قد يحب « ليلى » الحقيقية . بجانب « ليلى » المجازية ، لأن ليلى الحقيقية سطر جميل فى لوح الوجود

الصوفىّ الحق لا يحتاج إلى التبرؤ من جميع المحسوسات كما يتبرأ أمثال ابن عربى ، لأن المحسوسات هى التصوير للمعقولات ، وهى المفتاح الذى تدخل به فردوس المعانى

---

(١) انظر محاضرة الابرار ص ٢١٥ ج ١ وتذكر ما أشرنا اليه فى الجزء الأول من تأويل قصائد (ترجمان الأشواق)

الصوفىّ الحق يرتاح لـكل قول ، ولـكل صوت ، ولـكل منظر ، ولـكل مخبر ، وهذه المرئيات ليست من الأوهام ، وإنما هى شواهد تشير إلى حقائق ، كما تشير الألفاظ إلى المعانى

الصوفىّ الحق يعذر جميع المضللين وجميع المفتونين لأنهم فى رأيه من السالـكين وإن جهلوا الطريق

الصوفىّ الحق يطرب لـكل شىء ، ويأنس بكل شىء ، ويتغافل عن الشروح لأنها تفسد النفحات الوجدانية التى تأخذ عبيرها من الابهام والغموض .

الصوفىّ الحق لايعرف ماذا يريد ، وهل كان مجنون ليلى يعرف بالضبط ماذا يريد ؟

الصوفىّ الحق يرتاح إلى الحيرة كما يرتاح الجاهلون إلى اليقين

* * *

اللهم ضللنى فى هواك ، واجعلنى وحدى أسير الضلال فى هواك ، فبفضلك ورحمتك ذاق العارفون طعم الضلال

وهل كانت الهداية الصريحة إلا نصيب الأغبياء !

الآداب الصوفية عند الشعراني

مولد الشعراني ونشأته — زوجته وأخوه — رضاه عن نفسه — اعتقاده فى الكرامات — انطباع الشعب المصرى على الإيمان بكل مجهول — التصوف من سمات الضعف — دهاء الصوفية — حرص الشعرانى على رضا جميع الطبقات — شواهد من أخلاقه العالية — ذهاب الخير من مصر بانتصاف القرن العاشر — رأى الشعرانى فى الطبيعة الانسانية — الاسناد والايجاد — الترفق فى معاملة الفاسقين — الرفق بالأعداء — كيف نعامل من يظلمنا — غض البصر عن عيوب الناس — كيف نعامل النصارى واليهود — كيف نعامل الفرق الاسلامية — كيف نعامل الحكام — الشخصية الخلقية للمريد — تربية المريد من الوجهة العقلية — تأثر الشعرانى بالبيئة المصرية — الشعرانى والخواص .

---

١ — رأينا من الخير أن ندرس بعض الشخصيات الصوفية التى اهتمت بنشر محاسن الأخلاق ، فبدا لنا أن نكتب فصلا عن الغزالى ، ثم تذكرنا أننا نشرنا عنه كتابا فى أكثر من أربعمائة صفحة هو « الأخلاق عند الغزالى » الذى قدمناه إلى الجامعة المصرية فى سنة ١٩٢٤ وتذكرنا أيضا أن مؤلفات الغزالى كانت من أهم مراجع هذا الكتاب ، فنحن ما نسيناه حتى نفرده ببحث خاص .

وبعد التأمل رأينا أن ندرس إحدى الشخصيات المصرية التى أثرت أبلغ التأثير فى ذيوع الثقافة الصوفية بين المصريين ، فرأينا الشعرانى أكبر شخصية أثرت فى الأذواق المصرية ، وسيطرت على الجماهير زمناً غير قليل .

وقد يكون من أسباب ميلى إلى درس هذه الشخصية أن الشعرانى عرف سنتريس — وفى ألفاظه وتعابيره أخيلة لاتزال حية فى سنتريس — فقد نشأ

فى ساقية أبى شعرة وهى بلدة تجاور بلدنا ولنا فيها أقارب وأصدقاء . ومن أجل نشأته فى ساقية أبى شعرة سمى الشعرانى ، وهو عنـد نفسه يسمى الشعراوى ، وهو اسم كثير الذيوع فى البلاد المصرية كان يسمى به الناس أبناءهم تيمنا بذلك الامام الجليل .

ويظهر أن شخصية الشعرانى غرست فى ساقية أبى شعرة حب التصوف فلا تزال عامرة بذكريات الأولياء ، ولا يزال أهلها يقيمون الموالد وينشرون آداب الطريق ، وقد بلغ بهم الأمر أن اخترعوا شخصية جديدة هى شخصية الشيخ خالد ، وقد زعموا أنه خالد بن الوليد ، فجذبوا به الناس إلى بلدهم عدداً من السنين .

وفى ساقية أبى شعرة ضريح لرجل من الصالحين اسمه الشعراوى وهم يؤكدون أنه والد عبد الوهاب الشعراوى الذى نكتب عنه هذا الفصل (١) وهو كلام لا نعرف مبلغه من الصواب .

٢ — ولد الشعرانى فى قلقشندة فى بيت جده لأمه سنة ٨٩٨ وبعد أربعين يوماً من مولده انتقل إلى بلدة أبيه ساقية أبى شعرة فنشأ بها وأقام فيها إلى الثانية عشرة ، وظل موصول العهد بالبلد الذى نشأ فيه لأنا نراه يكثر من التحدث عن أولياء المنوفية (٢) ثم انتقل إلى القاهرة فتلقى العلم على كبار الشيوخ فى عصره ، ثم ارتفع شأنه فصار شيخ زاوية ، وكان هذا المنصب من المناصب المرموقة فى ذلك الحين (٣) ، وأقبل على التأليف فترك ثروة فقهية وصوفية لم يترك مثلها من العلماء الا الأقلون

---

(١) حدثنا بذلك الدكتور محمد حلمى عيد

(٢) كالذى وقع منه وهو يسرد ماعرف من كرامات إمام جامع سمادون

(٣) جاء فى بعض كلامه « إذا رفعك فصرت عالما أو شيخ زاوية »

ولسنا فى حاجة إلى ترجمة الشعرانى فكتبه هى ترجمة نفسه لأنه يتحدث عن أحواله وأعماله فى جميع المناسبات حتى أخبار بيته وأهله يراها القارىء فى كتبه مفصلة أتم تفصيل (١)

(١) ترجم الشعرانى نفسه ترجمة كاملة فى مقدمة كتابه (لطائف المنن) فذكر أنه من ذرية الامام محمد بن الحنفية وأن جده السابع كان سلطان تلمسان ، وأنه حفظ القرآن وهو فى سن التميز ، وأنه واظب على الصلاة منذ كان عمره ثمانى سنين ، وأن الله عصمه من الآفات مع أنه نشأ يتيم الأبوين وأن الله سخر التمساح له حين غرق فى النيل وأنه حفظ متن أبى شجاع ومتن الأجرومية ودرسهما على أخيه فى الريف قبل أن يهاجر إلى القاهرة . فلما هاجر إلى القاهرة حفظ من المتون مالم يحفظه أحد من أهل عصره ، ثم صحب الأشياخ وكان له من علومهم أوفى نصيب .

وفى نهاية كتاب (البحر المورود) رسالة صغيرة كتبها الشعرانى عن المؤلفات التى قرأها ، وهى تمثل مراجع الثقافة فى ذلك العصر ، وكذلك صنع فى كتاب (لطائف المنن) فذكر طائفة عظيمة من المؤلفات التى درسها وقدم لنا أمتع صورة عن أساتذة القاهرة فى القرن العاشر .

وكان إخوة الشعرانى من أهل العلم : نعرف منهم عبد القادر الذى درس عليه فى الريف مبادىء النحو والفقه ، ونعرف منهم أفضل الدين الذى تحدث عنه فى جميع مؤلفاته . ويظهر أن أباه كان أيضا من أهل العلم ، فقد جاء فى لطائف المنن ج ١ ص ٢٥٦ مانصه : « وقد أنشد الوالد رحمه الله تعالى :

الناس داء دفين لا دواء له	العقل قد حار منهم فهو منذهل
إن كنت منبسطاً سميت مسخرة	أو كنت منقبضاً قالوا به ثقل
وإن تخالطهمو قالوا به طمع	وإن تجانبهمو قالوا به ملل
وإن تهور يلقوه بمنقصة	وإن تزهد قالوا زهده حيل

إلى آخر ماقاله رحمه الله تعالى الرحمة الواسعة ، آمين » .

ولكن من المؤكد أن أباه كان من الفقراء بدليل أنه حين هاجر إلى القاهرة عاش فى كنف شيخ جامع الغمرى فكان بين أولاده كأنه واحد منهم يأكل مما يأكلون ويلبس مما يلبسون ، وقد شكر هذا الشيخ وأولاده بقوله فى أدب وعطف « فلا يجزيهم عنى إلا الله تعالى » أنظر لطائف المنن ج ١ ص ٣٢ .

ويظهر مما نقل على مبارك باشا عن كتاب (الدرر المنظمة) أن أولاد الغمرى حسدوه بعد ذلك وانقلبوا عليه فترك جامعهم وانتقل إلى مدرسة خوند — وعلى كثرة مانظرت فى كتب الشعرانى لا أذكر أنه أشار إلى ما وقع من أولاد الغمرى ، فان كان سكت سكوتا تاما عن مضايقتهم له حين عظم أثره فانما كان ذلك لأنه راعى ما قدموا إليه فى صباه من حسن الصنيع .

والذى يتذكر أن العرب والمسلمين قلما يتحدثون عن نسائهم فى الأشعار (١) والمصنفات يدهش حين يرى الشعرانى يقول : وما رأت عينى من نساء عصرى أكثر مواظبة على قيام الليل من زوجتى أم عبد الرحمن فربما صلت خلفى وهى حبلى على وجه الولادة بنصف القرآن ، وهذا عزيز جداً (٢) أو يقول : وأما أم ولدى عبد الرحمن رضى الله عنها فلها الآن معى تسع عشرة سنة فما رأيتها قط وهى تقضى حاجتها فى خلاء البيت إلى وقتى هذا (٣) أو يقول : وممن اطلعت عليها من النساء تخاف على رؤية شخصها وهى فى الازار وتستحى أن يراها أحد وهى خارجة من الخلاء زوجتى فاطمة أم عبد الرحمن رضى الله عنها . سافرت بها إلى الحجاز ثلاث مرات فما أظن أن العكام رأى لها حجما قط من حين خرجت من بيتها إلى أن دخلت مكة المشرفة ثم رجعت إلى بيتها ، وكانت تركب فى مثل العقبات فوق ظهر القتب داخل المحمل المغطى ، ونزل نساء الأكابر كلهم فى نزول العقبة وطلوعها وهى لم تنزل وما شعرتُ قط بقضاء حاجتها ، لا فى المحطات ولا فى حال السير . رضى الله عنها . ولم تركب قط حماراً . وقالت : لا أستطيع أن يرانى أحد ، حتى الكحال عجزت فيها أنه يرى عينيها فلم أقدر عليها . ورضيت بالوجع وصبرت حتى زال الرمد وضاف ميق عينها اليسرى عن العين اليمنى إلى الآن ، فهذا أمر رأيته منها . ولم يبلغنى وقوع ذلك لأحد من عيال

(١) لم يكن من المقبول عند شعراء العرب أن يتحدثوا عن نسائهم ، وإن تحدثوا عن معشوقاتهم ، وكان من العيب أن يروى الرجل شعراً قيل فى أمه وإن كان من شعر أبيه . وقل من شعراء العرب من رثى زوجته ، وأشهر من عرف بهذه الخلة من الوفاء الطغرائى وابن الزيات .

(٢) لواقح الأنوار ص ٤٣

(٣) اللواقح ص ٢٨٧

إخواننا . فالحمد لله رب العالمين على ذلك (١)

وهذه الفقرات تدل على أمرين : الأول أنه كان سعيداً فى حياته المنزلية ولذلك أثر فى فهمه لقواعد الأخلاق ، والثانى أنه كان يتمثل الكمال الخلق فى المرأة على وجه لا يخلو من تعسّف ، بدليل أنه رأى من موجبات الحمد أن ترحب زوجته بألم الرمد فى سبيل التحرز من رؤية الكحال ، أى طبيب العيون .

٣ — وبجانب اطمئنان الشعرانى على أخبار بيته كان له جانب آخر من الطمأنينة هو الأنس بمودة أخيه أفضل الدين : فقد كان أخوه هذا من أهل الصلاح ، وكان به حفيّاً ، فهو يذكره فى مناسبات كثيرة بلسان رَطْب ويضفى عليه حلل الثناء (٢)

ويظهر أيضاً من حديثه أنه كان راضيا عن أصدقائه فهو يطوف بأخبارهم من حين إلى حين ، ويتحدث عنهم حديث الفرح الجذلان

ويضاف إلى ذلك كله رضاه عن نفسه فقد كان يرى مسلكه فى دنياه من أشرف المسالك ، ولذلك نراه يكثر من الحديث عن « منن » الله عليه كأن يقول « عرضوا علىّ نحو أربعة آلاف دينار أوصى بها لى قاضى اسكندرية فرددتها احتياطاً لنفسى من أكل مال القضاء والشبهات التى لم تقسم لى وخوفاً عليها من ميلها إلى جمع مال الدنيا ، فالحمد لله على ذلك » وكأن يقول فى مقدمة كتابه تنبيه المغترين « شيدت أخلاقه بأفعال السلف الصالح من

(١) ص ٢٥٩ — ٢٦٠ وكلمة « عيال » هنا معناها المرأة ، وأهل مصر اليوم يسمون المرأة « عائلة » فيقول أحدهم : خرجت مع العائلة . يعنى زوجته

(٢) انظر مثلا ص ١١٥ و ٢٥٤ من لواقح الانوار . وراجع إن شئت كتاب لطائف المنن تجد الشعرانى ذكر أخاه بالخير فى أكثر من مائة موضع

الصحابة والتابعين ، والعلماء العاملين ، وبما منّ الله علىَّ بالتخلق به أوائل دخولى فى طريق محبة القوم ، خوفاً أن يقول بعض المتعنتين : كيف يأمرنا فلان بالتخلق بأخلاق القوم وهو لم يقدر على هذه الأخلاق . فلذلك صرحت بكثير من الأخلاق التى منَّ الله بها علىّ دون أقرانى » وكذلك قال فى مقدمة كتاب لطائف المنن ، وهو كتاب مملوء بالزهو والخيلاء ، وكله شواهد بأن الشعرانى كان عند نفسه أفضل الناس

وهذا الرضا المطلق عن النفس والأهل يفسر لنا جانباً مهماً من شخصية الشعرانى ، فهو سر ما اتصف به من الجرأة فى نقد ما رآه من الزيغ والانحراف فى أخلاق معاصريه . والرجل حين يخلُص من آفات نفسه يفرُغ للناس ، وكذلك كان الشعرانى قوىّ الجَنان وهو يحارب طغيان الولاة وإسفاف العلماء

والرضا عن النفس ليس من الشمائل المقبولة عند الصوفية ، ولكن هذه خَصِيصة من خصائص النفس الشعرانية ، ونحن ننص عليها من أجل ذلك ، فما نملك خلق النفوس من جديد لنسلكها فى سمط واحد ، وانما نسجل ما عرفناه من ألوان النفوس

وربما كان من العدل أن نقيد هذا المنزع من الخيلاء ، فالشعرانى كان يستبيح الحديث عن فضائل النفس حين تخلص النية ، وحين يكون لذلك غرض مقبول ، كالتأثير على المريدين وجذبهم إلى الاعتقاد فى شيخهم ليقبلوا على تعاليمه بنفوس معمورة بالحب والإجلال (١)

(١) انظر البحر المورود ص ٢٦٩

٤ — وكما حدثنا الشعرانى عن أهله وعن نفسه حدثنا كذلك عن عقليته . فهو رجل يؤمن بالكرامات إيماناً مطلقاً ويرى الأولياء يقدرون على كل شىء . وليس من المستبعد عنده أن يعرف الولىّ أخبار البيوت ، ومن الممكن فى رأيه أن يبيع الرجل الحشيش وهو فى حقيقة أمره من الأولياء ، ويجوز فى تصوره أن ينقل الرجل من مكة إلى مصر فى مثل لمح البصر إذا دفعه أحد الواصلين . وحدثنا أن أستاذه الخوّاص كان يرسل أصحاب الحوائج إلى رجل كان يبيع الفجل على باب الأزهر فيقضيها لهم فى الحال ، وأن هذا الرجل كان لا يأكل أحد من فجله وببدنه مرض من جذام أو برص أو غيرهما إلا شفى لساعته ، وحدث عن الشونى أن أحد الحمارين فى قنطرة الموسكى كان معروف البركة فلا تركب حماره مومس إلا تابت ، ولا تعود للزنا أبداً ، وأن أحد باعة الحشيش كان لا يشترى أحد منه قطعة إلا تاب عن الحشيش (١) وحدثنا أنه اجتمع بابليس على ساحل النيل وجادله وسمع منه أن الانسان كـكفتى الميزان وقلبه كلسان الميزان (٢)

ومؤلفات الشعرانى تفيض بالأقاصيص عما صنع المجاذيب ، ولهذا الجانب أهمية فى فهمه لقواعد الأخلاق ، فالشخصية الخلقية فى نظر الشعرانى هى شخصية تصدق كل شىء ، وإن أحالته العقول ، ما لم يعارض النصوص الشرعية ، فمن حدثنا أنه قرأ القرآن كله خمس مرات من المغرب إلى العشاء فهو صادق ، ومن حدثنا أنه قرأ القرآن كله بالحروف (٣) ثلثمائة ألف مرة

---

(١) أنظر تفاصيل هذه الاشارات فى لواقح الأنوار ص ٩٩ — ١٠١

(٢) اللواقح ص ٢٠٦ (٣) الحروف : هى القراءات

فى يوم وليلة فهو صادق ، لأنه « إذا تجردت الروح عن هذا الجسم الكثيف فعلت ذلك [١] »

ويظهر من النقول المبثوثة فى كتب الشعرانى أن الصوفية المصريين لعهده كانوا جميعاً يقولون بالكرامات ، ويظهر كذلك أنه كان فى مصر لذلك العهد طوائف من الفقهاء تنكر الكرامات : لأنه شغل نفسه بمحاجّة من ينكرون ما اختص به الأولياء

والتعليل نفسه يدل على سذاجة عقلية : فهو ينقل عن أستاذه محمد المرصفى أن الأولياء يتفق لهم أن يقضوا فى يوم واحد ما لا يمكن قضاؤه إلا فى سنين : لأن أعمار هذه الأمة قصيرة فأقدر الله الخواصّ على إنجاز الأعمال بسرعة البرق ليرجحوا على عبّاد الأمم السابقة الذين عاشوا نحو الخمسمائة سنة [١]

وليس يعنينا أن نناقش صحة الكرامات : لأننا لم نصل فى فهمها إلى حكم مقبول . وإنما يعنينا أن نسجل أن الشعرانى كان يرى الشخصية الخلقية شخصية لا يؤذيها أن تعق العقل ، ولا يضيرها أن تسوء الظواهر فى بعض الأحوال . وما كتبه عن الخوّاص يشهد بأنه كان يؤمن بالكرامات إيمان المجاذيب [٢] وما كتبه عن نفسه يدل على حمق : فقد حدث أنه سمع تسبيح الجمادات والحيوانات وسمع من يتكلم فى أطراف مصر بل فى سائر أقاليم الأرض وسمع تسبيح السمك فى البحر المحيط [٣] ويهمنا أيضاً أن نسجل أثر الشعرانى وأمثاله فى تلوين العقلية المصرية : فقد انطبع هذا الشعب على

---

(١) البحر المورود ص ٢٦٨ (٢) أنظر لطائف المنن ص ٢٦و٢٧ ج ١

(٣) انظر لطائف المنن ج ٢ ص١٧١

الإيمان بكل مجهول . وقد رأيت من كبار العلماء من يدافع عن الكرامات في دروسه بالأزهر الشريف ، وللشيخ الدجوى فى ذلك مباحث طوال . ورجانى أحد الأدباء الممتازين أن أكتب فصلا فى هذا الكتاب أشرح به وجه الحق فى الكرامات . ورأيت رجلا من أهل الفضل يتحدث عن القطب وكرامات الأقطاب . وما أحسبه كان من المازحين . ومنذ أيام تلقيت رسالة من أحد قراء البلاغ حدثنى كاتبها عن رجل من علماء الأزهر يزعم أنه رأى النبي فى المنام وأن النبي قضى بأن يكون إمام الأولياء

وما أدعى أن الاعتقاد فى الكرامات خاص بأهل مصر : فقد عقد لها الغزالى باباً فى الاحياء . وانما أحكم بأن الشعرانى كان أكبر من غرسوا هذه العقيدة فى البيئات المصرية ، وإليه يرجع الفضل فى توجيه الناس إلى ما فى الكرامات من حدائق الخيال !

والاعتقاد فى الكرامات عزاء كبير للفقراء : فهم يخلقون لأنفسهم دنيا من المجد الموهوم يعوضون بها ما ضاع عليهم من حظوظ الحياة . ومن المؤكد أن هذه الوساوس لا تسود إلا فى عصور الضعف السياسى والاقتصادى : حين تصبح الأمة وهى فارغة الأيدى من سلطان الجاه والمال . ومن ذلك رأينا المسلمين فى عصور قوتهم لا يعرفون غير الواقع ، مع أن الصلاح كان من أغلب الصفات عليهم ، ثم رأيناهم فى عصور الانحطاط يصدقون كل شيء ويلقون زمامهم إلى كل مخلوق ، عساهم ينسون ما هم فيه من شظف العيش ونكد الشقاء

٦ — والتصوف نفسه من مظاهر الضعف ، والرجل لا يتصوف إلا

حين ييأس ، لأنه بفطرته حيوان مفترس لا ينتظر المجهول من حظوظ النفس ، وإنما يصاول ويفتك ليظفر بحظوظ الأمراء والملوك

وقد جاء فى كليلة ودمنة أن ذا المروءة لا ينبغى له إلا إحدى اثنتين : أن يكون بين الملوك مكرماً ، أو بين النساك متبتلا . وهذه الكلمة هى الفيصل : فالرجل يطلب المنزلة العالية فى جميع الأحوال ، فان فاتته بين الملوك لم تفته بين النساك . ومعنى ذلك أن التعبد نفسه لا يخلو من كبرياء

وقد استطاع الصوفية بدهائهم المصقول وكبريائهم المكبوت أن يجعلوا كلمة الحرمان هى العليا : فما زالوا يغمزون أهل الدنيا ويلمزونهم ويسوئون سمعتهم ويرمونهم بالبهتان حتى صح عند السواد أن الفقراء هم الملوك حقاً ، وأن الملوك المتوجين لا يملكون غير « الدنيا » وهى متاع المفتونين !

والذى يراجع سير الأنبياء يرى الفقراء كانوا أسرع الناس إلى إجابة الدعوة « إن نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا » وانما كان ذلك لأن الأنبياء يعدون أتباعهم السلطان المطلق فى عالم السماء . والفقراء بفطرتهم الحيوانية يتشوفون إلى السيطرة ، فان فاتتهم هنا أدركوها هناك

٧ — وخلاصة القول أن الشعرانى وأصحابه وجدوا فى مصر تربة خصبة فأنبتوا فيها ما شاءوا من صنوف الخيال ، وكان شيوع الشعوذة الصوفيـة فى هذه البـلاد يسير جنباً لجنب مع ما اصطفاه نصارى مصر من النحلة الأرتودوكسية ، فان اصطفاء نصارى مصر للمذهب الأرتودوكسى لم يقع إلا بفضل ما هم عليه من الضعف : لأنه مذهب مشبع بالخرافات ، والخرافات هى السند لكل مخلوق ضعيف .

والذى يتأمل أحوال مصر فى العشرين سنة الماضية يؤكد صدق ما أقول فى أيام الحرب العالمية كان لمشايخ الطرق سلطان عظيم ، لأن الناس كانوا يئسوا من المجد السياسى ، فلما هبت الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ شغل الجمهور بشاغل جديد ، وانقطع الخلاف بين الشاذلية والخلوتية ، وحل محله الخلاف بين السعديين والوطنيين والدستوريين .

ولأمر مّا كان التصوف يسمى الفقر ، وكان الصوفية يسمون الفقراء

أترونني بهذا أغض من تلك النزعة الروحية ؟

هيهات ، وإنما أردها إلى أصل صحيح من ضمائر الناس

ألم تسمعوا أن أحد الرؤساء هدد مرءوسه فقال : إن لم تستقم أقمتك من غد فى الصف الأول ؟

والصف الأول هو صف المبكرين إلى الصلاة : صف من يسبقون الامام إلى رؤية المحراب !

ولا يعرف الناس لزوم المحاريب إلا بعد أن تخلو أيديهم من أدوات الحرب فى سبيل المجد أو فى سبيل المعاش .

مالى ولهذا الاستطراد ؟ يكفى أن أسجل أن القاهرة لم تمتلىء بالزوايا ولم يكن للشعرانى فيها حظ مرموق إلا لأن أهلها كانوا غُلبوا على أمورهم الدنيوية فمضوا يلتمسون الأسباب إلى فتح أبواب السماء .

وما كان الشعرانى بالأحمق ، وكيف وهو الذى أحصيت عليه أنه قال فى مؤلفاته أكثر من خمسين مرة :

« العاقل من عرف زمانه »

إى والله ، فقد عرف الرجل زمانه فساس أهله بما ينبغى أن يساسوا به فلم يمت الا وهو (القطب الربانى ، والمحقق الصمدانى) وذلك متاع ليس بالقليل .

٨ — أترانا نتجنى على الشعرانى حين نصفه بالترفق فى مداراة الناس ليظفر بالسمعة و بعد الصيت ؟

أنظر فى مقدمة « اليواقيت والجواهر » ومقدمة « البحر المورود » فان فعلت فستعرف أنه كان يحرص أشد الحرص على الظفر بالزعامة فى التصوف والدين : أى أنه كان يريد أن يكون مرضياً عنه من أهل الحقيقة وأنصار الشريعة ، وإلى هاتين الجهتين كانت ترجع أصول الصدارة بين الناس .

كان الشعرانى يؤلف الكتاب فى التصوف ثم يمضى إلى العلماء فيستكتبهم بالقبول ليصح له القول بأن كتبه ليس فيها ما يخالف الشرع ، وكان الناس يعرفون عنه ذلك فيعمدون إلى كتبه فيضيفون إليها زيادات تدخله فى الحظيرة الخطرة : حظيرة الصوفية المتفلسفين الذين يتطلعون إلى الخروج على المألوف من مقبول الآراء (١)

---

(١) كان الشعرانى شديد الحرص على حسن السمعة بين رجال الشريعة لتصح له السيادة الروحية والدينية . وفى نهاية كتاب البحر المورود شاهد لذلك فقد دون إجازات أربعة من أعلام عصره أحدهم حنبلى . وثانيهم حنفى . وثالثهم مالكى . ورابعهم شافعى : ليكون مرضيا عنه من الجميع .

٩ — ولكن مهلا — فهذا الرجل الذى نضيفه إلى أصحاب المطامع كان من نوادر الرجال فى كرم الأخلاق ، وفى كتبه صحائف تُكتب بماء الذهب ، ولو شئت لقلت بمداد من دماء القلوب ، فقد حدثنا هذا الرجل — وهو صادق — أنه كان يزجر من يراه من أصحابه يتجسس على عيوب الناس [١] وهذا أدب نبيل

وحدثنا — وهو صادق — أن من منن الله عليه كثرة ستره لعورات المسلمين الذين لم يتجاهروا بالمعاصى ، وأنه يرى ذلك من جملة الواجبات . وهو الذى يقول :

« إن من جملة سترنا للمسلم أن نغلق عليه بابه إذا رأيناه خارجاً وهو سكران ، ونأمر الأجنبية التى معه فى الخلوة المحرمة أن تنزل من حائط الجار إن خفنا أن أحداً ينظرها إذا خرجت من المحل الذى هى فيه . كل ذلك حتى لا يعلم أحد بعصيان ذلك الرجل . لا سيما إن كان جاراً لنا . وكم يترتب على كشف السوءات مفسدة . فاياك يا أخى أن تفشى سر أخيك المسلم ولو لأعز أصدقائك ، فانه يحكى ذلك لكل الناس إن كان ساذجاً ، وإن كان حاذقا فيحكى ذلك لبعض الناس ويأمرهم بالكتمان فيصير كل واحد يخبر صاحبه ويأمره بالكتمان حتى تمتلىء البلد [٢] وأحدهم يحسب أنه كتم مارأى والحال أنه هتك أخاه بين الناس [٣] »

ولا يكتفى بذلك ، بل يذكر أن من نعم الله عليه انشراح صدره

---

(١) لطائف المنن ج ٢ ص ٧

(٢) البلد فى كلام الشعرانى مؤنثة وهى لغة أهل المنوفية ، وقد ورد مذكرا فى القرآن

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ٢٠١

ومطاوعة نفسه فى محبة سترعدوه وكراهته لكشفها مع أن الغالب على الناس إظهار الشماتة بالعدو وإظهار عورته (١)

وهذا الأدب دعا إليه الشعرانى فى جميع مؤلفاته ، وهو يرى العصاة من أصحاب الجدود العوائر ، وينظر إليهم بعين العطف والاشفاق ، ويترفق فى هدايتهم إلى الله ، وهذا من أخلاق الأنبياء (٢)

والذى يلفت النظر فى هذا الموطن هو التغاضى عن عيوب الأعداء : لأنه يفرض قوة عظيمة فى ضبط النفس ، فهو من أخلاق الأقوياء من الرجال. وفى أصدقائى رجل ابتلاه الله بلؤم الحاقدين وامتحنه بكيد السفهاء ، ومع ذلك لا أذكر أن لسانه أو قلمه خاض فى عرض أحد ممن يتقولون عليه الأقاويل، وقد يتفق له فى أحيان كثيرة أن يحارب خصومه أعنف الحرب ، ولكنه لا يحاربهم إلا فى العلانية ، ولا يتعرض أبداً لمقاتلهم الأخلاقية . وانما يثير فى وجوههم الدخان فيتوهم من لا يعرف أنه يقذفهم بالنار ، مع أنه يصرف الناس عامداً عن دخائلهم الأثيمة ويشغل الجمهور عن مساويهم بأمور صغيرة هى الكلام عن العلم والجهل . وأعداء هذا الرجل يعرفون فيه ذلك الخلق ويفهمون أن زوال الجبل من مكانه أقرب إلى الامكان من خوض قلمه أو لسانه فى الأعراض . ولذلك يهجمون عليه مستبسلين . وهو لو شاء لزلزل بهم الأرض ولكن نعمة الله عليه فى هذا الأدب أحب اليه من قهر الأعداء .

١٠ — ومما يجب النص عليه من أحوال الشعرانى أنه كان يعتقد أن الخير فى مصر ينتهى بانتصاف القرن العاشر ، ثم تصبح دنيا المصريين مسبعة

(١) لطائف المنن ج ١ ص ٢٠٢

(٢) سترى بعد قليل شواهد أخرى من نبل الشعرانى فى معاملة الناس

لا أمن فيها ولا سلام . وانظر ما يقول فى البحر المورود [١] :

« أخذ علينا العهد أن لا نتصدر للشفاعة فى الناس عند الحكام إذا دخل النصف الثانى من القرن العاشر ، إلا إن كانت عندنا حال وتصريف فى الحكام بالولاية والعزل ، فان من لا كشف عنده ربما أغلظ على الحاكم فقال له الحاكم : إن كنت صالحا فانفحنى فلا يقدر على نفحه فيفتضح عند الحاكم . وسمعت سيدى عليا الخواص يقول :

« كان عند الحكام بقية خوف من الله تعالى يمتنعون به عن ظلم العباد فرفع الله ذلك خامس عشر صفر سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة . قال : وعن قريب يصير حاشية الحاكم يأخذون من الانسان الجعالة ولا يقضون له حاجة ويطلب فلوسه مثلا فلا يصل اليها ، والله غفور رحيم » .

والخواص الذى نقل الشعرانى عنه أن الحياء ذهب من الحكام فى الخامس عشر من صفر سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة هو نفسه الذى قال :

« كان قد بقى فى الناس بعض سترة لبعضهم بعضاً فرفع الله تعالى حكمها فى سنة سبع وأربعين وتسعمائة ومابقى أحد يقدر على كشف عورة أخيه ويسترها إلا قليل من الناس ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم [٢] » .

وقد طاف حول هذه المسألة فى كتاب آخر هو لواقح الأنوار ، فذكر مرة أنه لم يبق فى مصر من يصلح للأستاذية فى الطريق ، لأن الاشياخ فقدوا وكان آخرهم على المرصفى [٣] وذكر مرة ثانية أنه أدرك طريق الفقراء ولها

---

(١) ص ٢٧١ (٢) البحر المورود ص ٢٧٥

(٣) اللواقح ص ٢٠٤

حرمة عند الناس وعلى أصحابها الخير والهيبة فرفع الله تعالى ذلك بموت السادة : على المرصفى وعلى الخواص ومحمد الشناوى (١) .

ويظهر أن الشعرانى لم يكفه أن يذهب الخير من مصر بانتصاف القرن العاشر ، بل ترقى فى سوء الظن فحكم بأنه أخذ يذهب من الدنيا منذ انقضى الثلث الاول من القرن السادس ، وقال فى ذلك :

« أخذ علينا العهد العام من رسول الله أن لا نتمنى الموت إلا إن خفنا على أنفسنا من فتنة فى ديننا فى هذا الزمان الذى يرى الانسان دينه فى كل يوم ينقص عن اليوم الذى قبله ، وهذا الأمر قد وقع من حين انتهى كمال الدين وهو سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، كما رأيت ذلك فى لوح نزل من السماء فى واقعة فى المنام ، وقد أخذت الأمور كلها يا أخى فى النقص وصار دين المؤمن ينقص كل يوم عن الحال الذى قبله ، وصار يتصعب على الإنسان القبض على دينه كما يتصعب عليه القبض على جمرة فى كفه ليلا ونهاراً ، فكما ضعف عن دوام القبض على الجمرة كذلك ضعف عن دوام القبض على الدين على حد سواء ، فلا يموت الانسان يوم يموت إلا على أنقص الاحوال . وأول أخذ الدين فى النقص من سنة سبع وخمسمائة حين بلغ أهل العلم حدهم ، وأهل الطريق حدهم . هذا ما رأيته مكتوبا فى لوح تجاه مدرسة الشيخ ابراهيم المواهى الشاذلى بباب الخرق (٢) من مصر المحروسة ، وكان فى سلسلة فضة ، وقد أشار إلى ذلك الشيخ عبد العزيز الدرينى فى منظومته وكان فى سنة سبعين وخمسمائة يقول :

(١) اللواقح ص ٣٣٢

(٢) هو باب الخلق

وقد بدا النقص فى الاحوال أجمعها

وبدلت صفوة الأوقات بالكدر[١]

وهذه الفقرة تشهد بأنه رأى ذلك التاريخ مرتين ، مرة فى لوح نزل من السماء ، ومرة فى لوح مكتوب تجاه مدرسة بباب الخلق ، ومع ذلك نراه فى مكان آخر يحكم بأن الدين أخذ فى النقص فى منتصف القرن السابع[٢] ويقول :

« وقد مضى الائمة والعلماء والقوامون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأظلمت الدنيا لفقدهم ، وكانت أنفاسهم تحميهم من الظلمة حتى يقوموا بالمرتبة حين كان الدين فى زيادة ، فلما أخذ الدين فى النقص فى سنة ثلاث وخمسين وستمائة ضعفت قلوب العلماء وعجزت عن إزالة المنكرات لكثرتها ، وقلة من يساعد عليها ، وقلة الولاة الذين يسمعون للعلماء[٣] » .

وما ندرى كيف وقع الشعرانى فى هذه الورطة فأخذ يؤرخ نقص الدين ويضطرب فى التاريخ .

وما ندرى أيضاً كيف صح عنده أن الدين لم يلحقه نقص إلا فى القرن السادس ، أو السابع ، أو العاشر ، مع أنه هو نفسه روى أن سفيان الثورى كان يخرج إلى السوق فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فما مات حتى صار يرى المنكر فلا ينكره ، فقيل له فى ذلك فقال : كان قد انفتح فى الاسلام ثلمة فأردنا أن نسدها فانفتح فيه ذروة وانهدمت من أركانه أركان ، ثم صار

(١) اللواقح ص ٢٦٣

(٢) يحسن أن نقيد أن ما وقع فى القرن السادس أو السابع هو بداية النقص فى الدين ، أما رفع العدل والخير دفعة واحدة من قلوب الحكام والناس فقد وقع فى القرن العاشر . هذا هو تحرير كلام الشعرانى بغض النظر عما فيه من خطأ واضطراب

(٣) اللواقح ص ٣٤٤

يبول الدم من الحزن إلى أن مات [١]

ولسنا فى حاجة إلى النص على أن من عادة الناس أن يشكوا زمانهم وأن يترحموا على الأزمان السوالف ، وإنما المهم أن ننص على أن الشعرانى يفصل بين عهود الخير وعهود الشر بتاريخ محدود ، ويستند تارة إلى لوح نزل من السماء ، ويعتمد تارة أخرى على كلام الخواص .

ولهذه النظرة أثر فى أحكامه الأخلاقية : فهو من المتشائمين ، بل من اليائسين . والمصلح اليائس لا يرجى له نجاح .

١١ — على أن للشعرانى كلمات أخرى تمثل رأيه فى الطبيعة الانسانية وتصرفه عن الاعتماد على مثل ما توهم من رفع الخير من قلوب النـاس فى تاريخ محدود ، فقد اتفق له مرة أن يحكم بأن الخير هو الأصل وأن الشر عارض، ولم يحدد ذلك بزمان واتفق له مرة أخرى أن يحكم بأن «طينة الآدمية واحدة » وأن الجائز وقوعه من أفسق الفاسقين جائز وقوعه من أصلح الصالحين [٢] ولم يخرج عن هذه « الطينة » فى رأيه سوى الأنبياء لعصمتهم ، وبعض الـكمّل لحفظهم [٢] وتنتهى هاتان الفـكرتان إلى غاية واحدة هى أن الانسان صالح للخير وهو أصل ، وصالح للشر وهو عارض ، وأنه حين يصلح لا يصلح أبداً ، وحين يسوء لا يسوء أبداً . بل يجوز للفاسق أن يعمل ما يعمل الصالح ويجوز أن يقع الصالح فيما يقع فيه الفاسق .

ومعنى ذلك أن التسامى إلى الهداية ليس له زمان ، بل هو مطلوب فى كل زمان .

---

(١) اللواقح ص ٣٤٤

(٢) اللواقح ص ٢٤٨

١٢ — ويتصل بهذا رأيه فى الذات الانسانية ، فالانسان صنعة الله تعالى وصنعته كلها حسنة ، والقبيح انما هو عارض عرض من حيث الصفات لا الذوات ، وجميع ما أمرنا الله بمعاداته انما هو من حيث الصفات ، فلو أسلم اليهودى وحسن إسلامه أمرنا بمحبته فما زالت منه إلا صفة الكفر وذاته لم تتغير (١)

فالذات الانسانية حسنة فى جميع الأحوال من حيث هى ذات ، ولا تقبح إلا بقبح الصفات .

ولعله أخذ هذا المعنى من ابن عربى حين حكم بأن الطهارة من الحدث غير معقولة المعنى لأن الحدث وصف نفسى للعبد فكيف يمكن أن يتطهر الشىء من حقيقته ، فانه لو تطهر من حقيقته انتفت عينه ، واذا انتفت عينه فمن يكون مكلفاً بالعبادة (٢)

ولهذا الملحظ قيمة فى توجيه النظر الأخلاقى : فكل إنسان له قيمة ذاتية وإن أمعن فى الكفر والفسوق . وعلى رجال الأخلاق أن ينظروا إلى الملحدين والآثمين نظرة إشفاق لأنهم فى حقيقة الوجود جواهر علاها الصدأ فبدت كالمعدن الخسيس ، ولو أمكن جلاء تلك الجواهر لنصبت لها سوق فى عالم النفائس ، وتسابق اليها عشاق اللؤلؤ المكنون

١٣ — ويزيد فى قيمة هذه النظرة الخلقية أنها موصولة عنده بأدب آخر هو التفكير فى الاسناد والايجاد ، فمن الأدب الذى اختاره الشعرانى أن نضيف كل محمود فى الوجود إلى الله إسناداً وإيجاداً ، وأن نضيف كل

(١) لواقح الأنوار ص ٣٤٥ (٢) الفتوحات ج ١ ص ١٥٨

مذموم فى الوجود إلى النفس والشيطان إسناداً لا إيجاداً . وعلى ذلك ينزَّل قوله تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وإن كان الكل من عند الله ، وينزَّل قول الرسول (الخير كله بيديك والشر ليس إليك) أى لا يضاف إليك أدباً كما لا يقال (سبحان خالق الخنازير) وإن كان هو الخالق باجماع الناس فى جميع الديانات (١)

وهذه المسألة من المشكلات ، وقد عرض لها فى لواقح الأنوار بكلام متموج لا يحل ولا يربط (٢) إذ قال :

« أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ندفع غضبنا ونكظم غيظنا ، ونأمر بذلك جميع إخواننا ، واذا غضب أحدنا وهو قائم فليجلس ، فان ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع ، فان لم يزل فليتوضأ . ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ صادق يدخله إلى حضرة الرضا بكل واقع فى الوجود وبطريقه الشرعى فلا يبقى عنده شىء يغضبه لأنه حكيم عليم، وما ترك الناس يغضبون إلا حجابهم عن شهود أن الله هو الفاعل لكل ما برز فى الوجود وشهودهم الفعل من جنسهم ، فلذلك غضبوا على غضبهم ، ولو أنهم سلكوا الطريق لوجدوا الفعل لله تعالى ببادى الرأى فلم يجدوا من يرسلون عليه غضبهم ووجدوا كل شىء وقع فى الوجود هو عين الحكمة فذهب اعتراضهم .... فعلم أن الكامل لا يغضب لنفسه قط ، وانما يغضب إذا انتهكت حرمات الله تعالى . وكأن الحق يقول للكامل : إذا رأيت عملا برز على يد أحد من عبيدى مخالفاً لشريعة نبي فاغضب ، ولو

---

(١) أنظر البحر المورود ص ٢٧٢

(٢) آثرنا هذه العبارة البلدية لأن لها دلالة دقيقة فى هذا الموطن

شهدت أنى أنا الفاعل ، لكنى لا « آمرك أن تغضب على فعلى ، وانما آمرك أن تغضب على وجه نسبة الفعل إلى عبدى [1] »

وهذا كلام متهافت ، لأنه لا يعرف أحد كيف يفعل الله الفعل ثم يغضب ويأمرنا أن نغضب . وكيف يغضب أو نغضب وكل شىء وقع فى الوجود هو عين الحكمة والصواب ؟

إن الشعرانى هنا متهافت ، ولكن المهم أن نسجل أنه ينهى عن الغضب ويدعو إلى كظم الغيظ ، ويروض المريد على الرضا بكل واقع فى الوجود .

ومسألة « النسبة » مسألة هينة : لأننا لا نذنب حين نذنب إلا كما تفعل السيارة حين تدوس طفلا فى الطريق . فالسيارة هى التى قتلت على طريق النسبة ، والقاتل الحق هو السائق ، وهو وحده المسئول « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وما قتل السيف إذ قتل وانما قتل السياف .

١٤ — وهذا الاتجاه فى فهم الايجاد والاسناد جعل الشعرانى يترفق فى معاملة الفاسقين : فهو ينهى عن صحبتهم ولكنه يراها متعينة حين نقصد بها تمهيد بساط التوبة لهم ، كما عليه الدعاة إلى الله « فانهم لا يبعدون عن مستقيم ولا أعوج : فان المستقيم لا يجوز هجره ، والأعوج محتاج إلى من يقوّم عوجه وقد أغفل هذا الأمر خلق كثير من طلبة العلم فبعدوا عن خُلطة المعوجين من الظلمة فحرموا بركة هدايتهم ، ولو أنهم قربوا منهم مع العفة عما بأيديهم من الدنيا[2] وسارقوهم بالوعظ لربما أثرت فيهم مواعظهم[3] » .

---

(١) لواقح الأنوار ص ٢٠٦ وانظر أيضا ما كتبه عن الاسناد والايجاد فى لطائف المنن ج ٢ ص ١٦٩ — ١٧٦

(٢) تحفظ جميل (٣) اللواقح ص ٣٤٧

والشعرانى ينهى عن اغتياب الفساق ، ويرى أنه لا يجوز لك أن تستغيب فاسقا أو تؤذيه أو تشق عليه ، ويستأنس بحديث (لا غيبة فى فاسق) ويقول إن بعضهم قال فى تأويله « احفظوا لسانكم فى حقه ولا تغتابوه ، فجعل لفظ (لا) ناهية » [1] وهو يميل إلى قبول هذا التأويل .

وصرح فى البحر المورود أن العهد أخذ علينا أن نرفق بالمسيئين وأن نكون أرحم بهم من أنفسهم ، بحكم الارث لرسول الله الذى قال (ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء) وقد قالوا : من نظر إلى الخلق بعين الحقيقة رحمهم . ومن نظر اليهم بعين الشريعة مقتهم . ثم قال فى تفسير هذه الكلمة « وعين الحقيقة أن تشهد أن الحق تعالى مادام يخلق فيهم المعاصى لا يمكنهم الرجوع عن الوقوع فيها ، قال تعالى : (ثم تاب عليهم ليتوبوا) ، فاذا انتهى خلق المعصية فيهم تابوا لامحالة [2] »

وهذه المسألة لا تبعد كثيراً عن رأيه الذى عرضناه آنفا فى الاسناد والايجاد

١٥ — والشعرانى لا يبيح أن ندعو على من ظلمنا فلا نقول قط « اللهم من كادنا فكده ، ومن بغى علينا فخذه » ونحو ذلك ، والرأى عنده أن نرجع إلى نفوسنا فننظر السبب الذى تحكم فينا ذلك الظالم بسببه فنتوب منه ونستغفر ونرجع إلى الله ، فان لم تتيسر لنا توبة صبرنا واحتسبنا ، وقد دعا رسول الله على قريش بالهلاك فأنزل الله تعالى عليه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فاستحيا من الله ، وترك الدعاء عليهم وصار يدعو لهم بالهداية

وهنا يبلغ الشعرانى ذروة التصوف إذ يقول فى تلطف وترفق :

---

(١) اللواقح ص ٣٤٣ (٢) البحر المورود ص ٢٨٠

« واعلم يا أخى أن من شأن كل عارف أن يرى نفسه قد استحقت الخسف به لولا عفو الله ، وأن جميع ما يقع عليه من البلايا والمحن دون ما كان يستحق ، ويرى جميع الظلمة فى هذه الدار كزبانية جهنم ، إلا أنهم خالفوا الزبانية فى هذه الدار فى ظلمهم للعباد فى كونهم تحت النهى ، بخلاف الزبانية فانهم هناك تحت الأمر . ومعلوم عند كل عارف أن حكم الارادة لا مردَّ له ، لأنه لا يصح قط لأحد أن يخالف إرادة الله ، بخلاف أمره فيصح مخالفته لقوة سلطان الارادة فافهم [١] ومن هذا المشهد قلَّ تكدير العارفين لمن ظلمهم وآذاهم ، فان الظالم حكمه حكم السوط الذى يضرب به ، فالغيظ حقيقة إنما يكون من الضارب الظالم لا من السوط . فمن اغتاظ من السوط فهو محجوب عن تمام العقل [٢] »

ومعنى هذا أن ما يقع علينا من الظلم إنما هو تأديب من الله ، والظالمون هم أدوات التأديب ، ونحن حين نثور عليهم يكون مثلنا مثل من يثور على السوط الذى يضرب به ، والأولى أن يثور على حامل السوط . ولكن حامل السوط فى هذه المرة هو الله الذى لا يظلم أحداً من العالمين

١٦ — ويمضى الشعرانى فى الترفق فيذكر أن العهد أخذ علينا أن لا نطلق أبصارنا فى عيوب الناس ولا نسأل قط عن تحقيق ما سمعناه فى حقهم من التهم ، ونحفظ أسماعنا وأبصارنا عن مثل ذلك ، فمن شق جيب الناس شقوا جيوبه ، ومن كان عليه دين قديم قضاه لا محالة [٣] وهو يحرص على توكيد

---

(١) هل فهمت ؟ (٢) البحر المورود ص ٢٧٩
(٣) لواقع الأنوار ص ٣٤٥

هذا الأدب الجميل، وينقل أن الحسن البصرى كان يقول: والله لقد أدركنا قوما كانت عيوبهم مستورة فبحثوا عن عيوب النـاس فأظهر الله عيوبهم ، ورأينـا أقواماً ليس لهم عيوب فبحثوا عن عيوب الناس فأحدث الله لهم عيوبا

ولا يقف الشعرانى عند هذا الحد من أدب النفس ، بل يرى من حسن الخلق أن تغفر لمن آذاك من الناس (١) ويوصى بأن يكون الانسان نفاعا لمن يذمونه ويقعون فى عرضه ممن لا يعرفون أدب الرجال(١) ويرجو أن نعوِّد أنفسنا طلاقة الوجه لكل مسلم من عدو وصديق (٢)

١٧ — ولا يكفى عنده أن نترفق بالمسلمين وحدهم فان الترفق واجب فى معاملة جميع الناس، ويقول فى ذلك :

« وكثيراً ما كاتبت اليهود والنصارى أصحاب المكوس فى تخفيف المظالم عن المسلمين (٣) وأقول فى كتابى لهم : أسأل الله للمعلم فلان أن يرضى عنه ويدخله الجنة مع الصديقين والشهداء والصالحين ، وأضمر له سؤال التوبة من الكفر ليصح دخوله الجنة ، وربما أنكر ذلك من لا علم له بطرق السياسة فانى أعلم أنى لو قلت له : أسأل الله للمعلم فلان أن يتوفاه على الإسلام لنفر خاطره منى ولم يقبل شفاعتى ، كما ينفر المسلم من قول أحـد له : أسأل الله أن يميت البعيد على غير الإسلام . قال تعالى (وكذلك زينا لكل أمة عملهم) فاعرف يا أخى طرق السياسة ، وعود نفسك طيب

---

(١) لواقح الأنوار ص ٢٠٠

(٢) ص ٢٠٢

(٣) هذه الفقرة تشهد بأن موظفى المكوس كانو فى ذلك العهد من النصارى واليهود

الكلام ، فانه أحسن سواء كان المخاطب صالحاً أو طالحاً والله عليم حكيم(١) »

وما نحب أن تفوت هذه المناسبة بدون أن نقيد أن الشعرانى يذكر فى مواطن مختلفة أن كثيراً من اليهود أسلموا على يديه بفضل الرفق و(الكلام الحلو) على حد تعبيره . واليهود فى كلامه هم مثال الكفر الموبق وهو يضرب بهم المثل حين يتكلم عن أهل الزيغ ، وهذا يدل على أن يهود مصر لعهده لم تكن لهم منزلة اجتماعية (٢)

١٨ — ولم يفت الشعرانى أن يضع للمريد دستوراً يسير عليه فى معاملة الفرق الإسلامية ، وعنده أنه لا ينبغى التجرد للرد على أمثال المعتزلة والجبرية إلا إن عارض كلامهم نصاً قاطعاً أو إجماعاً عاماً « لأن دين الإسلام يشملهم ويعمهم » لانبساط شعاع نوره على قلوب جميع المسلمين . والخطأ من كل وجه لا يكون إلا للكفار ، فاذا سمعنا الجبرى مثلا يقول (لا فعل إلا لله) لا يجوز لنا الانكار عليه بمجرد هذا القول وانما ننكر عليه قوله بعدم إسناد الأفعال إلى العباد فقط لكون الحق تعالى أضاف أفعاله إليهم فمن نفى إسنادها فقد أخطأ لقصور نظره . وإذا سمعنا المعتزلى يقول (الفعل للعبد) لا ننكر ذلك بل بعدم إضافتها إلى الله جملة واحدة ، فكل من الجبرى والمعتزلى مخطىء من وجه ، والكامل من نظر بعين الحقيقة وبعين الشريعة فرأى الفعل

---

(١) اللواقح ص ٢٠٢ (٢) جاء فى ص ٧٦ من لواقح الأنوار أن أحد الصالحين طلب منه الدعاء فقال : لا تعد من فضلك تقول لى ذلك تؤذينى فانى والله لما قلت لى أدع لى رأيت نفسى كيهودى قال له شيخ الاسلام أدع لى . فجعل اليهودى مثلا فى الكفر مع أنه من أهل التوحيد ، ولم يضرب المثل بالنصرانى وهو من أهل التثليث لأن النصارى كانت لهم منزلة اجتماعية وكانت لهم مصالح ظاهرة فى هذه البلاد . والمال يرفع أصحابه وإن لم يكونوا مؤمنين

لله إيجاداً وللعبد إسناداً .. وقس على الجبرية والمعتزلة غيرهما من الفرق الاسلامية (١)

وهذه اللفتة تدل على اهتمام الشعرانى بتصفية البيئة الإسلامية وحمايتها من الجدل المؤذى الذى يفسد ما بين الناس من صلات الاخاء

١٩ — والشعرانى ينصح بمداراة الحكام ويقول « أخذ علينا العهد بأن نأمر إخواننا أن يدوروا مع الزمان وأهله كيف داروا ، ولا يزدرون قط من رفعه الله عليهم ولو فى أمور الدنيا وولايتها ، كل ذلك أدباً مع الله عز وجل الذى رفعهم : فانه ما يرفع أحداً إلا لحكمة . ثم أى فائدة لازدرائهم من ارتفع عليهم ، مع أن أحداً لا يسمع لهم ؟ وهذا العهد قل من يعمل به من الناس فيقولون عن المحتسب أوالوزير أو غيرهما : من أين لهؤلاء السفل الضخامة علينا ونحن نعرف آباءهم ، وفلان كان أبوه زبالا ، وفلان كان أبوه نوتيا ، وفلان كان أبوه فلاحا . ونحو ذلك من الهذيانات . ومن أقام هذا الميزان اليوم على الناس حرم بركة أهل زمانه (٢) »

وظاهر من هذا الكلام أن المصريين الذين عرفهم الشعرانى فى القرن العاشر كانوا كالمصريين الذين نعرفهم اليوم فى القرن الرابع عشر : فالنوتية عمل حقير ، والفلاحة عمل حقير ، والمرء لايصح له أن يكون وزيراً إلا إن كان من بيت له ماض فى ولاية أمور الناس

والمهم هو أن نسجل هذه النظرة الخلقية : فالذى يعادى الحكام ويفكر فى لمزهم وغمزهم هو رجل حرم بركة أهل زمانه . وهذا الرأى حق وصدق

---

(١) البحر المورود ص ٢٩١ (٢) ص ٢٩٢

فالحكام يملكون ما لا نملك ، وبيدهم تصريف الأمور . والطعن فى آبائهم وأجدادهم هذر سخيف لا يحسنه غير السخفاء

وهذا الأدب له غور أعمق من ذلك : لأن انتقاص الحكام يزعزع الوحدة القومية ، ويقسم الأمة إلى شطرين : رعية حاقدة ، وحكام مبغوضين . وسلامة الأمة لا تكون إلا بالألفة بين الحاكمين والمحكومين

والشعرانى يكرر هذا المعنى كلما لاحت فرصة . ومن رأيه أنه ينبغى لنا إذا اجتمعنا بسلطان أو أمير أو كبير فى قومه أن نسأله أن يدعو لنا . ولو كان غير صالح ، فان الله تعالى يستحى أن يرد دعاء هؤلاء الأكابر بين قومهم ورعيتهم ويخجلهم . ويضرب المثل بما وقع لفرعون حين طلب منه قومه أن يطلع لهم نيل مصر لما توقف ، فانه قال : يا رب لا تخجلنى بين عبادك فأجابه . ثم يقول الشعرانى :

« وهذا سر قلّ من يتنبه له من الناس . . . ولما طلعت للباشا داود نائب مصر فى هذا الزمان فى قضية أوجبت ذلك فى سنة خمس وأربعين وتسعمائة سألته الدعاء بأمور كانت متوقفة علىَّ شهوراً فنزلت من القلعة فوجدتها كلها قد قضيت ، فاعلم ذلك واعمل عليه [1] »

٢٠ — والظاهر أن الشعرانى كان رجلا أزرق الناب ، فانه قدر فى كظم الغيظ على ما لم يقدر عليه أحد من الصوفية ، هو رجل سياسى حنكته الأيام فاصطنع المجاملة والمداراة . وذلك أدب لا يعاب ، ولكن لا يمكن القول بان مقامه يساوى مقام المخاطرين من أرباب الشجاعة الأدبية الذين أسمعوا

(١) البحر المورود (ص ٢٩٣)

كبار الخلفاء ما لا يحبون

إن أدب الشعرانى فى هذه الشؤون أدب عيسوى ، فهو لا يبعد كثيراً عن أدب المسيح إذ قال : دعوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله

فالمريد الذى يؤدبه الشعرانى هو رجل يقبل كل شىء : ليس له أن يثور على الحكام وإن كانوا ظلمة . لأن الله لا يرفع أحداً إلا لحكمة ، وقد يكون الحاكم الظالم سوطاً سلطه الله على المذنبين !

المريد الذى يؤدبه الشعرانى رجل ترابىّ ، هو كأكثر من نعرف من أهل هذا العصر ، ففى الناس من يؤيدون كل حكومة ، ويسيرون فى كل ركاب ، ويكادون يقولون حين يسمعون كلام أى وزير : صدق الله العظيم !

وهذا أدب جميل إذا قيس بما فيه من سلامة العواقب ، وبما يجلب من الحظوظ الدنيوية . ولكنه أدب منحط إذا تذكرنا أن من واجب أهل الرأى أن يقفوا وقفة الآساد فى وجوه الظالمين

وعذر الشعرانى يبدو مقبولاً ، لأن الواعظين لا يُسمع لهم حين يقاومون الحكام ، وفاته أن الرأى العام يتكون من تلك الكلمات الصغيرة التى ينقلها المنكرون من مكان إلى مكان ، وأعنف الحكام وأصلبهم لا يقدر على الوقوف فى وجوه الناس حين يغضبون ، وهل تقدر وأنت سيد على تذمر الخدم فى بيتك ! إن الذين يصانعون الحكام الظالمين باسم السياسة وتدبر العواقب هم قوم جبناء يسترون جبنهم بتصنع الحكمة وبعد النظر ومرونة العقل ، وهذه الشمائل المصقولة لا تنبت إلا فى قلوب الضعفاء

وقد صرح الشعرانى عن جبنه [١] حين قال :

« أخذ علينا العهد أن لا نتصدر لازالة منكرات الولاة إلا إن كان معنا تصريف فيهم ، وإلا آذونا ونفونا من بلادنا وأحوجونا إلى الاستخفاء زمانا طويلا [٢] »

ومعنى هذا أن إزالة منكرات الولاة لا تكون إلا عند ضمان السلامة . والسلامة مطلب وضيع فى نظر كبار الرجال

٢١ — ننتقل من هذا إلى رأيه فى تربية المريد من الوجهة العقلية : وهو ينهاه عن قراءة كتب التصوف والتوحيد المطلق . فلا يقرأ كتب ابن عربى أو غيره من غلاة الصوفية « وذلك لعدم الفائدة وشدة الانكار على من تفوه بما ذكروه فيها مما يخالف عقول غالب الناس ؛ وما كل ما يعلم يقال . وربما فهموا منها أموراً تخالف صريح السنة فيموتون على اعتقادها فيخسرون مع الخاسرين . وما رأينا قط مريداً بلغ مبلغ الرجال بمطالعة كتاب [٣] »

ولا ينافى هذا ما جاء فى مقدمة اليواقيت والجواهر من الدعوة إلى قراءة كتب ابن عربى فانه هناك احترس حين أقنع المريد بأن ما جاء فى كتب ابن عربى مخالفاً للشرع إنما هو من وضع الدساسين

---

(١) كلمة « جبن » لا تنطبق تماما على حال الشعرانى ، فقد تبين لنا أنه كان يصانع الحكام سياسة ، لأنه كان ارتبط مع حكام عصره بكثير من الصلات ، وقد زاد ذلك فى جاهه فكان أكثر الناس لا يصلون الى الوظيفة إلا عن طريقه ، وكان الحكام يزورونه فى زاويته فيلقاهم بالترحيب ويخلو بهم خلوات خاصة يدبر فيها معهم ما يشاء ، وهذا هو السر فى أنه كان ينهى عن مقاومة الحكام ويسأل الله مع فقرائه أن يرفع عنهم « الحملات »

(٢) البحر المورود ص ٢٧١

(٣) البحر المورود ص٢٧٤ و أنظر أيضا لطائف المنن ج ١ ص ٢٤٢

ونخلص من هذا إلى أن التصوف عنده يجب أن يقيد بالشرع وأن المريد يجب عليه أن يحترس من مزالق العقول

٢٢ — ونهيه عن قراءة كتب التصوف لم يمنعه من أن يملأ كتبه بأقوال الصوفية فى الرمزيات ، فقد نقل كلمة أبى الحسن الشاذلى فى تفسير آية (وما تلك بيمينك يا موسى) على الطريقة الصوفية :

« يقال للولى : وما تلك بيمينك أيها الولى ؟ فيقول : هى دنياى أنفق منها على نفسى وأهلى وإخوانى ، فيقال له : ألقها ، فيلقيها فيجدها حية تسعى فى هلاك قابضها فيأخذ حذره منها ، فاذا حذر منها يقال له : خذها ولا تخف . فكما ألقاها أولاً بإذن حال بدايته فكذلك أخذها بإذن حال نهايته (١) »

والواقع أن الشعرانى سلك مسالك الصوفية فى أكثر مؤلفاته ، فتجوز فى الألفاظ والمعانى ، ودخل إلى قلوب القراء بأساليب لا تخلو من فتون ، ولكن الخطر عند الشعرانى يخالف الخطر عند ابن عربى . فالذى يؤمن بكل ما أشار به الشعرانى يخرج وهو مخبول ، والذى يؤمن بكل ما أشار به ابن عربى يخرج وهو زنديق ، والفرق بعيد بين الزندقة وبين الخبال

فسذاجة الشعرانى هى أصل ما يقع فيه من انحراف ، ومكر ابن عربى هو أصل ما يقع فيه من ضلال

٢٣ — بقيت مسألة يجب النص عليها : وهى أن الشعرانى لا يكاد يعرف غير البيئة المصرية ، فهو يضع الآداب لمواطنيه من أهل مصر ولا يفكر فيمن

---

(١) اللواقح ص ٣٥٥

عداهم من المسلمين ، وهو حين يتحدث عن نقص الدين أو رفع الرأفة من قلوب الناس لا يعنى أحداً غير المصريين ، وقد مضت النصوص التى تعين هذا المعنى ، ويؤيدها قوله فى البحر المورود :

« أخذ علينا العهد إذا كان لنا جار ساكن على الخليج أيام قطعه ، أو نزح الخرارات منه ، وعلمنا عجزه عن نزح ما تحت بيته إما لفقر أو بخل أن نوهم جماعة الوالى أن تلك الخرارات نشأت من بيتنا دون بيته ، ثم ننزحها نيابة عن جارنا ، ولا ندع جماعة الوالى يرعبوه مع قدرتنا على ذلك ، ولا سيما إن كان عنده ضعيف أو نفساء أو فرح أو غرماء يطالبونه وهو عاجز عن الوفاء ومستخف بالبيت . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه (١) »

وهذا النص يدل دلالة قاطعة على أن الضمير « نا » فى قوله (أخذ علينا العهد) يراد به الصوفية المصريون : فآداب الشعرانى هى آداب محلية أوحاها ظرف المكان

والأصل فى كل دعوة أدبية أو اجتماعية أو دينية أن تصطبغ بالموطن الذى نشأت فيه ، وكذلك يجب أن تغلب الألوان المحلية فى كل أثر أدبى أو اجتماعى أو دينى ، ولكننا لا نجد هذا الشرط يتحقق عند أى مؤلف على نحو ما تحقق عند الشعرانى : فالبيئة المصرية تطل من كل سطر بل من كل حرف . وهو فى اتجاهاته الذهنية ، وأخيلته الأدبية ، مصرىٌّ صميم عرف أخلاق الفلاحين ، وأخلاق أهل القاهرة التى يسميها « مصر المحروسة » . ومعرفته

---

(١) اللواقح ص ٢٨٣ و ٢٨٤

لأهل مصر فى مسالكهم الخلقية والمعاشية يعطى كتبه منزلة عظيمة هى تأريخ المجتمع المصرى فى ذلك الحين

وقد شرحنا ذلك بالتفصيل فى القسم الأول من هذا الكتاب فليرجع إليه القارىء هناك (١)

٢٤ — وفى ختام هذا الفصل ينبغى أن ننص على أن مصادر الشعرانى فى كتبه الأخلاقية ترجع إلى أصلين : الأول كتب الفقه والتصوف والحديث ، والثانى ما تلقاه شفوياً عن أشياخه فى الطريق ، وهنا نذكر بالذات عليًّا الخواص وكان من مشاهير الأولياء وله ضريح يزار بالحسينية ، فقد أكثر الشعرانى من نقل أقواله والاستشهاد بآرائه فى كثير من الشؤون

وإذا صدق الشعرانى فيما نقل عنه — وهو عندنا صادق — فان الخوّاص يعدُّ بما نقل عنه من أئمة التصوف ورجال الأخلاق ومن أعيان مصر فى القرن العاشر، وإذا كان الخواص لم يترك شيئا يستحق الذكر من المؤلفات فان الشعرانى صنع معه ما صنع أفلاطون مع سقراط

ما هذا ؟ أيصح فى الأذهان أن يقرن اسم الشعرانى إلى اسم أفلاطون واسم الخواص إلى اسم سقراط ؟

وهل يقدم هذا الكلام إلى الجامعة المصرية ؟

---

(١) يجب أن نذكر بهذه المناسبة أن الشعرانى يأخذ مدده دائما من العلماء المصريين فيجعلهم دائما فى صدر الكلام ولا يذكر مصادره من القرآن والحديث وكلام المتقدمين إلا بعد أن يستوفى ما يهمه من النقول عن العلماء المصريين ، وهو فى هذا قليل الأمثال ، فالباحثون يبدأون بكلام المتقدمين ، وهو من بينهم يبدأ بكلام من عاصروه ثم ينتقل الى الاستئناس بكلام القدماء .

إى والله ! هذا من موجبات العجب ، ولـكنه حق : فان شطحات الشعرانى وحدها تضعه فى الصف الأول بين رجال الخيال ، وإحاطاته بالعلوم الإسلامية والعربية وصدق رأيه فى معرفة أهل زمانه تضيفه إلى صفوف العلماء والحكماء . ولا أنكر أن له أحيانا جرأة تثير النفوس ولكن مجموعة ما ألف هذا الرجل تشهد بأنه كان من العظماء ، وليس من الحتم أن يكون جرهر علمه من جوهر العلم الذى أذاعه أفلاطون ، فان الفرق بين العقلين عظيم ، ولـكن مجهود الشعرانى فى نشر الثقافة الشرعية والصوفية لا يقل خطراً عن مجهود أفلاطون فى نشر ثقافة اليونان

إننا ننظر إلى الشعرانى بعيون جلتها حقائق العلم الحديث . ومن أجل ذلك ننكره ونقسو عليه ، ولو أننا تمثلنا العصر الذى نشأ فيه ، ونظرنا فيما ترك من المصنفات وما سطر من أخبار الحقائق والأضاليل ، وتذكرنا ما رعى من الفقراء وما هدى من الطلاب ، وما تسامى إليه حين تطلع إلى أسرار الوجود ، لو نظرنا هذه النظرة لأحسسنا بتيـــارات من العطف تجرف ما أخذنا عليه من الوساوس والهفوات

وأما الخوّاص فماذا نقول فيه ؟

ليمرَّ من شاء بشارع الحسينية ، فان فعل فسيرى ضريحا لا يعرفه غير العوام ، وهم لا يذكرون إلا أنه كان رجلا صالحاً يعيش من جدل الخوص فهل فى الناس اليوم من يعرف أن هذا الرجل المجهول هو الذى قال :

« من أراد أن يعرف مرتبته فى العلم الذى يزعم أنه من أهله فليردَّ كل قول إلى قائله ، وكل علم إلى عالمه ، وكل شىء استفاده من أمر دنياه وآخرته

إلى من استفاده منه ، وينظر نفسه بعد ذلك[١] ،

أترون عمق الفكر فى هذا الكلام البسيط ؟

إن الخواص الذى عرفناه فى كتب الشعرانى لا يقل عظمة عن سقراط الذى عرفناه فى كتب أفلاطون . والفرق بين الرجلين أن سقراط أولع بمخاطبة العقول ، والخواص أغرم بمخاطبة القلوب . والعقل أبقى من القلب وله فى كل زمان أنصار وأشياع

إن أفلاطون عاش لأنه وقف عند حدود الأرض . ومات الشعرانى لأنه تطلع إلى السماء . عاش أفلاطون لأنه تحدث عن شؤون يفهمها الأصحاء ومات الشعرانى لأنه خاض فى شؤون لا يدركها غير من انقطع عن دنياه . والانقطاع عن الدنيا من أعراض الموت . ولكن من ينكر أن رأى المحتضر قد يكون أصدق رأى ، وحديثه أبلغ حديث ؟

وهل من القليل أن تعيش شطحات الشعرانى أربعة قرون ؟

ذلك ضرب من الحياة لو تعلمون

---

(١) انظر لطائف المنن ج ١ ص ٢٦١

المهلكات والمنجيات

تحديد الشخصية الخلقية — مزايا النظرة الصوفية — آفات الشبع وفوائد الجوع — هل نعان حين نبتلى بالشهوات — رذائل المرائين — شهوة الفرج — آداب الزواج — مدافعة الشهوات — آفات اللسان — آفات الأقلام — مزايا الصمت — حقارة الفضول آفة المراء والجدال — قبح الخصومة — صيانة اللسان عن الفحش واللعن — خطر المزاح — النهى عن السخرية والاستهزاء — شناعة الكذب — مآثم الاغتياب — قبح النميمة والسعاية — كلمة ختامية فى الفرق بين الصوفية وبين غيرهم من رجال الأخلاق

١ — طال الطواف بآراء الصوفية فى الأخلاق، ورأينا ألواناً مختلفات من مذاهبهم فى العيش ومناحيهم فى السلوك، ولكن الشخصية الخُلقيّة للصوفى الحق لاتزال خافية بعض الخفاء، وأخشى أن نكون أطلنا فى بيان النواحى الفلسفية من التصوف، وأخشى أيضاً أن نكون أسرفنا فى نقد المذاهب الصوفية إسرافاً يضلل القارىء ويصرفه عن تنوُّر ما فى الشخصية الصوفية من سماحة وصفاء.

ولكن ما اصطنعناه من العنف فى نقد المذاهب الصوفية، وما آثرنا من التعمق فى عرض التصوف من الناحية الفلسفية، كان أمراً يوجبه البحث كل الوجوب، لأن هذا الكتاب لم يؤلف لشرح التصوف، ولا لتأريخ التصوف، وإنما ألف لغاية صريحة: هى بيان تأثير التصوف فى الأدب والأخلاق، وقد وصلنا من ذلك إلى بعض ما نريد

ثم نظرنا فرأينا منهج البحث يسمح بتصوير الشخصية الخلقية للصوفى الحق، ونريد الناحية العملية فى حياة المريد، الناحية التى تصوّر ما يخاف وما يرجو فى حياة الأخلاق.

٢ — قد يقال : وما الفرق بين الصوفى وبين غيره من أرباب السلوك السليم إذا غضضنا النظر عن الناحية الفلسفية ؟

ونجيب بأن الناحية الفلسفية هى فى الأصل عمـــاد الناحية العملية ، فالصوفى يتفلسف فى جميع أعماله ولا يتقدم ولا يتأخر إلا بموازين .

وللصوفى ميزة ليست لسواه من رجال الأخلاق فهو « يحسّ » المواعظ و « يذوق » الأمثال ، والحكمة على لسان الصوفى متوقدة ملتهبة تأخذ وقودها من الضمائر والقلوب .

وهناك ميزة ثانية هى الإلحاح ، الإلحاح ، ولو شئت لكررتها ألف مرة ، فالصوفى يحب أن ينقل جميع ما أثر من أقوال الأنبياء والحكماء والصالحين فى تأكيد المعنى الذى يدعو إليه ، وربما كان الصوفية هم الذين تفردوا بالاطناب فى شرح أدواء النفوس ، وأمراض القلوب ، وبكوا على مصاير العاصين والغافلين أحر البكاء

وهناك ميزة ثالثة هى شعور الصوفى بأثقال الأوزار والذنوب ، فهو رجل تواب أواب لا يذنب حين يذنب الا وهو فى غـــاية من الخجل والاستحياء .

وهناك ميزة رابعة هى الايمان ، فالصوفى وإن تفلسف لا يعتقد أن الأخلاق وسيلة نفعية تُطلب للمعاش وحسن الصلات مع الناس ، وإنما يعتقد أن الأخلاق صلة بينه وبين الله ، ولله صورة جميلة فى أنفس المخلصين من أهل التصوف ، وهم يحبونه كل الحب ، ويستحيونه كل الاستحياء ، وهم من أجل ذلك لا يبالون الشرائع ولا القوانين ، وإنما يفكرون فى صلاتهم الحقيقية بذلك المحبوب المعبود .

وما أنكر أن الصوفية قد يصلون الى الوسوسة الخلقية فى أكثر الأحيان ، ولكن عذرهم فى ذلك مقبول . فهم يتسامون الى الظفر بالرضوان عند محبوب لا تناله الأوهام ولا الظنون ، ورضوانه غرضٌ عزيز المنال

٣ — ولنفصل شمائل الصوفى من الناحية الخلقية فنقول

يخاف الصوفى شهوة الطعام والشراب ، وهو على حق ، فكل الرذائل تصدر عن الطعام والشراب ، وما أمِنَ إنسانٌ غوائل ما يأكل وما يشرب الا انقلبَ الى مخلوق سفيه ممقوت

وهل ذل مَن ذل وضاع مَن ضـــاع إلا بسبب الحرص على الطعام أو الشرب ؟

والصوفى لا يجزع حين يجوع ، وإنما يلتفت الى نفسه فيقول : أى شىء تخافين؟ أتخافين أن تجوعى ؟ لا تخافى ذلك ، أنت أهون على الله من ذلك ، إنما يجوع محمد وأصحابه (١)

أو يقول : إلهى أجعتنى وأعريتنى ، وفى ظُلَـم الليالى بلا مصباح أجلستنى ، فبأى وسيلة بلغتنى ما بلغتنى(١)

أو يقول : إلهى ، ابتليتنى بالمرض والجوع ، وكذلك تفعل بأوليائك ، فبأى عمل أؤدى شكر ما أنعمت به علىّ (١)

الصوفى يرى الشبع من المهلكات ويرى فى الجوع فوائد :

الأولى — صفاء القلب ، وإيقاد القريحة ، ونفاذ البصيرة ، فان الشبع

(١) الاحياء ج ٣ ص ٨٨

يورث البلادة ، ويعمى القلب ، ويكثر البخار على الدماغ .

الثانية — رقة القلب وصفاؤه ليتهيأ لادراك لذة المناجاة

الثالثة — الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذى هو الطغيان والغفلة عن الله

الرابعة — أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء

الخامسة — كسر شهوة المعاصى والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء

السادسة — دفع النوم وسهولة السهر

السابعة — تيسير المواظبة على العبادة ، فان الاهتمام بالأكل قد يضيع على العابد أطيب الأوقات

الثامنة — صحة البدن ودفع الأمراض

التاسعة — خفة المؤونة ، فان من تعود قلة الأكل كفاه اليسير من المال

العاشرة — التمكن من الايثار والصدقة بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين (١)

وللصوفية كلام كثير فى النهى عن الشبع والتشويق إلى الجوع ، وقد نقدنا هذه النظرة حين تكلمنا على آداب الطعام ، ولكن لا مفرّ من الاعتراف بأن لإيثار الجوع مزية أساسيّة هى الخلاص من شهوة البطن والسلامة من أمراض الأبدان والأخلاق ، فأخطر الأمراض الجسمانية مصدرها الأكل ، وأخطر الأمراض الأخلاقية مصدرها الأكل ، ولا تسهل

---

(١) انظر تعليل هذه الفوائد فى الاحياء ج ٣ ص ٩٠ — ٩٤

المعاصى إلا على من يسرفون فى الطعام والشراب

٤ — ولم يفت الصوفية أن ينصوا على أن الجوع قد يتطرق إليه الرياء، كأن يأكل الرجل فى الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة ، وهذا هو الشرك الخفى (١)

ومن رأيهم أن حق العبد إذا ابتُلى بشهوات وأحبها أن يظهرها ، وهذا عندهم صدق الحال ، فان إخفاء النقص وإظهار ضده من الكمال هو نقصان متضاعفان ، والكذب مع الإخفاء كذبان ، فيكون مستحقاً لمقتين ، ولا يرضى عنه إلا بتوبتين صادقتين ، ولذلك شدد الله أمر المنافقين فقال : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، لأن الكافر كفر وأظهر، والمنافق كفر وستر ، فكان ستره لكفره كفراً آخر ، لأنه استخف بنظر الله إلى قلبه وعظّم نظر المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهره ، والعارفون يُبتَلون بالشهوات بل بالمعاصى ولا يُبتَلون بالرياء والغش والإخفاء

ذلك كلام الغزالى فى الاحياء (١) وهو كلام نفيس ، وهو يصور صدق الشخصية الخلقية أجمل تصوير ، فالصوفى الحق قد يقع فى المعصية ، ولكنه لا يرائى ولا ينافق ، لأنه يختار بين حالين : الاستخفاف بنظر الناس والاستخفاف بنظر الله

الصوفى يرى الناس أحقر من أن يتهيبهم ويتقى لغوهم وفضولهم وسفاهتهم ، ويرى الحياء لا يكون إلا من الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور

---

(١) ج ٣ ص ١٠٥

الصوفى يؤذيه أن يكون كبعض الأراذل الذين يستبيحون جميع المنكرات فى الخفاء ، ثم يلقون الناس بوجوه الصالحين الزاهدين المتبتلين وما عرفوا الصلاح ولا الزهد ولا التبتل ، وإنما هم لصوص سفلة يسرقون السمعة الحسنة من المجتمع المغفل الذى يعيش عيش القرود فلا يصدق غير ما ترى عيناه المفتوحتان بلا وعى ولا إحساس

الصوفى يؤذيه أن يُعرف بالصدق حين يكون من الصادقين ، لأن فى الشهرة بالصدق فتنة تجره إلى الرياء

والصوفى لا يستهويه أن يرى المنافقين والمخادعين فى نجاح ورفاهية ونعيم ، لأنه يعرف أن حظوظهم فى دنياهم ليست إلا حراما فى حرام ، ولا فرق بين انتهاب السمعة وانتهاب المال ، وإن خفى ذلك على الغافلين

ومن المنافقين من لا يكفيه أن يستر الله عورته الخفية فيجره الشره فى انتهاب السمعة الحسنة إلى الوقوع فى أعراض الناس ليصح عند الجمهور المغفل أنه من أهل الغيرة على الأخلاق ، وبهذه الأساليب تسير بين الجماهير أباطيل وأضاليل تنصب لها موازين فيشقى بها ناس ويسعد ناس

الصوفى يقف موقف المتفرج على الضلالات الاجتماعية ، ويرى الرذيلة المكشوفة أهون من الرذيلة المستورة ، لأن الرذيلة المكشوفة تعصم صاحبها من موبقات كثيرة أهونها الصلاح المزيف ، والأدب المكذوب

أما الرذيلة المستورة فتخلق لصاحبها موبقات مهلكة ماحقة أيسرها الشعور بأن الكذب على الله وعلىّ الناس أمر تجيزه العقول ، عقول السفلة المهتوكين أمام الله والمستورين أمام الناس

وقد بدا لأهل أمريكا منذ أعوام أن يحرموا شرب الخمر فوقعوا فى خطر ماحق هو الرياء والنفاق ، واشتبهت المسالك فى تمييز الفاضل من المفضول ، ولو أصرت أمريكا على هذه النزعة « الاعلانية » لفقدت ميزتها الأصيلة وهى صراحة القلوب والأعمال

والأمم التى تحرص على سلامة الظواهر هى الأمم المهددة بالاستعباد والزوال

وشاهد ذلك يؤخذ من حياة الشعوب فى هذه الأيام ، فالأمم التى تُكثر من الكلام على التحليل والتحريم هى الأمم التى تعانى آلام الاستعباد ، لأن انشغالها بالنفاق والرياء والخداع لم يترك لها من فراغ البال ماتستعدُّ به لمقاومة المكاره والخطوب. ولا كذلك الأمم التى جعلت حسابها مع الله لا مع الناس

وحسب المرء من السفالة والضعة والحطة أن لا يكون له رقيب غير طوائف من المخلوقات تستبيح فى السر ما تنكر فى العلانية

وحسب الأخلاق من الضعف أن لا تتماسك إلا بأسباب واهية من الرياء

وقد حار الباحثون فى فهم السر الذى قضى بأن تخلد الكتب التى بلَّغها الأنبياء والمرسلون

فليفهموا ، إن شاءوا ، أن مرجع ذلك السرّ إلى الصدق ، فالأنبياء والمرسلون لم يكن فيهم رجل كاذب ، وإنما كانوا جميعا صادقين ، فقد سجلوا عيوبهم ومساويهم تسجيلاً صريحاً لا مواربة فيه ولا تضليل ، وهل كانت

الكتب التى بلّغها الأنبياء والمرسلون إلا تسجيلاً للمآسى الإنسانية الممثّلة فى أخطاء الأنبياء والمرسلين ؟

سيفنى كل شىء وتبقى خطيئة داود

سيفنى كل شىء ويبقى العتابُ الموجَّه إلى الرسول فى القرآن

سيفنى كل شىء ، وتبقى صور البكاء على الآثام والذنوب ، بكاء الأنبياء والمرسلين

وسيبقى كل شىء إلا الصلاح المزيف الذى ظفر به الأوباش من من أدعياء الاستقامة والعدالة والصلاحية لتربية العقول والقلوب

وأشقى الأمم هى التى يكون معلموها ومربوها مخادعين ومنافقين

أشقى الأمم هى التى تعيش بعقول الأطفال فلا ترى غير الظواهر والعناوين

أشقى الأمم هى التى تحاسب على الرغيف المسروق ولا تحاسب على المجد المسروق

أشقى الأمم هى التى ينصب فيها للظاهر ميزان ولا ينصب فيها للباطن ميزان

وإنما فُرِض عليها هذا الشقاء لأنها حُرِمتْ حقاً وصدقاً من جواهر الأخلاق

وهل تظفر أمة بجمال الخُلُق حين يسرها أن تجمُل الوجوه وإن قبُحت القلوب ؟

إن المصدر الأصيل للخُلُق الجميل هو القلب ، فان غفلت الأمم عن

هذا الجوهر فهى أمم مضيَّعة مفتونة لا تصلح لغير الرق والاستعباد

لن تفلح أمة إلا حين تتخلق بأخلاق الله ، وهو عز شأنه لا ينظر إلى الصور ولا إلى الأعمال ، وإنما ينظر إلى القلوب

تباركت يا ربى وتعاليت ، وبك يستعزّ ويستنصر كل من شاءت رحمتك أن لا يكون له نصير غيرك

وما أسعد من تفضلت عليه فكتبت أن لا يعرف نصيراً سواك

---

٥ — وكما يخاف الصوفية شهوة البطن يخافون شهوة الفرج ، وينكرون أن يتناول الرجل من الأدوية ما يقوّى شهوته على الاستكثار من الوقاع كما يتناول بعض الناس أدوية تقوّى المعدة لتعظم شهوة الطعام . ومثال ذلك عندهم مثال من ابتُلى بسباع ضارية ، وحيّات عادية ، فتنام عنه فى بعض الأوقات فيحتال لاثارتها وتهيجها (١)

وهم فى أغلب أحوالهم يؤثرون العزوبة على الزواج ، ولكنهم يدعون إلى الزواج عند خوف الفتنة ، ويتحرزون من كل ما يثير الشهوات ، ويستقبحون أن تمرّ صورة الشهوة المحرمة على خيال المريد ، ولذلك تفاصيل مرت فى الكلام على الحب

ومن علامة صدق المريد أن يتزوج فقيرة متدينة ولا يطلب الغنية ، فان لزواج الغنية آفات ، منها المغالاة فى الصداق ، وتسويف الزفاف ، وفوت الخدمة ، وكثرة النفقة ، وإذا أراد طلاق الغنية لسبب مقبول فقد يمنعه الحرص على مالها ، والفقيرة بخلاف ذلك (٢)

---

(١) الاحياء ، ج ٣ ص ١٠٧ (٢) الاحياء ج ٣ ص ١١٠

ويستحب الصوفية أن تكون المرأة دون الرجل بأربع : السن والطول والمال والحسب

وأن تكون فوقه بأربع : الجمال والورع والخلق والأدب

ويوجب الصوفية أن يصبر الرجل على امرأته ، وحدثوا أن أحدهم خطب امرأة ذات جمال ، فلما قرب زفافها أصابها الجدرىّ ، فاشتد حزن أهلها لذلك خوفاً من أن يستقبحها ، فأراهم الرجل أن عينيه أصابهما رمد وأن بصره ذهب ، وزفت إليه وذهب عن أهلها الحزن ، فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ، ففتح عينيه ، فسأله إخوانه عن سر ذلك فقال : تعمدته لأجل أهلها حتى لا يحزنوا ، فقيل له : سبقت إخوانك بهذا الخلق

وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها ، فقيل له : لم لا تطلقها ؟ فقال : أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها .

وللصوفية أحاديث فى الزواج يضيق عن سردها المجال ، وللقارىء أن يرجع إلى قصة سعيد بن المسيب فى الاحياء فهى صورة من الأدب الرفيع

ولهم فى مدافعة الشهوات آيات

حدث أحمد بن سعيد عن أبيه قال : كان عندنا بالكوفة شاب متعبد ، ملازم للمسجد الجامع لا يكاد يفارقه ، وكان حسن الوجه ، حسن القامة ، حسن السمت ، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به ، وطال عليها ذلك ، فلما كان ذات يوم وقفتْ له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له : يا فتى ، اسمع منى كلمات أكلمك بها ثم اعمل ما شئت ، فمضى ولم يكلمها ، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له : يا فتى

اسمع منى كلمات أكلمك بها ، فأطرق مليًا وقال لها : هذا موقف تهمة ، وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً . فقالت له : والله ما وقفت موقفى هذا جهالة منى بأمرك . ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد الى مثل هذا منى ، والذى حملنى على أن لقيتك فى هذا الأمر بنفسى معرفتى أن القليل من هذا عند الناس كثير ، وأنتم معاشر العبّاد على مثال القوارير أدنى شىء يعيبها ، وجملة ما أقول لك أن جوارحى كلهـــا مشغولة بك ، فالله الله فى أمرى وأمرك

فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلى فلم يعقل كيف يصلى . فأخذ قرطاساً وكتب كتاباً ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة فى موضعها فألقى إليها الكتاب ورجع إلى منزله . وكان فى الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

اعلمى أيتها المرأة أن الله عز وجل إذا عصاه العبد حلم ، فاذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره ، فاذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب ، فمن ذا يطيق غضبه ؟ فان كان ما ذكرت باطلا فانى أذكرك يوماً تكون فيه السماء كالمُهل ، والجبال كالعِهن ، وتجثو الامم لصولة الجبار العظيم ، وإنى والله قد ضعفت عن إصلاح نفسى ، فكيف إصلاح غيرى ، وإن كان ما ذكرت حقاً فانى أدلك على طبيب هدى يداوى الكلوم الممرضة ، والاوجاع المرمضة ، ذلك الله رب العالمين ، فاقصديه بصدق المسألة فانى مشغول عنك بقوله تعالى : وأنذرهم يوم الآزفة ، إذ القلوب لدى الحنـــاجر كاظمين ،

ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . فأين المهرب من هذه الآية ؟ »

ثم إنها جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع لمنزله كيلا يراها فقالت : يا فتى ، لا ترجع ، فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلا غداً بين يدى الله تعالى . ثم بكت بكاء شديداً وقالت: أسأل الله الذى بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عَسُر من أمرك !

ثم إنها تبعته وقالت : أمننْ علىّ بموعظة أحملها عنك

فقال : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك ، واذكرى قوله تعالى : وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار

فأطرقت وبكت بكاء أشد من بكائها الأول ، ثم أفاقت ولزمت بيتها وأخذت فى العبادة ولم تزل على ذلك حتى ماتت كمداً (١)

وإنما ذكرت هذا الشاهد لعذوبته من الوجهة الأدبية ، وهناك شواهد تعد بالمئات ، وهى تصور جوانب من حلاوة الأدب وطهارة الأخلاق .

والمهم أن نسجل أن الصوفى يخاف ربه أشد الخوف ، ويكره الشهوة أشد الكره ، ولا يتقدم ولا يتأخر الا وهو فى حيطة وحذر من أحابيل المفاتن والصبوات

والصوفية يعرفون مزالق النفوس والأهواء فيتحرزون من النساء ومن الوجوه الصباح ، ويجاهدون أهواءهم بالعزلة فى بيوتهم وبالظمأ والجوع وبمصاحبة الأتقياء

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١١٤

وقد أشرنا غير مرة إلى أن الشهوات هى الأصل فى عمارة الوجود ، ولـكن من ذا الذى يرضى أن تذهب مروءته ليعمر الوجود ؟

من ذا الذى يرضى أن يكون وقوداً فى أتون العمران ؟

من ذا الذى يرضى أن يكون عضواً فى الجمعية الآثيمة التى تعمر الوجود بأسباب الشهوات ؟

وما قيمة الوجود كله إذا خرجنا من ربحه خاسرين ؟

ما غنيمة الرجل الذى يجاهد لاغناء الحيـاة الأدبية بالصور الحسية والاجتماعية على نحو ما فعل ميسيه ولامرتين إذا خرج من جهاده بمحصول سخيف هو فقد كرامته بين الناس ؟

وهل يستطيع أطرف الأدباء أن يكون أخلد من ابليس ؟ إن بعض الأدباء — وأنا منهم — يتوهمون أن وصف الشهوات والمآثم يرفع الأدب ويحييه ، وذلك ضلال مبين

فما ظفرتُ ولا ظفر أمثالى بغير عصارة مريرة الطعم والمذاق .

إن الصوفية أعقل من الأدباء وأشرف

سيلقى الصوفية ربهم راضين مبتسمين ، أما نحن فسنذهب الى النار فى ركاب امرىء القيس الذى أنذره الرسول .

لقد فقدنا كل شىء ، حتى الطمع فى عفو الله ، وهل يعفو الله على من خلَّدوا آثار المآثم والشهوات باسم الأدب الرفيع ؟

إن من أشنع الأضاليل أن تظن أن من الأدب أن تصف كل ما ترى العيون

إن من أشنع الأضاليل أن تحسب أن من واجبك أن تصور كل ما فى الوجود .

إن من أسخف الأباطيل أن تخال أنك جندىّ من جنود الحب والهيام والفتون .

تلك دنيا من الوهم السخيف طفنا بملاهيها ونحن سفهاء . ثم رجعنا نادمين وأين نحن من الصوفية ؟

أين مكان المسود من مكان السيد ؟

أين يقع حال اللاهين اللاعبين الذين لا تغنيهم الحلائل عن الخليلات من حال الصوفية الذين لا يعرفون اللذات الا فى حدود الحلال ؟

قولوا فى الصوفية ما شئتم ، ولكن تذكروا أنهم أشراف متصونون يكرهون مواطن التهم ومواضع الشبهات .

وهل فى الدنيا حال أشرف من حال من يقطع السبيل على اللاغين والمتقولين ، فلا يمكن السفلة من الوقوع فى عرضه كلما شاء لهم هواهم أن يلمزوه فى الأندية والمجتمعات ؟

إن أصغر مزية للتصون هى ردّ الأعداء خائبين ، الأعداء اللئام الذين يعرفون صدق سريرتك ، ثم يتوكأون على قصيدة تقولها فى منظر جميل ليستبيحوا عرضك عند من تعرف ومن لا تعرف

إن أهون فضيلة من فضائل التصون هى إجاعة الأوباش الذين لا يجدون وسيلة لاشباع بطونهم غير الوقوع فى أعراض الرجال .

فان قلت إن الصوفية على طهارتهم لم يسلموا من ألسنة الأنذال ، فانى أجيبك بأن حالهم أفضل من حال الأديب الوصاف الذى يمكن الأنذال من اتهامه بالاثم والفتون ، فلا يجدون من يصرفهم عن غيهم

باسم العقل والوجدان .

إن الصوفية أفضل من الأدباء وأشرف

فليكن من همنا أن نحاول اللحاق بأولئك القوم

ولكن أين العوائم وأين القلوب !

٦ — وكما يحترس الصوفية من شهوات البطن والفرج يحترسون من آفات اللسان .

والصوفية هم أكثر الناس كلاماً فى التحذير من الكذب والغيبة والنميمة والفضول .

وما اتفق لرجل من الصوفية أن يؤلف كتاباً إلا تكلم على آفات اللسان . فقد علمتهم التجارب أن اللسان يضر كما ينفع ، وهدتهم عظات الأيام الى أن اللسان قد يجر صاحبه الى المخاطر والمعاطب

وما تقدم إنسان أو تخلف إلا كان اسانه من أسباب ما غنم من تقدُّم أو رُزِىء من تخلف

وشواهد الحال فى كل مجتمع تشهد بأن الألسنة لها أثر فعال فى مراكز الرجال .

فالرجل العاقل يلقى الناس بما يحبون ، ويأبى عليه أدبه أن يواجههم بما يكرهون .

وقد يسوء حظ الرجل ويجانبه التوفيق فيتوهم أن من واجبه أن يصارح الناس بعيوبهم ومساويهم، وهو يحسب ذلك من الشجاعة الأدبية ، ولو عقل لعرف أن الشجاعة الصحيحة هى ضبط اللسان وحبسه عن إيذاء الناس .

وقد يتفق فى بعض الأحيان أن نُقهر على الجهر بكلمة الحق ، ولكن تلك الحال هى الشاهد على العجز الموبق ، فالرجل الحكيم يستطيع دائما أن يكون عفيف القول رطب اللسان ، ولا تصدر الكلمة السفيهة عن لسان الرجل إلا وهو مقهور مغلوب ، وما قهره ولا غلبه إلا ضعف عزيمته عن مقاومة ما فى صدره من أهواء وشهوات .

٧ — اهتم الصوفية بالكلام على آفات الألسنة ، وكادوا يسكتون عن آفات الأقلام ، وإنما كان الأمر كذلك لأن الأقلام فى الأزمان الخالية لم يكن لها مجال .

أما اليوم فالقلم يأسو ويجرح ، وهو صديق من أصدقاء السوء والبهتان

كان القدماء يقولون :

جراحات السنان لها التئامُ ولا يلتام ما جرح اللسانُ

وكان اللسان يجرح فى بيئات ضيقة محصورة يعد أصحابها بالعشرات أو بالمئات .

أما اليوم فالقلم يجرح فى بيئات يعد أصحابها بالألوف أو بالملايين .

والكلمة الجارحة فى جريدة أو فى مجلة تنتقل من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، ومن قارة الى قارة ، وتحدث من الآثار السيئة ما تعجز عن غسله الأنهار والبحار .

كانت الغيبة باللسان توجه الى فرد من الأفراد ، أما الغيبة بالقلم فقد تؤذى حكومة من الحكومات أو شعباً من الشعوب .

وما بنا أن ننهى عن نقد الحكومات والشعوب ، ولكننا نوازن بين

حالين : حال من يغتاب فرداً وحال من يغتاب حكومة أو أمة .

فالذى يغتاب فرداً يعطل مصلحة فردية ، أما الذى يغتاب حكومة فهو يحرض عليها جماهير كثيرة فيسوق الشعب إلى التمرد والعصيان ، ولذلك عواقب تهدد مصالح الألوف والملايين . والذى يغتـــاب أمة قد يعرضها لأخطار من الوجهة الاقتصادية أو الوجهة الدولية . والناس يقعون فى هذه المآثم كل يوم ولا يتنبهون لخطر ما يصنعون .

ومن تقاليد هذا العصر أن ننشىء الجرائد والمجلات لمحاربة الحكومات والأحزاب ، ومن حقنا أن نفعل ذلك ، والحجة فى أيدينا وهى الغيرة على المصلحة القومية ، ولكن يغيب عنا أن الأهواء قد تكون لها مسالك فى تزيين ما نتورط فيه أحيانا من الجور والاعتساف .

فالذى يهجم على رئيس حكومة أو رئيس حزب لا يعرف فى الأغلب خطر ما يصنع من الوجهة الأخلاقية ، لأن التمذهب فى الحياة السياسية قد يحوّل صاحبه إلى طاغية يستبيح كل شىء فى تأييد المذهب الذى انحاز اليه ، وفى السياسيين رجال عُرفوا بالأدب والذوق ، ولكنهم فى الجدل السياسى يخرجون على ما عرِفوا به من التجمل وضبط النفس ، حتى لتحسب للرجل منهم شخصيتين مختلفتين أشد الاختلاف .

وإنما كان ذلك لأن مذاهب السلوك فى العصر الحديث لا تعرف مآثم الاغتياب فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، كما تعرفها فى الحياة الفردية ، فرئيس الحكومة أو رئيس الحزب لا يجوز اغتيابه من حيث هو فرد ، ولكن يجوز اغتيابه من حيث هو رئيس حكومة أو رئيس حزب ، والغيبة

الاجتماعية والسياسية أبشع أثراً من الغيبة الفردية ، ولكن أين من يتنبه إلى دقائق الأخلاق ؟

يضاف إلى ذلك أن الغيبة الاجتماعية والسياسية تنشر بطريقة علنية فى الجرائد والمجلات ، وقراء الصحف فيهم من يصدق كل ما يقرأ ، وهنا وجه الخطر ، فلو كان الناس جميعا قادرين على نقد ما يقرأون لخفت أضرار الغيبة الاجتماعية والسياسية ، وبقيت مهابة رؤساء الحكومات ورؤساء الأحزاب فى صدور الناس .

وإذا كان فى الاحاديث النبوية ما ينذر بأن اللسان قد يهوى بصاحبه فى النار سبعين خريفا فنحن نؤكد أن القلم قد يهوى بصاحبه فى النار سبعمائة ألف خريف .

والقلم فى هذا الزمان أخطر الآفات ، وعلى حملة الاقلام أكبر الإثم فى خلق الضغائن والحقود بين الأفراد والجماعات والشعوب ، وهم المسئولون أمام الله وأمام التاريخ عن تكدير السلام وسَوْق الناس إلى المجاوز البشرية

وكتّاب السياسة لاتروج أسواقهم الا إن عُرفوا بالقدرة والبراعة فى تصوير مقاتل الحكومات والأحزاب ، والجريدة التى تؤثر العقل على الهوى يتلقاها الناس بفتور وعدم اكتراث ، لأن فى بنى آدم حيوانيـة مقهورة تطلب الغذاء من الأقاويل والأراجيف ، ولذلك يصفقون لمن يجترح المآثم باسم الغيرة على عمار الكون مع أنهم يعرفون أن بيته خراب .

وسيأتى يوم تعتدل فيه الموازين الذوقية والأدبية والاجتماعية والسياسية ، فيعرف من لم يكن يعرف أن العالم السياسى كان يتلون بألوان الشهوات والأهواء

وأن من أقطاب السياسة الدولية من يضرب الأمم بعضها ببعض فى خطبة أو مقالة وهو معقول بعقال الشراب .

سيأتى يوم يعرف فيه المسلمون أن حضارتهم العظيمة لم تقوضها غير الأقلام الباغيـة ، أقلام الكتاب والمؤلفين الذين غفلوا عن أخطار الغيبة الاجتماعية ، فحبّروا الفصول الطوال فى المفاضلات بين الأمم الاسلامية حتى شطروها الى عناصر يبغى بعضها على بعض بلا تورع ولا استحياء .

وثورة الأمة الفارسية على اللغة العربية كانت لها أسباب من هذا النوع .

وثورة الأمة التركية على الحروف العربية كانت لها دواع من هذا القبيل .

ولن تزول آثار هذه الغيبة القلمية الا يوم يمنّ الله على المسلمين بكتّاب حكماء يعرفون كيف يقتلعون جذور هذه الفتن من الأفئدة والقلوب .

ولـكن متى يأتى ذلك اليوم ؟

إن الأقلام تقدم ما تشاء من الألوان ، وهى تبغى على العدل والسلام بلا حق ، وتأخذ الأجر على خدمة البغى والاثم والعدوان .

متى يعرف الناس أن صراخ الأرامل وبكاء اليتامى فى أعقاب ما تصنع الحرب من إهلاك الأزواج والآباء كان مرجعه الى القلم الأثيم ؟

متى يعرف الناس أن « الدعايات » التى تنظمها الحكومات والأحزاب هى سموم خطرة تفتك أشد الفتك بطمأنينة الأمم والشعوب .

متى يعرف الناس أن « الدعاية » يجب أن تـكون باباً من الهداية ؟

متى يفهم بنو آدم قيمة الصدق فى الوصف ؟

متى يجيء رجل صوفى ينبه أهل هذا الزمان إلى خطر القلم ، كما نبه

الصوفية الى خطر اللسان فى الأيام الخالية ؟

متى ؟ متى ؟ إن أهل هذا العصر لا يفهمون من الأخلاق إلا شيئاً واحداً ، هو أن يحسن المرء أساليب الرياء حتى يسلم من شر الجواسيس فلا تكون له صحيفة فى سجلات السوابق . وذلك حظ خسيس لو يعلمون !

٧ — كان الصوفية يعرفون أن لا نجاة من خطر اللسان إلا بالصمت ، وهم يذكرون أن عقبة بن عامر سأل رسول الله عن النجاة فقال : أمسِكْ عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك(١)

وفى هذه الكلمات نظام الأخلاق .

فحفظ اللسان أصل عظيم من أصول السلامة ، وقرار المرء فى بيته أدب نفيس لا يتأدب به غير أحرار الرجال ، وهل كان العطب والهوان إلا فى الضجر من أمان البيت ؟

إن عورات المرء تنكشف حين يخرج من بيته ، وماذا يلقى حين تضيق عليه رحبة البيت ؟ يلقى اللاغين والآثمين من أكلة اللحوم ، لحوم الأعراض ، يلقى المتجرين من أهل الغواية والاثم والفسوق ، يلقى حطب جهنم من الأوباش الذين لا يعرفون كيف يقضون الوقت بالاستماع إلى موعظة حسنة أو الاطلاع على كتاب نفيس .

والناجحون فى هذا الوجود هم الذين يعرفون كرامة البيوت .

والصعاليك هم الذين يجدون راحتهم فى هجر بيوتهم ليعيشوا من فضلات السفهاء .

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١١٦

وفى الدنيا ناس لا يجدون القوت ، ولكنهم يسترون فاقتهم بالقرار فى بيوتهم ، وهؤلاء هم حزب الله ، وهم المصطفون الأبرار يوم ينصب الميزان .

وأبشع هوانٍ فى الدنيا هو الاعتماد على الناس ، وما مدّ مخلوق يده إلى صديق أو قريب إلا كان ذلك بداية الخذلان ، ولا استطاع المرء أن يعيش فى حماية أصدقائه ، أو رعاية أقربائه ، الا وقد عرف أنه مخلوق ذليل مهين .

فمن أين جاء للرجل الذى اسمه محمد أن يقول فى وصية من استهداه « وليسعك بيتك » ؟

تلك حكمة لا تخرج إلا من لسان رعاه الله واصطفاه .

أما وصيته بالبكاء على الخطيئة فأمرها معروف . ولا يصلح الرجل للخير إلا إن عرف كيف يبكى على خطاياه .

إن الصوفية يخشون شر اللسان ، ويستأنسون بقصة معاذ بن جبل إذ قال : يا رسول الله ، أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال الرسول : ثكلتك أمك يا ابن جبل ، وهل يكبّ الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم(١).

ونحن نعرف جيداً أخطار اللسان : فصاحبنا عيسى بن هشام تكدر عيشه وساءت سيرته ، لأنه ابتُلى بعدوّ سفيه لا يتقى الله فى الأعداء ولا الأصدقاء ، فأذاع عنه من الافك ما أذاع ليسقط مكانه فى المجتمع ، وصديقنا الحارث بن همام كان رجلا يصلح لأعاظم الشؤون ، ثم ابتلته المقادير بصديق ينفس عليه مكانته العلمية والأدبية فأخذ يلمزه من حيث لا يحتسب ليسوّىء سمعته عند من يملكون منافعه الدنيوية ، وأخونا العزيز هيان بن بيان

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١١٦

كان خليقاً بأن يشغل أعظم منصب فى الدولة ، ثم شاء الحظ العاثر أن يكون له زميل ساقط الهمة والمروءة والشرف لا يعيش إلا بالتزلف إلى الكبراء ، ومن الكبراء من يسرهم أن تسوء سمعة الرجال ليتفردوا بالسيطرة والجبروت

وكذلك صح عندنا بعد التجارب الأليمة أن السلامة لا تكون إلا لمن رحمه الله فكتب أن يعيش بلا أقرباء ولا أصدقاء ولا رفقاء .

والويل كل الويل لمن وثق بالأصدقاء وأمن غدر الزمان !

ويعتقد الصوفية أن الأعضاء كلها تذكّر اللسان بواجبه وتقول : اتق الله فينا فانك إن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا (١)

ويروون أن ابن مسعود كان على الصفايلِّي ويقول : يا لسان ، قل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم .

فقيل له : يا أبا عبد الرحمن ، أهذا شيء تقوله ؟ أو شيء سمعته ؟ فقال : لا ، بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه(٢)

ويروون أن ابن عمر حدث أن رسول الله قال : من كف لسانه ستر الله عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ، ومن اعتذر الى الله قبل الله عذره(٢)

وأن معاذ بن جبل قال : يا رسول الله أوصنى ، فقال له الرسول : اعبد الله كأنك تراه ، وعدّ نفسك فى الموتى ، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك من هذا كله ، وأشار بيده الى لسانه(٢)

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١١٦

(٢) الاحياء ج ٣ ص ١١٧

وأن رسول الله قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت (١)

وأن الحسن قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه قال : رحم الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم (١)

وأن البراء بن عازب قال : جاء أعرابى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، فقال الرسول : أطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فان لم تستطع فكف لسانك إلا من خير (١)

وأن الرسول قال : الناس ثلاثة : غانم وسالم وشاجب ، فالغانم الذى يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاجب الذى يخوض فى الباطل (٢) .

ويؤكدون أن المنصور بن المعتمر لم يتكلم بكلمة بعد عشاء الآخرة أربعين سنة

وأن الربيع بن خيثم ما تكلم بكلام الدنيا عشرين سنة ، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاساً وقلماً ، فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء

قال أستاذنا الغزالى طيب الله ثراه :

« فان قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض فى الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات . فهذه آفات كثيرة وهى

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١١٧ (٢) الشاجب : الهالك

سباقة الى اللسان لا تثقل عليه، ولها حلاوة فى القلب، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب، ويمسكه ويكفه عما لا يحبّ، فان ذلك من غوامض العلم، ففى الخوض خطر، وفى الصمت سلامة، فلذلك عظمت فضيلته، هذا مع ما فيه من جمع الهمة، ودوام الوقار، والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ومن حسابه فى الآخرة فقد قال تعالى: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (١)»

ويمضى الغزالى فيقسّم الكلام الى أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة. أما الذى هو ضرر محض فتركه واجب، وكذلك ما فيه منفعة لا تفى بالضرر. وأما الكلام الذى لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول، والاشتغال به تضييع زمان، وهو عين الخسران (١)

بقى القسم الرابع وهو معرض لأخطار الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس، ولا يسلم من آفاته إلا من وقف على دقائق الاخلاق

٨ — ويستقبح الصوفية أن يتكلم الرجل فيما لا يعنيه: ويروون أن الرسول قال: أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة، فدخل محمد بن سلام، فقام اليه ناس من أصحاب الرسول وأخبروه بذلك وقالوا: أخبرنا بأوثق عمل فى نفسك ترجو به؟ فقال: إنى لضعيف، وإن أوثق ما أرجو به سلامة الصدر، وترك ما لا يعنينى.

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١١٨

وأن أبا ذر قال : قال لى رسول الله : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ، ثقيل فى الميزان ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، فقال : هو الصمت ، وحسن الخُلق ، وترك مالا يعنيك[١]

وقال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول : خمسٌ هنّ أحب إلىّ من الدراهم الموقوفة : لا تتكلم فيما لا يعنيك فانه فضل — أى فضول — ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً ، فانه رب متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فعنّت ، ولا تمار حليما ولا سفيهاً . فان الحليم يقليك ، والسفيه يؤذيك ، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به ، وأعفه مما تحب أن يعفيك منه ، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به . واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالاحسان مأخوذ بالاجترام[١]

وقال مؤرق العجلى : أمر أنا فى طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ، ولست بتارك طلبه . قالوا وما هو ؟ قال : السكوت عما لا يعنينى .

وقد شرح الغزالى حدود هذه الآفة فقال : حدّ الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكل ما لو سكتّ عنه لم تأثم ، ولم تستضر به فى حال أو مآل . مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم ، فهذه أمور لو سكتّ عنها لم تأثم ولم تستضر بالسكوت .

ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك ، فأنت بالسؤال مضيع وقتك

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١١٩

وقد ألجأت صاحبك أيضا بالجواب الى التضييع ، هذا إذا كان الأمر مما لا يتطرق بالسؤال عنه آفة . وأكثر الأسئله فيها آفات . فانك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له : هل أنت صائم ؟ فان قال نعم ، كان مظهراً لعبادته فيدخل عليه الرياء ، وإن لم يدخل الرياء عليه سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وإن قال : لا ، كان كاذبا ، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به ، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه . فقد عرضته بالسؤال : إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار ، أوللتعب فى حيلة الدفع . وكذلك سؤالك عن سائر عباداته وعن المعاصى وعن كل ما يخفيه ويستحي منه ، وكذلك سؤالك عما حدث به غيرك . وكأن ترى إنسانا فى الطريق فتقول : من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فان ذكره تأذى به واستحيا ، وإن لم يصدُق وقع فى الكذب وكنت أنت السبب[١] .

وهذه الشواهد تمثل أشياء من صور المجتمع لعهد الغزالى ، ولو عاش فى عصرنا لأضاف أشياء ، فمن الناس من يدخل بيتك فيسألك عن كل ماتقع عليه عيناه : يسأل عن تكاليف الأثاث ، وعدد الحجرات والغرفات . وقد يسأل عن البيت متى بنيته ، وكيف أقمته ، وربما سألك عن الجيران وجيران الجيران ، وقد يسألك عن أطفالك وعن أسنانهم ومدارسهم وما تنتظر لهم فى المستقبل القريب أو البعيد ، وهو لا يسكت عن حالك فى وظيفتك ، ويرى من حقه أن يعرف مكاسبك ومغانمك ، وقد يرى من حقه أيضا أن

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٢٠

يعرف تكاليف أثوابك ، وأن يبدى ملاحظته السديدة على هندامك !

واللغو والفضول من أظهر شمائل الناس فى هذه الأيام ، ولا بدّ من صوفىّ جديد يضع للمجتمع الحاضر قواعد ينتهى اليها الناس . إن كانوا صالحين للتأدب بأدب الرجال .

وأغرب ما تراه العيون غرام بعض الصحفيين بالبحث عن مذاهب الناس ومسالكهم فى الحياة ، وقد يطيب لهم أن يسألوك عن كل شىء ، كأن من حق الجمهور أن يعرف ما تأكل وما تشرب وما تلبس . وتلك شهوات سخيفة يعيش منها الفارغون والبطالون

والصوفى يكره لنفسه ولمريديه أن يقعوا فى شىء من ذلك ، والأدب الحق أن لا تدخل فى شؤون معارفك وأصدقائك ، بل الأدب كل الأدب أن تجهل من أمورهم كل شىء

والرجل المهذب هو الذى يدخل بيوت الناس وعينه عمياء ، وأذنه صماء ، فلا يرى ولا يسمع ، ثم يخرج وهو سليم القلب من أوضار الانتقاد والاعتراض .

٩ — والصوفية يكرهون لمريديهم أن يقعوا فى آفة المراء والجدال ، ويستأنسون بقول الرسول : من ترك المراء وهو محقّ بنى له بيت فى أعلا الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة (١)

فترك المراء من المحقّ أعلا منزلة لأن المحق يجد عُسراً وصعوبة فى ترك الجدال ، ومن أجل ذلك كان انصرافه عن المجادلة أدلّ على قوة نفسه ، وشدة

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١١٩ والربض فى الأصل هو الحظيرة وتكون بالأرض

امتلاكه لهواه

ويستأنسون أيضا بقول الرسول : إن أول ما عهد الىّ ربى ونهانى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال (١)

والرسول يرى الجدال من أسباب انحلال الشعوب ويقول : ما ضلّ قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدَل (١)

وشواهد الأحوال تؤيد هذه النظرة النبوية ، فالأمم التى تكثر فيها المخاصمات والمجادلات هى الأمم المعرضة للانحلال ، وأقوى الأمم اليوم هى الأمة الانجليزية وهى أقل الأمم غراماً بالمجادلات الصحفية والبرلمانية ، وستظل قوية إلى أن يبتليها الله بجماعة من الصحفيين الطائشين الذين يقتلعون بالجدل والمهاترة أصول الهيبة والحب من قلوب الناس

والسر فى قبح الجدل يرجع إلى ما فيه من شهوة الاستعلاء ، ومن هنا كان خطره على الصداقات والمودات ، ولا يمكن أن تصح بينك وبين رجل مودة إذا ظننت أنك أفضل منه أو ظن أنه أفضل منك

وكان سفيان يقول : صاف مَن شئت ، ثم أغضبه بالمراء ، فليرمينَّك بداهية تمنعك العيش (١) .

وهذا كلام يعرف صدقه من ابتلاهم الله بمجادلة الناس .

وقد شرح الغزالى حقيقة المراء فقال :

« حدّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه : إما فى اللفظ ، وإما فى المعنى ، وإما فى قصد المتكلم . وترك المراء بترك الانكار

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٢٣

والاعتراض . فكل كلام سمعته فان كان حقا فصدق ، وإن كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه . والطعن فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة ، أو من جهة العربية ، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير ، وذلك يكون من قصور المعرفة ، وتارة يكون بطغيان اللسان ، وكيفما كان فلا وجه لاظهار خلله . وأما فى المعنى فكأن يقول : ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا . وأما فى قصده فمثل أن يقول : هذا الكلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وانما أنت فيه صاحب غرض .... وهذا الجنس إن جرى فى مسألة علمية فربما خص باسم الجدل ، وهو أيضا مذموم ، بل الواجب السكوت ، أو السؤال فى معرض الاستفادة لا على وجه العناد ... وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ونسبته الى القصور والجهل[1] »

ومعنى هذا أن من أدب المريد أن يترك الاعتراض على الناس تركاً كلياً ، ومعناه أيضا أن من سوء السلوك أن نتحدث عن خطب الخطباء ، ورسائل الكتاب ، وقصائد الشعراء ، وآثار المؤلفين ، فلا نصحح أغلاطهم ، ولا ننبه على الضعيف من أساليبهم ، والمبتذل من معانيهم ، لأن الباعث على ذلك هو الترفع باظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار الجهل والنقص ، وهما شهوتان باطنتان للنفس

وقد هدتنا التجارب الى صدق هذه النظرة الصوفية ، فكل ما نجترحه

---

(١) ج ٣ ص ١٢٤

باسم النقد الأدبى هو ضلال فى ضلال ، وهو يخلق من العداوات والحزازات ما نعجز عن دفعه فى أكثر الأحيان

وقد نهجم على ناس فنصحح أغلاطهم علانية فى الجرائد والمجلات ، وتكون الحجة أننا نخدم الحياة العلمية والأدبية ، وفى هذا ظل من الحق ، ولكن من نهجم عليهم يؤذون أنفسهم ويسوّدون صحائفهم بالطعن فينا وتشويه سمعتنا عند من نعرف ومن لا نعرف ، وقد يكون فيمن نصحح أغلاطهم ناس صغار يستبيحون خلق المآثم والعيوب ، وإشاعة الأقاويل والأراجيف .

وفيمن ابتلاهم الله بالصراحة فى النقد الأدبى رجل خدم الحياة الأدبية نحو عشرين سنة فلم يخرج من ذلك الكفاح العنيف إلا بمغانم باطلة هى ما رماه به أدعياء العلم والأدب من أدناس الزور والبهتان

أستغفر العقل ، ففيهم من يظفر من ذلك الكفاح بمحصول نفيس : هو اليأس من أدب النـاس ، والثقة المتينة بعدل الله . وحسن الظن بالله هو أساس التصوف ، وهو لا يتم إلا إن اقترن بسوء الظن بالناس

وإذا كان الصوفية يكرهون لمريديهم أن يجادلوا الناس ، فهناك رجال يكرهون للصوفية أن يعترفوا بوجود الناس ، وسيطول ندمهم على ما صنعت أيديهم حين أقاموا الموازين لمؤلفات ودواوين لا يصلح أهلها لشىء ، وإن كان الله تلطف فأباحهم الاستمتاع بنعمة الشمس والهواء

وأى منظر أقبح من منظر مخلوق ترفع اسمه بقلمك فيكون جزاؤك أن يأكل لحمك فى الأندية والمجتمعات ؟

وأى ندم أوجع من ندم رجل يخلق بقلمه منازل أدبية لبعض المخلوقات، ثم تعتمد تلك المخلوقات على ما غنمت بفضله من الشهرة فتؤذيه أبلغ إيذاء باسم الانتصاف للحق والغيرة على ما سموه الأدب الرفيع ؟

وما قيمة الحياة الأدبية والعلمية إذا خرجنا من خدمتها مجرحين بأظافر الأوباش ؟

ولكن لعل لله حكمة فيما يبتلى به العلماء من تصحيح أغلاط الجهلاء.

تباركت يا ربى وتعاليت ، فلك الفضل فى كل حال ، وكنت أحكم الحاكمين فى خلق الشر والدمامة والقبح ، فتلك أصول قام على أساسها الوجود ، ولو رحمت من يرجون رضاك من شر خلقك لكان نصيبهم الضياع

فيها أيها المريد ، جادل من شئت ، وناضل من شئت ، على شرط أن تكون لك نية حسنة فى الجدال والنضال .

ولا يضيرك بعد ذلك أن يأكل لحمك السفهاء ، فأنت فى وجود لا يسلم فيه من أذى الناس الا الخاملون والضعفاء ، وهل سلم الأنبياء والمرسلون من أذى الناس حتى تطلب السلامة من أذى الناس ؟

١٠ — ولكن تذكر أيها المريد مهما كان حالك وشأنك ما حدّث ابن قتيبة إذ قال : مرّ بى بشر بن عبد الله فقال : ما يجلسك ههنا ؟ فقلت : خصومة بينى وبين ابن عم لى فقال : إن لأبيك عندى يداً ، وإنى أريد أن أجزيك بها ، وإنى والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين ، ولا أنقص للمروءة ، ولا أضيع للذة ، ولا أشغل للقب من الخصومة . قال : فقمت لأنصرف فقال لى خصمى : مالك ؟ قلت : لا أخاصمك ! فقال : إنك عرفت أن الحق لى !

فقلت : لا ، ولكنى أكرم نفسى عن هذا [١]

والصوفية لا ينكرون أن يخاصم الرجل فى سبيل حقوقه ، ولكنهم ينكرون اللدد فى الخصومة ، لما فى اللدد من التسلط والايذاء ولا سيما إذا امتزج اللدد بكلمات لا يُحتاج إليها فى تأييد الحجة وإظهار الحق « فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد ولا زيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام . ولكن الأولى تركه ما وجد إلى الترك سبيلا ، فإن ضبط اللسان فى الخصومة على قدر الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب . وإذا هاج الغضب نُسى المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ، ويطلق اللسان فى عرضه ، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات[١] » .

والحق أن هذا الجانب من الأدب دقيق ، فالخصومة فى سبيل الحقوق واجبة ، ولكنها تجرّ أحياناً إلى ضيم وهوان . والوقوف أمام المحاكم يغض من أقدار الرجال ، وما ينبغى أن يعرف الرجل أبواب المحاكم إلا حين تضيق أمامهُ جميع المسالك . والذى يقف للدفاع عن حقه أمام المحكمة قد تسوقه الظروف إلى التزيد ، والتزيد قبيح ، وقد ينتهى إلى رمى الخصم بعبارات أو إشارات لا تصلح للصدور من رجل كريم . ومن هنا كره الصالحون أن يكون الرجل فصيح اللسان أمام القضاة . لأن فصاحة اللسان قد تحقّ الباطل فى بعض الأحيان .

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٢٥

١١ — والصوفية يكرهون للمريد أن يتقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة(١) ويذكرون أن عمر بن سعد بن أبى وقّاص جاء إلى أبيه سعد يسأله حاجة، فتكلم بين يدى حاجته بكلام فقال له سعد: ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقر الكلأ بألسنتها (١).

ولا يدخل فى هذا تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب، فإن الغرض من الخطابة تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها، ولرشاقة اللفظ تأثير فى ذلك، فأما المحاورات التى تجرى لقضاء المصالح فلا ينبغى أن يقع فيها أىّ تكلف.

ومعنى هذا أن الصوفية يرون التفصح من غير موجب ينافى أدب الرجل المهذب.

١٢ — والصوفية يكرهون لمريديهم أن تقع ألسنتهم فى الفحش، والفحش هو كلام «غليظ» يجانب سلامة الذوق، وقد نهى الرسول عن أن تُسبّ قتلى بدر من المشركين فقال: لا تسبوا هؤلاء، فإنه لا يخلص إليهم شىء مما تقولون، وتؤذون الأحياء، ألا إن البَذاء لؤم(٢) وقال: إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصيّاح فى الأسواق.

وقال إبراهيم بن ميسرة: يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة فى صورة

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٢٦ (٢) الاحياء ج ٣ ص ١٢٧

كلب أو فى جوف كلب[١] .

ويكره الصوفية أن يتكلم الرجل عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة « وأكثر ذلك يجرى فى ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها ، بل يكنون ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها ... وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويُستعمل أكثرها فى الشتم والتعيير ، وهذه العبارات متفاوتة فى الفحش وبعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد ... والباعث على الفحش إما قصد الايذاء ، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ، ومن عادتهم السب[١] »

والغزالى بهذه العبارة متنبه إلى تلون الألفاظ بألوان الأقاليم : فما يستقبح هنا قد لا يستقبح هناك ، والمعول عليه هو البعد عن مخاطبة الناس بما لا يحبون .

وبسبب هذا التحرز أولع العرب بالتأليف فى الكنايات ليرشدوا الجمهور إلى مواقع الخشونة فى التعابير وينبهوه إلى المقبول من الألفاظ فى مختلف الأحوال .

١٣ — ويكره الصوفية أن تجرى الألسنة بكلمات اللعن ، واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى ، وذلك غيرجائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل ، وهو الكفر والظلم ، بأن يقول : لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين . ولكن فى لعن أوصاف المبتدعة خطر ، لأن معرفة

---

(١) الاحياء ، ج ٣ ص ١٢٨

البدعة غامضة ، ولم يرد فيه لفظ مأثور . والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا تجوز لعنته ، كقولك : فرعون لعنه الله ، وأبو جهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعُرِف ذلك شرعا . أما شخص بعينه فى زماننا كقولك زيد لعنه الله ، وهو يهودىٌ مثلاً ، فهذا فيه خطر ، فإنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله ، فكيف يحكم بكونه ملعوناً »[١] .

ونقل الغزالى أن نعيمان شرب الخمر فحُدَّ مرات فى مجلس رسول الله ، فقال بعض الصحابة : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به ! فقال الرسول : لا تكن عوناً للشيطان على أخيك .

قال الغزالى : وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز

ثم قال : فإن قيل : هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو آمرٌ به ؟ قلنا : هذا لم يثبت أصلاً . فلا يجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت . فضلاً عن اللعنة ، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق . ولا يجوز أن يُرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق[٢] .

ونصُّ الغزالى على اسم يزيد له دلالة اجتماعية ، فهو يصور بعض عيوب المجتمع فى القرن الخامس ، ولعلها من عيوبه إلى اليوم ، فقد كان وقوع الناس فى أعراض الخلفاء والملوك والوزراء من العيوب الشائعة فى الممالك الاسلامية ، وإليها يرجع أكبر الأسباب فى زعزعة الأمن والثقة بين الناس ، والخصومة بين الأمويين والعلويين لها دخلٌ فى ذلك ، وقد نهى الصالحون

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٢٩

(٢) الاحياء ج ٣ ص ١٩٣٠

عن مضغ حوادث التاريخ ، ولا سيما حين ينتهى ذلك إلى النزاع والشقاق وهذه الآفة على ما فيها من بشاعة كان لها فضل على الأدب يراه من اطلع على كتاب « المدائح النبوية فى الأدب العربى » فقد بينّا هناك كيف أتى الكميت بالأعاجيب وهو يهجو الأمويين ، وكيف برع دعبل وهو يهجو العباسيين ، ولكن ذلك الهجوم على ما فيه من روعة فنية وأدبية لا يليق بالمريد ، لأن هذه الخصومات أصبحت فى ذمة التاريخ ، والاقبال عليها قد يولد فى النفس أحقاداً جديدة يشقى بها الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

وقد بدأ الشيعة يتأثرون بمذهب أهل السنة فى التغافل عن سيئات الماضى، وفى رجال الشيعة لهذا العهد من يروض تلاميذه على دراسة التاريخ دراسة علمية لا مذهبية ، وسيأتى يوم قريب جدّاً يتأدب فيه المسلمون جميعاً بأدب الصوفية الذين يستنكرون تكفير مسلم أو تفسيقه بلا بينة ولا برهان .

والتسامح أساس الحب ، ولا يعطف المسلمون بعضهم على بعض إلا إذا اقتربوا فى فهم الأشياء ، وتناسوا ما فى التاريخ من ضغائن وظلمات[1].

---

(١) يحسن من باب الاستقصاء أن نذكر أن رأى الغزالى فى النهى عن لعن يزيد خلق لأهل السنة تهمة هم منها أبرياء وهى التشيع ليزيد ، وقد عرض اليمانى لنفى هذه التهمة فى كتاب الروض الباسم — ج ٢ ص ٤٠ — ٤٤ فبرأ الغزالى من القول بتصويب يزيد فى قتل الحسين وبين أن الغزالى لم يخص يزيد بتحريم اللعن فهو مذهبه فى كل فاسق وكافر كما رواه عنه النووى فى الأذكار .

ثم ساق اليمانى شواهد صريحة من كتب أهل السنة فى التوجع لمصرع الحسين ونقل عن صحيح البخارى أن ابن عمر سأله رجل فى دم البعوضة ، فقال : ممن أنت ؟ قال : من العراق فقال : انظروا الى هذا يسألنى عن دم البعوضة وقد قتلوا ابن بنت النبي صلى الله عليه وسلم !

وكان ابن حزم قد اتهم بالتعصب لبنى أمية ، فنفى ذلك اليمانى وأورد نصوصا من كلام ابن حزم تشهد بسخطه على سيرة يزيد (انظر الروض الباسم ج ٢ ص ٣٦ ، و٣٧)

١٤ — والصوفية يبغضون الافراط فى المزاح والمداومة عليه، لأن ذلك يورث الضحك ، وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة فى بعض الأحوال وتسقط المهابة والوقار[١].

وقال يوسف بن أسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك، وقيل أقام عطاء السلمى أربعين سنة لم يضحك . ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون فى عيد فطر فقال: إن كان هؤلاء قد غُفِر لهم فما هذا فعل الشاكرين، وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين[٢].

وقال عمر بن عبد العزيز : اتقوا الله وإياكم والمزاح فانه يورث الضغينة ويجرّ إلى القبيح ، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به ، فان ثقل عليكم فحديث حسن من أحاديث الرجال .

وقيل : لكل شيء بذر ، وبذر العداوة المزاح .

قال الغزالى فان قلت : فقد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف يُنهَى عنه ؟ فأقول : إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقا ولا تؤذى قلباً ولا تُفْرط فيه ، وتقتصر فيه أحياناً على الندور ، فلا حرج عليك فيه . ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الانسان المزاح حرفة فيواظب عليه ويُفْرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم فيكون كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن الرسول أذن لعائشة فى النظر

---

(١) ص ١٣٢

(٢) رويت هذه الكلمات فى زهر الآداب منسوبة الى الحسن البصرى

إلى رقص الزنوج فى يوم عيد، وهو خطأ ، إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالاصرار ، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالاصرار[١].

ولا ريب فى أن المزاح فيه أحياناً مطايبات تشرح الصدور ، ولكن المهم هو أن لا يقع فى المزاح ما يؤذى الرفيق والصديق والجليس ، فمن الناس من يأمن جانبك فيمازحك بما لا تحب ، وأمثال هؤلاء قد حرمهم الله نعمة الخُلق الكريم ، وصحبتهم بلاء ، وأسوأ الناس حظا فى دنياه من ابتُلى برفاق محرومين من نعمة الذوق لا يرعون حرمة المجلس ولا حق الجليس .

والمزاح فى الأصـــــل فيض من جَذَل النفس ، وقد يجب فى بعض الأحيان ، ولكن الحيطة فيه قد تصعب ، وسياسة النفس عند الانشراح لا يقدر عليها إلا الأقلون ، فمن واجب من يهمه أمر نفسه أن يترك المزاح جملة واحدة إلا إن صادف من يدركون قيمة المطايبات ، وهم فى هذا الزمن أقل من القليل .

يضاف إلى هذا أن الناس لا يدركون النكتة بطعم واحد ، فما يضحك له هذا قد يغضب منه ذاك ، وفى بنى آدم مخلوقات لها أذواق غِلاظ ، والهرب من صحبة هؤلاء واجب مفروض على الرجل الحصيف .

وقد أثر عن كبار الرجال كثير من المزاح والمطايبات ، ولكن هؤلاء الرجال الكبار كانوا يعرفون كيف يمازحون ويطايبون ، وكان جلساؤهم فى الأغلب من أهل الفطنة والذوق ، فما جاز لهم لا يجوز لك ، فقد تكون ممن ابتلاهم الله بأن يعيشوا فى عصر محروم من نعمة الفطنة والذوق .

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٣٤

وما أحب أن أزيد ، وقاك الله من أهل زمانك وحماك !

١٥ — وهناك آفة أشنع من المزاح وهى السخرية والاستهزاء . وذلك محرم لما فيه من الايذاء . قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن » ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يُضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالاشارة والايماء . . . وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يُسخر به كانت السخرية فى حقه من جملة المزح[1].

١٦ — والصوفية ينهون عن الوعد الكاذب ، ولا نرى موجباً لشرح هذه الآفة فقد فشت فى هذا الزمان حتى صارت من قواعد السلوك . والله المستعان على أهل هذا الزمان !

١٧ — ويكره الصوفية لمريديهم أن يكذبوا فى القول واليمين « وهو من قبائح الذنوب ، وفواحش العيوب[2] » فقد قال الحسن : كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج . وقال رسول الله : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم . المنان بعطيته ، والمنفِّق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل إزاره . وقال : ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة فى قلبه الى يوم القيامة . وقال :

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٣٥

(٢) عبارة الغزالى فى الاحياء ج ٣ ص ١٣٧

ثلاثة يحبهم الله ، رجل كان فى فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ، ورجل كان معه قوم فى سفر أو سَرِيَّة[١] فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل. وثلاثة يشنأهم الله : التاجر أو البياع الحلاف والفقير المحتاج[٢] والبخيل المنان

والصوفية يرون الكذب أقبح من الزنا ويستأنسون بما روى عن عبد الله بن جراد قال : سألت رسول الله فقلت : يا رسول الله ، هل يزنى المؤمن ؟ قال : قد يكون ذلك . قلت : يا نبى الله ، هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » .

وسُمِع رسول الله يقول فى دعائه: « اللهم طهر قلبى من النفاق ، وفرجى من الزنا ، ولسانى من الكذب »

فجعل الكذب فى بشاعة الزنا والنفاق

وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهمْ عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعابد مستكبر .

وقال : لو أفاء الله علىّ عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا ... وقام رسول الله وكان متكئا فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الاشراك بالله وعقوق الوالدين . ثم قعد وقال : ألاَ وقول الزور .

---

(١) السرية على وزن فعيلة القطعة من الجيش تسرى خفية

(٢) لعل الصواب « المختال »

وقال : إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد عنه الملك مسيرة ميل من نتن ما جاء به .

وقال : تقبَّلوا لى بست أتقبل لكم بالجنة . قالوا : وما هنّ ؟ قال : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا وعد فلا يخلف ، وإذا ائتُمِن فلا يخن ، وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم .

وقال : كل خصلة يُطبَع أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب .

ومن أبلغ ما قيل فى تقبيح الكذب قول ابن السمَّاك : ما أرانى أوجَر على ترك الكذب لأنى إنما أدعه أنفة .

وهنا تظهر سماحة التصوف ، فالصوفى يكره الكذب لأنه ينافى شرف النفس ، وهم مع ذلك فطنوا إلى ما فى الكذب من الإضرار بالناس ، فنصوا على « أن الكذب ليس حراماً لعينه ، بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره »[1] .

وقد تكلم الصوفية على ألوان من الأكاذيب ، وسكتوا عن أشياء لم تعرفها العصور الماضية إلا قليلا ، سكتوا عن الأكاذيب التى يعرفها « المهذبون » من أهل هذا الجيل ، وعن الأخبار التى يخترعونها اختراعاً أثيما ليغضّوا من أقدار الرجال ، وهم فى هذا يعتمدون على الغفلة الفاشية بين الناس ، فأكثر خلق الله يصدّقون كل ما يسمعون ، والحط من قيمة الرجل باختراع الأكاذيب أمرٌ سهل ، لأنه يقوم على انعدام الضمير ، والضمير عند أكثر من تعرف لفظ بلا مدلول

(١) عبارة الغزالى فى الاحياء ج ٣ ص ١٣٩

والكذب لا يقف ضرره على المكذوب عليه ، بل ضرره بالكاذب أقبح وأشنع ، لأنه يمحق شخصيته الخلقية . ويقفه أمام نفسه موقف الذليل المهين ، وأوقح الناس لا يستطيع الفرار من رؤية الأشياء على ما هي عليه : فالكاذب يعرف جيداً أنه كاذب ، وهذه المعرفة تؤذيه أشد الايذاء ، لأنها تقتل ثقته بشرف النفس ، وإذا انعدمت ثقة مخلوق بشرف نفسه فصيره إلى الانحلال .

والصدق ينفع الناس ، ولكن فضله على الصادق أعظم وأجزل ، لأنه يقدم إلى صاحبه ذخائر من الثقة والأمانة والشرف ، وثقة المرء بقدرته على كرم الخصال تسوقه إلى ميادين المجد ، وترفع رأسه فى السر والعلانية ، وتؤهله للمنازل الكريمة بين الرجال .

وأكثر من درسوا الأخلاق يتوهمون أنها ترجع إلى غايات نفعية هى الصلاحية للحياة السعيدة بين الناس . ولو تأملوا لعرفوا أن للأخلاق منفعة نفسية ، فهى ترسل الأشعة الكريمة على آفاق النفس ، وتحيط القلب الطيب بأرواح الفراديس .

ولا يعرف صدق هذه العبارة إلا من راض نفسه على التخلق بأخلاق الحكماء . وما فى الأخلاق الصوالح من صعوبة وعُسر هو أساس ما فيها من نشوة روحية ، لأنها تصورنا أمام أنفسنا بصورة القادرين المسيطرين على زيغ الأهواء والميول .

١٧ — والصوفية يرون الكذب مما يُطلب فى بعض الأحوال ، كأن يتوقف عليه الصلح بين الناس ، وكأن يكون وسيلة لتغطية الضغائن والحقود .

ومعنى هذا أن الخلق يحسُن أو يقبُح تبعاً لما يسوق من المغانم، أو يجرّ من المفاسد .

والذى يدل على استثناء بعض ضروب الكذب ما روى عن أم كلثوم قالت : ما سمعت رسول الله يرخص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الاصلاح ، والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها .

قال الغزالى : فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ما عداها اذا ارتبط به غرض مقصود صحيح ، له أو لغيره ، أما ماله فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول ما زنيت وما سرقت . . . وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما ، وعرضه بلسانه وإن كان كاذباً ، وإن كان عرض غيره فبأن يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب اليه ، أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه الا بانكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به (١) .

والمهم من كل ذلك هو النص على أن الصوفية يبغضون الكذب أشد البغض حين يكون فيه إضرار وإيذاء ، ويتسامحون فيه حين يكون أقرب الى الخير من الصدق

١٨ — ننتقل الى رأى الصوفية فى الغيبة . قال الغزالى : « والنظر فيها طويل » .

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٤١

والواقع أن الصوفية جميعا تكلموا على مآثم الاغتياب ، وكان فى النية أن نعقد فصلاً للكلام على هذه الآفة الخبيثة التى يرجع اليها أكثر أسباب الفساد بين الناس ، وهى فى حقيقة الأمر أفظع المهلكات ، وهى سلاح الضعفاء والعاجزين والأوغاد ، وما سهلت الغيبة على لسان مخلوق إلا كان ذلك شاهداً على ترديه فى بؤرة الانحطاط [١]

والله عز شأنه ذم الغيبة فى كتابه العزيز وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال : « ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » وقال عليه السلام : كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه . وقال : لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تناجشوا[٢] ولا تدابروا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ، وكونوا عباد الله إخوانا . وقال : إياكم والغيبة ، فان الغيبة أشد من الزنا ، فان الرجل قد يزنى ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه . وقال : مررت ليلة أسرى بى على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم فقلت : يا جبريل ، من هؤلاء؟ قال : هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم .

وقال البراء : خطبنا رسول الله حتى أسمع العواتق[٣] فى بيوتهن فقال:

« يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا

---

(١) لم تخلق ألفاظ الشتم إلا لتوجه الى هذا الصنف الوضيع من المخلوقات

(٢) التناجش هو أن تستام السلعة بأزيد من ثمنها ليراك الآخر فيقع فيها ، والنهى عن النجش والتناجش يشهد بأن المناورات التجارية مرض قديم عرفه الناس قبل عهد الرسول .

(٣) العواتق جمع عاتق وهى الشابة أول ما أدركت

عوراتهم ، فانه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته » .

وقيل أوحى الى موسى عليه السلام : من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار .

وقال أنس : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه[1] فقال : إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وأربى الربا عرض الرجل المسلم .

ولما رجم رسول الله ماعزاً فى الزنا قال رجل لصاحبه : هذا أقعص كما يقعص الكلب ! فمرّ صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة فقال : إنهشا منها ! فقالا : يا رسول الله ، ننهش جيفة ! فقال : ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه

وقال الحسن : والله للغيبة أسرع فى دين الرجل المؤمن من الأكلة فى الجسد[2] .

وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة فى الصوم ، ولا فى الصلاة ، ولكن فى الكف عن أعراض الناس .

وسمع على بن الحسين رجلا يغتاب آخر فقال له : إياك والغيبة فانها إدام كلاب الناس .

وإنما أطلنا نقل هذه النصوص لغرضين : الأول دلالتها على اهتمام

---

(١) المراد من تعظيم شأن الربا تجسيم خطره وأذاه

(٢) الأكلة بالضم والكسر وبوزن تبعة هى الحكة ، وهى مرض وبيل يفرع الأجساد ، والأكلة هى الغيبة مجازاً .

الصوفية بتقبيح الاغتياب ، والثانى ما فيها من الصور الأدبية ، فهى جميعاً من الكلام النفيس . وإنا لنرجو أن ينتفع بها أحد القارئين فتكون نعمة من الله على هذا الكتاب .

١٩ — والغيبة هى أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو فى نسبه أو فى خلقه ، أو فى فعله ، أو فى قوله ، أو فى دينه ، أو فى دنياه ، حتى فى ثوبه وداره ودابته[1]

وهى لا تقتصر على اللسان ، بل يتحقق أذاها بالتعريض والاشارة والايماء والغمز والهمز والكتابة والحركة ، وكل ما يفهم المقصود فهو داخل فى الغيبة وهو حرام .

والاغتياب بالكتابة هو فى عصرنا أشنع أنواع الاغتياب ، لأنه ينشر فى الكتب والجرائد والمجلات فيطير من أرض الى أرض

ومن الغيبة أن تقول (بعض من مر بنا اليوم ، أو بعض من رأيناه) إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معينا ، فاذا لم يفهم عينه حاز ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كره من إنسان شيئاً قال : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا [2]

والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المغتاب ، قال صلى الله عليه وسلم : المستمع أحد المغتابين[2]

ولا يخرج المستمع من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه ، أو بقلبه إن خاف ، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه إثم الغيبة .

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٤٥ (٢) الاحياء ج ٣ ص ١٤٧

وإن قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ، ولا يخرج من الاثم مالم يكرهه بقلبه(١)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أُذلّ عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق

وقال : من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة .

وقال أيضا : من ذبّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار

وقد عرض الغزالى أسباباً للغيبة تدل على بصره بأخلاق الناس ، وأنا أرجع أسباب الغيبة الى سبب واحد هو شعور المغتاب بالانحطاط ، فهو يريد أن يحط من أقدار الناس ليصبح من المألوف أن الناس جميعا منحطون فيتساوى الفاضل بالمفضول .

والجهلاء يولعون باغتياب العلماء ليوهموا أنفسهم ويوهموا الجمهور أن العلم مزية صغيرة ، وأن المزايا كلها فيما يدعيه الجاهلون من متانة الأخلاق .

ومن هنا لم تسلم أعراض العلماء من ألسنة السفهاء ، فكل ذى نعمة محسود ، وما ظفر رجل بمنزلة علمية أو أدبية أو اجتماعية إلا ضاقت به صدور الجهلاء والمهازيل والمتخلفين .

وسينقضى الدهر قبل أن تصح أخلاق الناس فيثق أهل الفضل بأنهم فى أمان من تقول المتقولين ، وإرجاف المرجفين ، ومكايد المنحطين .

---

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٤٧

ومن الصور التى لا تزال حية من عهد الغزالى إلى اليوم صورة الرفاق الذين لا تطيب مجالسهم إلا بأكل لحوم الناس ، وهى ما سماه « موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام ، فانهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة فى الصحبة وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة فى السرّاء والضراء فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوى[1] » .

وقد أخذت هذه الصورة ألواناً جديدة فى العصر الحاضر : العصر الدميم الذى لا يفوز فيه إلا أهل البذاءة والرقاعة والانحطاط ، وصار من تقاليد المجالس أن يكون فيها سفهاء يقدمون الفواكه المحرمة للآذان الشرهة التى لا يغذيها غير سماع الزور والبهتان .

والرجل الذى يصون لسانه عن الخوض فى لغو الحديث لا يصلح اليوم للمجالس ، ولا سيما إذا كان أصحاب تلك المجالس من الذين رفعهم الدهر المخبول فوصلوا بالدس والكيد إلى ما يعجز عنه الأحرار والأشراف .

وقد نبه الغزالى على دقائق من الغيبة يقع فيها رجال الدين ، ورجال الدين فى أغلب أحوالهم من أهل الغفلة والعجرفة ، ولا سيما فى العصور التى يغلب فيها الرياء .

ولنعط الكلمة للغزالى فهو بأحوالهم أبصر وأعرف . قال :

« وأما الأسباب الثلاثة التى هى فى الخاصة فهى أغمضها وأدقها ، لأنها

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٤٨

شرور عرضها (١) الشيطان فى معرض الخيرات ، وفيها خير ، ولكن شاب الشيطان بها الشر : الأول أن تنبعث من الدين داعية التعجب فى إنكار المنكر والخطأ فى الدين فيقول : ما أعجب ما رأيت من أمر فلان ! فإنه قد يكون صادقا ويكون تعجبه من المنكر ، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه فى إظهار تعجبه فصار به مغتابا وآثماً من حيث لا يدرى . ومن ذلك قول الرجل : تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهى قبيحة ، وكيف يجلس بين يدى فلان وهو جاهل ! الثانى الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول : مسكين فلان قد غمنى أمره وما ابتلى به ! فيكون صادقا فى دعوى الاغتمام ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحمته خيراً ، وكذا تعجبه ، ولكن ساقه إلى شر من حيث لا يدرى . والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه . الثالث الغضب لله تعالى فانه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه ، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء . فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام فانهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذراً فى ذكر الاسم ، وهو خطأ (٢) »

وما قاله الغزالى عن رجال الدين فى القرن الخامس هو من آفاتهم فى القرن الرابع عشر . ومن النادر جداً أن تتصل برجل من رجال الدين فيوحى إليك

(١) فى الأصل (عباها)
(٢) الاحياء ج ٣ ص ١٤٩

بأدبه ولطفه وروحه معانى الهداية ، وكيف يكون ذلك وهم لا يعرفون غير القعقعة والجعجعة فى خطبهم وأحاديثهم ومقالاتهم ! وقد يتفق لهم أن يؤلفوا الكتب وينشئوا المجلات فى الدعوة إلى الله ، ولكن تنقصهم البشاشة والروحانية فيعجزون عن نقل الناس من الظلمات إلى النور ، وقد ينقلونهم أحياناً من الهدى إلى الضلال .

وربما رجع ذلك إلى أزمة وجدانية وعقلية متصلة بالعصر الحديث ، فشيوع التعاليم المدنية والأنظمة المدنية أوهم رجال الدين أنهم فى حرب مع الجيل الجديد ، وهم بالفعل فى حرب ، وهذا الروح المشبع بسوء الظن والخوف من الهزيمة يحملهم على الإسراف فى اتهام أبناء الجيل الجديد بالوقوع فى المآثم والخروج على أدب الدين الحنيف

وبفضل هذا الاسراف صارت طلعة رجل الدين طلعة كريهة لا يلقاها الناس بالترحيب ، لأنه لا ينظر إلا إلى عيوبهم ، ولا يهتم إلا بالكشف عن مساويهم ، ولا يطول لسانه إلا حين يجد مجالا للتقريع والتأنيب . ولو عقل لعرف أن من واجبه أن يدلهم على مبلغ صلاحيتهم للخير والهداية .

وإذا حُرِم رجال الدين نعمة الحب ، حب الناس لهم والتشوف اليهم ، فقد عجزوا عجزاً تاما عن نصرة الدين ، والخير لا ينتظر من الواعظ البغيض الذى لا يحدّث الناس إلا بما يكرهون .

ومن المؤلم أن يعجز الأشياخ عما يقدر عليه القسيسون ، فالقسيس لا يزال رجلا لطيفاً يداخل الناس ويسايرهم ويسامرهم ليعرف أهواءهم ويقتلها برفق . والترغيب على لسان القسيس أكثر من الترهيب . وقد كان

أشياخنا كذلك قبل أن تشيع الأحقاد بين الأحزاب المدنية والدينية ، يوم كان « شيخ الطريقة » يدخل البلد فيملأها بالبشاشة والروحانية .

وفى مصر اليوم وعاظ يسيرون فى البلاد هادين ومرشدين ، والأمل كبير فى أن يتخلقوا بأخلاق الصوفية فتكون فيهم الوداعة والبشاشة والرفق ليصلوا إلى قلوب الناس ويحببوهم فى الأعمال الصالحات ، وقد يوفّقون إلى السياسة الرشيدة فيتصلون بمن فى الأقاليم من معلمين وموظفين ويشوقونهم إلى التأدب بأدب الدين الحنيف ، ويومئذ يصل الواعظ إلى المنزلة التى كان يتمتع بها الشعرانى والمرصفى والشناوى فى القرن العاشر ، حين كان الصوفية يسيطرون بالأدب الحق على قلوب العوام والخواص .

٢٠ — وقد أفاض الغزالى فى علاج الغيبة ، وله فى ذلك صحائف ببض نودّ لو يرجع إليها القارىء فى الجزء الثالث من الاحياء ، فقد تنقله من حال إلى حال ، وهو يوصى بأن يتدبر المرء فى نفسه فان وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه ، وإذا لم يجد عيباً فى نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثنّ نفسه بأعظم العيوب ، فان ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب .

وقد تحدث عمن يشترك فى الغيبة مجاملة لاخوانه فقال : علاج ذلك أن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه فى رضاء المخلوقين . فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحتقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم ، إلا أن يكون غضبك لله تعالى ، وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء ، بل ينبغى أن تغضب لله أيضاً على رفقائك إذا ذكروه بالسوء ، فانهم

عصوا ربك بأخش الذنوب وهى الغيبة (١)

وتكلم على من يغتاب غيره استهزاء به فقال : وأما الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام ، فلو تفكرت فى حسرتك وجنايتك وخجلك وخزيك يوم القيامة لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك(١) .

٢١ — والصوفية يحرمون الغيبة بالقلب ، وهى سوء الظن

وهذه غيبة هينة من حيث صلتها بالمجتمع لأنها قليلة الايذاء ، ولكن ضررها راجع عليك ، لأنها تفسد قلبك ، وتشغل ضميرك ، وتزعزع وجدانك . وتضيع صفاء نفسك . والواجب أن يخلو قلبك خلواً تاما من كل سوء فلا يكون فيه غير صور الخير والجمال .

٢٢ — وكفارة الغيبة هى الندم والتوبة والتأسف واستقالة من آذيتهم بالاغتياب .

٢٣ — والصوفية يبغضون النميمة ، وهى نقل آراء الناس بعضهم فى بعض وهى آفة سيئة العواقب ، ولا يقترفها إلا المحرومون من نعمة الحب ، حب الخير للناس .

وإذا كانت النميمة إلى من يخاف جانبه سميت سعاية .

قال مصعب بن الزبير : نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة والقبول إجازة ، فاتقوا الساعى فلو كان صادقا فى قوله لكان لئيما فى صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة (٢) .

وقال رجل لعمرو بن عبيد : إن الأسوارى مايزال يذكرك فى قصصه

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٥١   (٢) ج ٣ ص ١٥٨

بشر» ، فقال له عمرو : ياهذا ، ما رعيت حق مجالسة الرجل حين نقلت إلينا حديثه ، ولا أديت حقى حين أعلمتنى عن أخى ما أكره ، ولكن أعلمه أن الموت يعمنا ، والقبر يضمنا ، والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين(١) .

ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته . فوقّع على ظهر الرقعة :

« السعاية قبيحة ، وإن كانت صحيحة ، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أكثر من الربح . ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا فى مستور . ولولا أنك فى خفارة شيبك لقابلناك بما يقتضيه فعلك فى مثلك ، فتوقَّ ياملعون العيب ، فالله أعلم بالغيب . الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والساعى لعنه الله»(٢) .

وقال بعضهم : لو صح مانقله النمام إليك ، لكان هو المجترىء بالشتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك .

٢٤ — أما بعد فقد عرضنا ألوانا من المهلكات ، وأشرنا إشارات خفيفة إلى طرق الخلاص ، ومنهج البحث لايوجب أن نطيل فى شرح المهلكات والمنجيات ، فما أردنا إلا الوصول إلى غرض واحد : هو بيان الحرص الشديد من جانب الصوفية على تقوية الشخصية الخلقية .

قد يقال : إن الصوفية لم يأتوا بشىء جديد ، فهم يرضون ويغضبون على

(١) الأحياء ج ٣ ص ١٥٩

(٢) ارجع الى شخصية الصاحب بن عباد فى الجزء الثانى من كتاب (النثر الفنى)

نحو ما يقع لسائر رجال الأخلاق . ونقول إن ما امتاز به الصوفية هو التحرز الشديد من آفات الأخلاق . والالحاح الموصول فى تعرف أهواء النفوس والقلوب ، وإنا لنرجو أن يرجع القارىء إلى الجزء الثالث والرابع من كتاب الاحياء ، فقد شرح الغزالى ضروب المهلكات والمنجيات شرحاً وافياً وفصَّلها أوسع تفصيل ، وجمع بين المعقول والمنقول بأسلوب شائق جذاب ، وما عرف إنسان مؤلفات الغزالى إلا أحس بوجوب الرجوع إلى درس نفسه من جديد .

خاتمة الكتاب

١ — ما أحسبنى أحتاج إلى التذكير بالأساس الذى قام عليه هذا الكتاب ، فقد فصّلت القول فيه كل التفصيل ، واعتذرت غير مرة بارتباط بعض أجزاء الكتاب ببعض ، ارتباطا يجعل من العسير فى بعض الأحيان أن يكون البحث الواحد فى الأدب الصّرف أو الخُلق البحت ، فلم يبق إلا أن يكون التقسيم مبنيا على غلبة الخصائص الأدبية أو الأخلاقية ، وكذلك صنعت فى تبويب هذا الكتاب ، فجعلت الجزء الأول فى الأدب والجزء الثانى فى الأخلاق .

وقد امتدّ بنا الشوط فى الدراسات والمراجعات وهممنا بأن نجعل هذا الكتاب مرجعاً شاملا لجميع الآراء الصوفية ، ولكن الوفاء لمنهج البحث صرفنا عما هممنا به من الاستطراد والاستقصاء ، فما كانت غايتنا إلا بيان تأثير التصوف فى الأدب والأخلاق ، وفى مثل هذه الحال لا يطلب منا أن نقف عند كل باب وقفة الشارحين والمحققين ، فذلك يُطلب ممن يؤلف كتاباً فى شرح الأخلاق الصوفية على نحو ما صنع المكىّ فى قوت القلوب والغزالى فى إحياء علوم الدين .

٢ — وقد شهد القارىء فى الجزء الأول أننا حرصنا على بيان الخصائص الأساسية للأدب الصوفى ، وأسهبنا فى الكلام على الأشعار والفقرات التى

حملت معانى التصوف عن طريق التصريح أو التلميح ، واهتممنا باظهار ما بين ذلك الأدب وبين المجتمع من صلات ، فاتخذناه وثيقة نعرف بها كيف كانت الروح الفكرية والاجتماعية فى البيئات التى عاش فيها أولئك القوم .

ولم يفتنا أن ننصّ على مزالقهم الأدبيـــة والعقلية ونحن نحلِّل تلك الأشعار والفقرات ، لأننا رأينا أن منهج البحث يوجب أن تكون فى هذا الكتاب أحكام أدبية يهتدى بها من يراجع أدب الصوفية .

وقد جرى ذلك كله فى حدود القصد والاعتدال فلم نخرج من الاطناب إلى التطويل ، ولم نسرف فى عرض الشخصيات الأدبية والفلسفية ، وإنما وقفنا عند الشواهد التى تكفى لبيان المذهب الأدبى أو الفلسفى فى ميدان التصوف ، فالحكم العطائية مثلا لم تكن كل ماعرفه الأدب الصوفى من هذا النوع ، وأشواق ابن الفارض لها نظائر وأمثال ، والحلاج لم يكن أول وآخر من استشهدوا فىسبيل القول بوحدة الوجود ، فهناك الشلمغانى الذى أحرقت جثته فى بغداد ، فمن شاء أن يمضى فى درس الأنواع والشخصيات فليسر على بركة الله فقد مهدنا له الطريق .

وما أذكر أنى ألححت فى الشرح والتبيين إلحاحاً كاد يثقل منهج البحث إلا حين تكلمت على نظرية وحدة الوجود ، وحجتى فىذلك أنهذه النظرية ظلت غامضة على اختلاف الأجيال ، ولم يفهمها من الباحثين إلا الأقلون ، والذين فهموها جبنوا عن عرضها عرضاًواضحاً صريحاً ، وأكثر من فهموها كانوا يؤمنون بها إيمانا لايخلو من جهل وسخف ، فرأيت أن أدرس مالها وما عليها بحيدة نزيهة ، واستطردت فبينت أثرها فى المذاهب الصوفيـــة

والشعبية ، وكدت أنطق القارىء بالقول بأنها رجعة إلى المذاهب الوثنية : فالقول بوحدة الوجود يفرض أن نرى الالوهية فى كثير من الأشياء ، وهذا عند التأمل ليس إلا صورة من الرجعة لأساطير اليونان .

وما أرى فى ذلك شيئاً من الغضاضة على أقطاب التصوف والتشيع ، فالمذاهب الفلسفية يتسلسل بعضها عن بعض ، وتنتقل إلى الناس بطرائق نجهلها من طرائق الوجود فيتقبلونها بلا وعى ولا احتساب ، لأن الانسان فى الواقع يرزح تحت أعباء ثقال من مواريث الأفكار والعقائد والمذاهب ، وقد شرحت ذلك فى المقال الذى نشرته فى جريدة البلاغ منذ سنين فى الرد على الفيلسوف ليڤى برول ، وأنا أقرر بصراحة أن مانظنه خصائص أصيلة لبعض الديانات هو عند التحقيق محصول قديم تضاءل أثره حينا من الزمان ثم رجعت إليه الحيوية والطرافة حين اقتضى ذلك نظام الكون ، والوثنية وإن استقبحها المؤمنون دين صحيح قام على الشعر والخيال والايمان بوحدة الوجود .

٣ — رجونا القارىء مرات أن يكتفى منا بالايجاز ، وعساه يفعل فلا يتهمنا بالتقصير . وقد أشرنا مرة إلى ما صنع أبو الحسن الشاذلى حين فسر بعض آيات القرآن على الطريقة الصوفية ، ولو كان المجال اتسع لأشرنا إلى جميع من فسروا القرآن على ذلك الأسلوب كما صنع ملاّ سلطان على وغيره من الذين رأوا أن أكثر آيات القرآن رموز لمعان روحية ، وهذا اعتساف بلا جدال ، ولكن النص عليه واجب .

وأشرنا كذلك إلى من وجّه أشعار الفجور وجهة روحية ، ولو اتسع

المجال لتكلمنا على كثير ممن صنعوا هذا الصنيع ، ونوهنا بمن عكسوا القضية فنقلوا المعانى الروحية إلى أذواق حسية[١] .

٤ — ليت وليت !

ليت الزمان كان أعفانا من الشواغل التى تقصم الظهر فمضينا نشرح ماتمثلناه وتصورناه ثم تحققناه من الثورة التى أحدثها التصوف فى عالم الأدب والأخلاق .

لقد وضعنا القاعدة حين ألفنا كتاب (الأخلاق عند الغزالى) فتحدثنا قليلا عن أنصار الغزالى وخصومه ، وكان لذلك أثر ظاهر فى تصوير مذاهب ذلك الفيلسوف ، ولو أننا عقدنا باباً فى هذا الكتاب للكلام على أنصار التصوف وخصوم التصوف لاتضح هذا المذهب الفلسفى أكثر مما اتضح ولكن يعزينا أننا لم نغفل هذه الناحية كل الاغفال فقد بسطنا القول فيما بين رجال الحقيقة ورجال الشريعة من خلاف ، وبيّنا ما للتصوف وما عليه بياناً شافيا .

ولكن لامفرّ من تنبيه القارىء إلى أن هناك ثروة أدبية وفلسفية أثارها التصوف ، وهى الشاهد على تأثيره فى الأدب والأخلاق ، وهذه الثروة تنتظر من يثيرها فى كتاب غير هذا الكتاب ، فما كان فى مقدورنا أن نتخطى منهج البحث ونحن مقيدون بسلاسل من حديد هى التقاليد الجامعية التى توجب الوقوف عند الأصول وتكره الافاضة فى الحديث عن الفروع ، لأن نظام الرسالة يغاير نظام الكتاب

(١) من هذا الباب ما أولوا به شطحات ابن عربى (انظر الغيث المنسجم ج ١ ص ١١).

٥ — وكان فى النية أن نعقد باباً للفرق بين تصوف أهل السنة وتصوف الشيعة، ولكننا عند التأمل لم نر موجبا لهذه التفرقة، فالصوفية لا يعيرون هذا الخلاف كبير التفات. والخلاف بين أهل السنة والشيعة ليس خلافا دينيا كما يتوهم الأكثرون، وإنما هو فى أغلب صوره خلاف سياسىّ، ومن قال بغير ذلك فهو غافل أو جهول، والصوفية من الشيعة يرون الغزالى من أساتذتهم وهو سنىّ، والصوفية من أهل السنة يرون الحلاج من أساتذتهم وهو شيعىّ. وكتب التصوف تسكت عن هذه الفروق المذهبية لأن للتصوف غاية تفوق ذلك.

ولكن كانت هناك محاولة تنفع لو اتسع الوقت، وهى شرح تأثر المذاهب الصوفية بالبيئات المحلية، فمن المؤكد عندنا أن الصوفية متصلون بالأرض التى ينشأون فيها أتم اتصال، ومثلهم فى ذلك مثل الفقهاء، فالفقيه المصرى يعانى مشكلات لا يعانيها الفقيه العراقى، وقصة تحليل النبيذ فى حياة أبى حنيفة هى الشاهد على ذلك فقد كان الخلاف حول الشراب مما يشغل أهل العراق(١) والحال كذلك فى التصوف:

فالمعضلات التى اهتم بها الشعرانى معضلات مصرية، والأزمات التى عاناها صدر الدين الشيرازى هى أزمات فارسية، فعند الشيرازى ألوان من المشكلات الأخلاقية أنشأها البلد الذى عاش فيه، وآداب المريدين عنده لها لون خاص يدركه من يتعمق فى درس كتاب «الأسفار» ولو اتسع المجال لتحدثنا عن هذا الفيلسوف فى فصل خاص، فله ذوق يشبه

(١) ولولا الأدب لقلنا إن دفاع أبى حنيفة عن النبيذ له صلة بحياته المرحة فى صباه

ذوق عمر الخيام فى بعض مراميه مع حفظ الفارق بين التصوف والمجون

٦ — ليت ثم ليت ! وهل ينفع شيئاً ليت ؟ .

ليتنا استطعنا أن نتكلم على الصوفية فى العصر الحاضر ، فلهم أذواق وأخلاق تستحق التسجيل ، ولكن عاقنا سوء الظن بمحصولهم الأدبى ، فليس فيهم رجل فيلسوف ، وإن كثر فيهم المتحذلقون !

يضاف إلى ذلك أننا أقمنا هذا الكتاب على أصول يغلب فيها النقد والتجريح . والتعرض للأحياء بهذه الحرية قد يؤذيهم أشد الايذاء .

وما رأيت فى صوفية هذا العصر غير رجلين : رجل طيب القلب يرى الصوفية منزهين عن الملام ، ورجل جاهل يرى التصوف باباً من الانحلال وقد صنت قلمى عن التعرض لهذا وذاك .

ومع هذا نرى عقل العصر الحاضر يميل أشد الميل لدراسة التصوف ، وهى ظاهرة حسنة تبشر باقبال الناس على المعانى الروحية ، وإن كان أغلب الباحثين فى التصوف لهذا العهد لا ينظرون إليه إلا من الناحيـــة الفلسفية أو الاجتماعية (١) .

٧ — ولا بدّ من النص على أن دراسة التصوف الاسلامى كانت توجب الطواف بما كتب عنه فى اللغة الفارسية واللغة التركية ، فى الفرس والترك صوفية لهم مقام عظيم فى الأدب والأخلاق ، ولكن الله أغنانا عن ذلك

(١) ربما جاز القول بأن عناية المستشرقين بدرس التصوف لها تأثير فى توجيه الباحثين من الشرقيين لدرس التصوف بعد أن سكتوا عنه حينا من الزمان ، وأشهر من اهتموا بدرس التصوف الاسلامى بين المستشرقين ماسينيون الفرنسى ونيكلسون الانجليزى

بعض الاغناء : فقد اعتمدنا على مؤلفات عربية كان مؤلفوها يمثلون القومية الاسلامية ، يوم كانت اللغة العربية هى لغة التأليف فى أكثر الأقطار الإسلامية .

وكذلك يجد القارىء روح الصوفية ممثلة فى هذا الكتاب أجمل تمثيل وإن تباعدت بهم المنازل وانقسموا إلى قبائل وشعوب .

٨ — وقد رأى القارىء أننا فى أغلب الأحوال عطفنا على الصوفية أشد العطف ، ولا غضاضة فى ذلك ، فقد يتفق للباحث أن يتعقب الصوفية على نحو ما صنعنا فى كتاب « الأخلاق عند الغزالى » ولكن تعقب الصوفية والنص على أغلاطهم وهفواتهم لا يصرف المنصف عن الاعتراف بأخطارهم العالية بين رجال الأخلاق .

ودراسة مؤلفات الصوفية دراسة عميقة تدلنا على ألوان المعارف الفلسفية والنفسية التى عرفها الأسلاف ، فالصوفية هم علماء النفس عند المسلمين ، وهم الصلة بين القديم والحديث ، القديم الذى عرفه الفرس والروم والهنود والمصريون ، والحديث الذى ابتكره العرب والمسلمون .

والفرق بين باحث مثل أرسطاليس وباحث مثل الغزالى بعيد جدا ، فأرسطاليس يبحث أصول الأخلاق من الناحية النظرية ولا يهمه غير إقناع العقل ، أما الغزالى فيهتم بانارة القلب ، ويسوق الشواهد والأمثال بأسلوب خلاب يحرك القلوب ، وهو مع ذلك لا يغفل عن تعليل الأخلاق وتحليلها من الوجهة النظرية ، فقارىء كتاب أرسطاليس يخرج عالما ، وقارىء كتاب الغزالى يخرج عالماً ومهتديا .

ولو شئنا لغضضنا النظر عن المفاضلة بين أرسطاليس والغزالى ، وفاضلنا بين ابن مسكويه والغزالى ، فابن مسكويه معلِّم ، والغزالى واعظ ، والفرق بين المذهبين لايحتاج إلى بيان .

وما نقول به قد تنبه إليه القدماء حين وازنوا بين كتاب المكى وكتاب الغزالى ، فقد قالوا : كتاب الاحياء يورثك العلم وكتاب القوت يورثك النور .

وإنما كان الأمر كذلك لأن المكىّ فى قوت القلوب غلبتْ عليه النزعة الروحية ، ولا كذلك الغزالى فى الاحياء فقد غلبتْ عليه النزعة العلمية .

ومن الواضح أن الأخلاق لا يكفى فى فهمها قبول العقل ، وإنما يجب أن تتغلغل إلى القلب بحيث يُصبح الحسُّ الخُلقىّ جارحة وجدانية .

وعند هذه النقطة يظهر الفرق بين الصوفية وبين رجال الأخلاق ، فالفلاسفة يعللون ويحللون فى حدود المنطق والعقل ، أما الصوفية فيزيدون على ذلك ربط الشخصية الخلقية بالشخصية الدينية : فالوازع عند الفلاسفة هو العقل ، والوازع عند الصوفية هو العقل والوجدان ومراعاة الأدب مع الله ذى القوة والجبروت والجلال والجمال .

قد يقال : إن فى الصوفية ناسا يستهينون بالأخلاق العملية .

وهذا حق ، ففى الصوفية قوم يحتقرون الظواهر ويحتقرون الأعمال .

وهؤلاء على ضلالهم الظاهر لهم مكانة أخلاقية ، لأنهم لا يثورون على الظواهر إلا وهم يعلمون أنهم عربات تجرها قاطرة الوجود ، فهم فى ضلالهم وهداهم تابعون أوفياء .

وليس المهم أن تنساق مع المأثور من نظام الأخلاق ، ولكن المهم أن لا تتقدم ولا تتأخر إلا وأنت شاعر بأنك على هدى أو على ضلال .

و زيغ بعض الصوفية زيغ جميل ، لأنهم حوّلوا الوجود إلى قوة شعرية تموج بالمفاتن و تزخر بالغرائب والأعاجيب .

وهؤلاء المسرفون على أنفسهم قد استطاعوا أن يحفظوا الشخصية الخلقية نقية سليمة ، فهم تصوروا الشرور والآثام مقاصد أرادها علاّم الغيوب ، ولم يتصوروا أنفسهم ثائرين على العزة الربانية ، وبذلك بقيت ضمائرهم خالصة من شوائب العناد والمكابرة ، فعاش أدبهم الأثيم ينفح بالعطر والطيّب على اختلاف الأجيال

ونخلص من ذلك كله إلى حقيقة واضحة : وهى أن الصوفية فى ضلالهم وهداهم كانوا قوماً يعرفون جواهر الأخلاق ، فللعوام عندهم نظام ، وللخواصّ نظام ، وقد كرهوا أن نحدّث العوام بما نحدث به الخواصّ ، فالأخلاق تتلون وتتشكل باختلاف الأشخاص ، وهذه نظرة لا تخلو من حصافة وسداد

وفى الصوفية من ثار على الكتب المقدسة وثار على الأنبياء ، وهذا فى رأى رجال الشرع كفرٌ موبق ، ولكنه عظيم جداً من الوجهة الأخلاقية ، لأنه يمنح الشخصية الخُلقية قوة ساحقة تجترف جميع العوائق ، وتقف الرجل أمام الله وجهاً لوجه ، كما وقف الأنبياء والمرسلون . وليس هذا بالقليل

ولا تظهر قيمة هذه النظرة إلا إذا تدبرنا ما وقع فيه بعض النصارى وبعض المسلمين من الاستعباد للنصوص ، فالخضوع المطلق للنصوص عطل

المواهب فى البيئات النصرانية والاسلامية ، وخضوع بعض المتصوفه أمام أشياخهم لم يكن إلا صورة من خنوع بعض النصارى أمام القسيسين والرهبان .

وجرأة الأحرار من الصوفية هى فيما أفترض أساس الثورة التى أقامها جمهور من النصارى على الكنيسة الأرتودوكسية والكنيسة الكاتوليكية ، فالبروتستانت من النصارى هم تلاميذ الصوفية من المسلمين ، لأنهم رفضوا أن يكون بينهم وبين الله وسيط ، كما رفض أحرار الصوفية أن يكون بينهم وبين الله وسيط

وسيأتى يوم يتضح فيه أن ثورة بعض النصارى على عبادة الصور لم تكن إلا أثراً لاطلاع بعض القسيسين على المذاهب الصوفية

إن الصوفى المعتدل يقبل من شيخه كل شىء ، كما يقبل النصرانى المعتدل من القسيس كل شىء ، والصوفى المعتدل يقدم كلام شيخه على القرآن والحديث ، كما يقدم النصرانى المعتدل كلام الرهبان على كلام الانجيل ، أما الصوفى الثائر فيرفض جميع النصوص ويتسامى إلى مخاطبة الله والفهم عنه بلا مرشد ولا دليل ، وهنا أقول بصراحة إن هذا أساس متين لبناء الشخصية الخُلقية وإن غضب رجال الدين (١)

١٠ — وهنا تعرض شبهة فى غاية من الخطورة يصورها هذا السؤال :

(١) فى كتاب الورع ص ١١٥ أن وابصة قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن لا أدع شيئا من البر والاثم إلا أسأله عنه فجعلت أتخطى الناس فقالوا : اليك ياوابصة عن رسول الله فقلت دعونى أدنو منه فانه من أحب الناس الى ، فقال ياوابصة أخبرك عما جئت تسألنى عنه أو تسألنى ؟ فقلت : أخبرنى يا رسول الله . فقال : جئت تسألنى عن البر والاثم ، قلت : نعم . قال فجمع أصابعه وجعل ينكت بها صدرى ويقول : ياوابصة ، استفت قلبك ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن اليه القلب ، فاطمأنت اليه النفس ، والاثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك ... وهذه دعوة إلى استقلال الشخصيه الخلقية

كيف يسلم المجتمع مع هذه الآراء؟

ونجيب بأن هذه الآراء تعرّض المجتمع لأخطر أنواع الانحلال ، لأنها تفتح الباب للطفيليين والواغلين من أدعياء الأخلاق ، وستمضى دهور ودهور قبل أن تصلح هذه الآراء لأن تكون شريعة يعيش عليها جميع الناس

إن الخُلق الصحيح هو الذى يروضك على أن تعيش سليما معافى من آفات الشطط والجموح ، وينظمك فى سلك واحد مع من تسايرهم وتعاشرهم من خلق الله أو خلق الشيطان

والعاقل — أعنى صاحب الشخصية الخلقية — هو الذى يفهم أنه مسئول عن مراعاة منافعه الأدبية والاقتصادية بحيث يضمن الربح ويأمن الخسران

ومن أجل هذا حرص جمهور الصوفية على رياضة مريديهم رياضة سليمة تبعدهم عن المزالق ومواطن الشبهات ، كالذى صنع مؤلف القوت ومؤلف الاحياء .

ومن أجل هذا أيضاً قسَّم الصوفية مريديهم إلى عوام ، وخواص ، وخواص الخواص ، ولكل فرقة من هؤلاء الثلاثة آداب

أليس الصوفية هم الذين قضوا بأن صوم خصوص الخصوص لا يقع فيه الفطر بالطعام والشراب ، وإنما يقع الفطر بارتكاب المآثم ونهش الأعراض؟

ولكن هذا الذوق الرقيق لا ينفع مادام فى الدنيا ناس لهم أذواق غلاظ ، والذوق الغليظ هو الغالب على بنى آدم فى كل زمان وفى كل مكان

٧ — أما بعد — وقد تعبنا من أما بعد — فان موقفنا من هذه الآراء موقف المؤرخ للنظريات الفلسفية ، ونحن نعرضها بقوة وعنف كأننا من أهلها ، وليس الأمر كذلك ، وإنما هى عدوى وصلتنا من أستاذنا الغزالى طيب الله ثراه ، فقد كان يسهب فى شرح المردود من الآراء حتى اتُهم بأنه من أنصار تلك الآراء ، فإن بدا لبعض الناس أن يتهمونا بتزيين ما لا يقبله رجال الدين فليذكروا أننا لا نفكر فى متابعة أحد من رجال الدين ، وإنما نجعل النظرية الفلسفية أساس هذه البحوث

وما دامت المقادير شاءت أن يكون هذا الكتاب من محصول الجامعة المصرية فليكن صورة صحيحة من صور التفكير فى الجامعة المصرية ، والتفكير فى الجامعة المصرية يقوم على أساس متين : هو الصراحة التامة فى عرض النظريات والأفكار والآراء

ورحمة الله وسعت كل شىء ، فلن تضيق عن باحث يدرس أوهام القلوب ، وشهوات العقول

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »

زكى مبارك

قوافى الجزء الاول (١)

حرف الهمزة

حرف الباء

(١) اكتفينا بقوافى الجزء الأول لأنه خاص بالأدب الصوفى ، والأشعار فيه كثيرة . أما الجزء الثاني فاكثره دراسات أخلاقية والاشعار فيه قليلة لا تحتاج الى فهرس

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف السين

حرف الطاء

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الياء

كشّـــاف

حرف الالف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

لم يحو هذا الفهرس جميع أعلام الكتاب ، وانما ذكرت فيه الأعلام التى يحتاج اليها المراجع فى بعض الأحيان

فهـــــرس